

إبراهيم عبد القادر المازني
رحلات المازني
الأعمال غير المنشورة
جمع وتحرير وتقديم
عبد السلام حيدر
الأعمال الكاملة
المجلد الخامس
المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

إبراهيم عبد القادر المازنى

الأعمال الكاملة

الأعمال غير المنشورة

المجلد الخامس

رحلات المازنى

جمع وتحرير وتقديم

عبد السلام حيدر

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠١٠

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المازنى ، إبراهيم عبد القادر (١٨٨٩-١٩٤٩)
الأعمال الكاملة ، الأعمال غير المنشورة ، المجلد الخامس -
تطبيقات نقدية ، جمع وتحرير وتقديم : عبد السلام حيدر
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠١٠
٣٣٢ ص ، ٢٤ سم .
١ - الأدب العربى - تاريخ ونقد
(أ) حيدر ، عبد السلام (جامع ومحرر ومقدم)
(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٣٢٦٨
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-479-442 -7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.
Tel. : 27352396 **Fax** : 27358084.
www.scc.gov.eg

فهرس المجلد الخامس

تمهيد عام

مرت عملية نشر أعمال إبراهيم عبد القادر المازنى – حتى الآن – بمرحلتين أساسيتين، فى المرحلة الأولى التى أنجزها المازنى نفسه يمكن أن نتبين عدة نقاط مهمة هى:

(١) أن المازنى بدأ بنشر الشعر "ديوان المازنى – الجزء الأول" (١٩١٣)، ثم الكتابات النقدية حول الشعر "شعر حافظ" (١٩١٣) و"الشعر غاياته ووسائطه" (١٩١٥)، ثم توقف عن نظم الشعر تقريباً عام ١٩٢٠ .

(٢) مع بدء عمله الصحفى بعد ثورة ١٩١٩ نشر (بالاشتراك مع العقاد) "الديوان فى الأدب والنقد" (١٩٢١) ثم "حصاد الهشيم" (١٩٢٥) و "قبض الريح" (١٩٢٧).

(٣) فى عام ١٩٢٨ بدأ المازنى مرحلة الإبداع القصصى؛ حيث اهتم بجمع أعماله القصصية والروائية، بينما امتنع عن نشر الكتب النقدية، وإن لم يمتنع عن مواصلة كتابة المقالات النقدية، وقد نشر فى هذه المرحلة: "صندوق الدنيا" (١٩٢٩)، "إبراهيم الكاتب" (١٩٣١)، "خيوط العنكبوت" (١٩٣٥) ونشر مسرحية واحدة هى "غريزة المرأة" أو "حكم الطاعة" (١٩٣١) التى أثارت ضجة ضخمة بسبب "انتحالها" كما ادعى البعض.

(٤) وفى عامى ١٩٣٥ و١٩٣٧ نشر على التوالى مجموعتى "خيوط العنكبوت" و"فى الطريق" وامتنع عن نشر المجموعات حتى عام ١٩٤٤ حيث نشر مجموعته الأخيرة "ع الماشى".

(٥) وفى عام ١٩٤٣ نشر عدة روايات هى "عودٌ على بَدء" فى أبريل ، و"إبراهيم الثانى" فى يونيه، و"ميدو وشركاه" فى يونيه أيضًا، أما "ثلاثة رجال وامرأة" فقد صدرت فى يناير من عام ١٩٤٤ .

* * *

أما فى المرحلة الثانية التى أنجزها آخرون، وهى المستمرة حتى الآن، والتى جرى فيها تشويه أعمال المازنى بدرجات متفاوتة أعظمها الإهمال شبه التام لها! وفى هذه المرحلة يمكن أن نتبين عدة نقاط مهمة أيضًا:

(١) أول "تشويه" لأحد أعمال المازنى تم فى حياته حين نشرت طبعة مختصرة إلى النصف من "صندوق الدنيا" فى سلسلة "كتب للجميع" عدد مايو ١٩٤٨ .

(٢) وفى آخر ١٩٤٩ صدرت روايته القصيرة "من النافذة". وفى لقاء خاص مع الأستاذ محمد إبراهيم عبد القادر المازنى فى ١٩٩٢/٤/٢٨ ذكر لى أنه نشر "من النافذة" وبعد وفاة المازنى بشهرين، وأن الكتيب الذى نشر فى سلسلة اقرأ كان جاهزًا للنشر قبل وفاته وأنه قد أضاف إليه بعض المقالات، وواضح أن الرواية تنتهى عند الفقرة رقم (٧) وهى السلسلة التى نشرها تحت نفس العنوان فى جريدة البلاغ فى الفترة ما بين ١٩٤٣/١٠/١٠ وحتى ١٩٤٣/١١/٢٨ ، وقد نشر المازنى أربع مقالات أخرى تحت العنوان نفسه: الأولى فى ١٩٤٣/١٢/٥ وتمثل الفقرة رقم (٨)، والثانية فى ١٩٤٤/١/٢ وتحمل رقم (١٢) وهذه سقطت من الكتيب، لا ندرى بمعرفة المازنى أم لا، والثالثة فى ١٩٤٤/١/٩ وتمثل الفقرة رقم (٩)، والرابعة فى ١٩٤٤/١/٢٣ وتمثل الفقرة رقم (١٠)، وظنى أن المقالات التسع الباقية – التى كتبها المازنى فى عامى ١٩٣٦ و١٩٤٤ – هى التى أضافها محمد المازنى حتى يصبح الكتيب فى حجم كتيبات سلسلة اقرأ!

(٣) فى الذكرى العاشرة لوفاة المازنى بدأت "الدار القومية للطباعة والنشر" فى إحياء ذكرى المازنى بإعادة طبع بعض أعماله السابقة، وجمع بعض الأعمال غير المنشورة، فى كتب جديدة، ورغم أن الدار قد أحسنت بجمع ونشر بعض الأعمال غير المنشورة، إلا أنها شوهت أغلب الأعمال التى أعادت نشرها، ربما كان السبب أن لكتب الدار حجمًا معينًا ومن ثم فقد تم تعديل (أو تشويه) هذه الأعمال بطريقة منظمة، حتى تناسب الحجم المقرر لها مسبقًا، والمشكلة هى أن أغلب الطبعات التالية (على سبيل المثال طبعة دار الشروق لبعض أعمال المازنى) اعتمدت – ربما بسبب الكسل – على هذه الطبعة المشوهة وكأنها الأصل الذى نشره المازنى فى حياته! وقد حاولت تحديد هذا التشويه الذى بدأ منذ بداية الستينيات فتوصلت إلى ما يلى:

أ) فى أغسطس ١٩٦٠ تم حذف مقدمة الطبعة الأولى من "إبراهيم الكاتب" (سبع صفحات) وهى المقدمة التى أثبتها المازنى فى الطبعة الثانية عام ١٩٤٥، بل وأضاف إلى هذه الطبعة الثانية مقدمة ثانية قصيرة حذفت أيضًا فى كل الطبعات التى صدرت حتى الآن.

ب) مجموعة "فى الطريق" التى جرى تشويهها فى سلسلة كتاب الهلال فى عدد نوفمبر ١٩٥٣ بحذف ١٤ صورة وأقصوصة، جرى تشويهها مرة أخرى على يد الدار القومية فى مارس ١٩٦١ بحذف ثلاثة أعمال أخرى، ومعنى هذا أن أكثر من نصف المجموعة قد اقتطعت وتمت إضافتها إلى كتب ومجموعات المازنى الأخرى!

ج) فى عام ١٩٧٤ نشرت مجلة "الجديد" رحلة المازنى لحضور مهرجان المعرى تحت عنوان "رحلة الشام" وادعت أن النص لم ينشر من قبل وكذلك فعلت مع نص محاضرة المازنى للمؤتمر، والتشويه يأتى من هذا الادعاء رغم أن نص الرحلة نشر فى جريدة البلاغ (فى الفترة من ١١ أكتوبر ١٩٤٤ إلى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٤) تحت عنوان "فى مهرجان المعرى" وكذلك نص محاضرة المازنى إلى المهرجان التى نشرت مرتين لا مرة واحدة: الأولى تحت عنوان "أبو العلاء الشاعر الإنسانى" فى عدد أغسطس/سبتمبر ١٩٤٤ من مجلة "الحديث" الذى تم تخصيصه للمعرى بمناسبة

المهرجان، والمرة الثانية فى "جريدة البلاغ" على ثلاثة أيام (فى الفترة من ٣٠ سبتمبر وحتى ٢ أكتوبر من عام ١٩٤٤)، مباشرة بعد نشر نص الرحلة، تحت عنوان "أبو العلاء المعرى، كلمة الأستاذ المازنى فى العيد الألفى"، من الجدير بالذكر أن مدحت الجيار أصدر نفس المخطوطة فى كتابه "أدب الرحلة، رحلة الشام للمازنى نموذجًا" (١٩٩٤)، ورغم أن المازنى لم يقم بالرحلة إلا فى عام ١٩٤٤ إلا أنه يذكر أن المازنى كتب المخطوطة وراجعها بقلمه عام ١٩٣٦ ، وربما كان الأقرب للصحة أنه كتبها ونشرها فى البلاغ عام ١٩٤٤ ثم راجعها وأضاف المقدمة فى عام ١٩٤٦ أو حولها.

د) فى عام ١٩٧٥ أعادت دار الشروق نشر مجموعة المازنى الأخيرة "ع الماشى" وكان التشويه هذه المرة بالإضافة حيث أُضيفت للمجموعة خمس أقاصيص كانت قد نزعت من مجموعة "فى الطريق" وهى: الوطواط، والشيخ مبارك، والبرهان، وورطة، وأرواح متآلفة، ولم أستطع حتى الآن التبين إن كان هذا وقع من الدار القومية أولاً أم لا.

وقد ذكر محمد المازنى لى أن ما سقط فى الطبعات التالية كان بسبب غفلة عمه أحمد عبد القادر المازنى الذى كان مسئولاً آنذاك عن نشر تراث أخيه، والغريب أنه رفض أن أطلع على مخطوطة "رحلة العراق" التى بحوزته – لمقارنتها بالنصوص المنشورة تحت نفس العنوان – لعدم ثقته فى الأكاديميين لأن أحدهم، كما قال، قد أخذ بعض المخطوطات ونشرها دون أن يعطيه حقه! والظن أنه يوجد داع للمقارنة لأننى أتصور أن المازنى قد جمع رحلتيه إلى العراق عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٥ تحت مسمى واحد وبمقدمة جديدة، ولأننى لم أتمكن من رؤية المخطوطة بعد ؛ فقد رأيت أن أنشر الرحلتين كل على حدة مع التفريق بينهما بذكر سنة الرحلة بين قوسين.

* * *

بقى أن نشير إلى أن الدار القومية قد نشرت فى الستينيات عدة كتب للمازنى بمعرفة ورثته هى:

أ) "قصة حياة" (فى ١٩٦١/٥/٤) وهو كما جاء على غلافه كتاب جديد لم يسبق نشره، وهو تجميع لسلسلتين من المقالات الأولى نشرها المازنى تحت عنوان "حياة الخوف من الخوف" فى الفترة من نوفمبر ١٩٣٧ وحتى فبراير ١٩٣٨ وتمثل ترجمة ذاتية للفترة المبكرة من حياته الاجتماعية والدراسية، والثانية نشرها تحت عنوان "كيف ولماذا أعتزل الناس" فى الفترة ما بين ديسمبر ١٩٣٨ ومارس ١٩٣٩ وتمثل ترجمة فكرية للسنوات الأخيرة من حياته الفكرية والأدبية.

ب) "مختارات من أدب المازنى" (فى ١٩٦١/٧/٦) وهو تجميع لما نزع من "صندوق الدنيا" و"فى الطريق" بالإضافة إلى ثلاث أقاصيص جمعت من الدوريات هى: "حلم"، و"المطلوب مديرة بيت"، و"عاقبة سليمة".

ج) "أحاديث المازنى" (فى ١٩٦١/٨/١٠) وهو كما جاء على غلافه كتاب جديد لم يسبق نشره، وهو يحتوى على عدد من الأحاديث والمقالات والصور والأقاصيص، وهذا ما يمكن أن يقال أيضًا عن كتاب "سبيل الحياة" الذى نشر فى نفس الفترة، ويحتوى على مجموعة من المقالات والصور التى لم يسبق جمعها فى كتاب مع استثناء وحيد يتمثل فى قطعة "خواطر فى مرقص" المنزوعة من "صندوق الدنيا"، فى هذه الفترة تعرضت "من النافذة" مرة ثانية للتشويه حيث زيدت فقرتين، وأضيف لها ملحق جديد هو "صور من الحياة" الذى حوى ثمانى أقاصيص جمعت لأول مرة.

ورغم أن عدد صفحات هذه الكتب الجديدة يقارب الخمسمائة صفحة، إلا أنه بقىَ الكثير من كتابات المازنى التى لم تجمع، لذا عزمت على تتبع كل ما نشره المازنى لجمعه وتوثيقه، حتى يتيسر إصدار أعماله الكاملة، ولا بد أن أشير إلى أن هاجس إخراج أعمال المازنى الكاملة كان - وما زال - يرافقنى منذ دراستى إياه (فى الفترة ما بين ١٩٩٠ و١٩٩٤) لنيل درجة الماجستير، وكنت آنذاك قد جمعت كمية صالحة من هذه الأعمال، وعندما وجدت الفراغ المطلوب والاستعداد المبدئى من قبل الدكتور جابر

عصفور لطبع الأعمال الكاملة للمازنى، على أن نبدأ بالأعمال غير المنشورة، عدت إلى ما سبق أن جمعته، وشرعت فى جمع الباقى أو نسخه، ورغم صعوبة الأمر، خصوصاً بعد ضياع أو تمزق بعض الدوريات القديمة مما جعل العمل فى بعض الأحيان يشبه عمل علماء الحفريات، إلا أننى واصلت العمل لجمع وتحرير ودراسة الأعمال المجموعة هنا، وقد اعتمدت فى ذلك على ببليوجرافيا أعمال المازنى التى أعدها حمدى السكوت ومارسدن جونز. ورغم اكتشافى أنها، فى بعض الأحيان، لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية؛ حيث نسبت للمازنى أعمالاً لابنه محمد أو لسميه إبراهيم المصرى، إلا أنها أفادتنى فى إعداد هذه الأعمال للنشر فالشكر الجزيل لهما.

وقد قسمت الأعمال المجموعة هنا، على أساس موضوعى، إلى ثلاثة أقسام، قسم "التأملات والذكريات" ويقع فى المجلد الأول من الأعمال غير المنشورة ويضم ما نشره المازنى من مقالات تعرض فيها لذكر بعض أحداث حياته وتأملاته حولها وحول الحياة بصفة عامة. وفى المجلد الثانى والثالث جمعت ما تيسر جمعه من "المقالات والدراسات النقدية" وقسمتها بغرض التسهيل إلى "نظرات نقدية عامة" و"تطبيقات نقدية"، أما المجلد الرابع فخصص لقسم "الأشكال السردية" سواء كانت قصيرة مثل الصورة والأقصوصة والمقال القصصى أم طويلة مثل الرواية، أما المجلد الذى بين أيدينا وهو الخامس والأخير فى مجلدات الأعمال غير المنشورة فتم تخصيصه لرحلات المازنى التى لم تنشر فى كتب، أما رحلته التى نشرت من قبل، "رحلة الحجاز" (١٩٣٠)، فسوف ننشرها فى المجلد الأول من مجلدات الأعمال المنشورة، وهى المجلدات التى تمثل المرحلة الثانية من نشر الأعمال الكاملة لإبراهيم عبدالقادر المازنى وتقع فى عشرة مجلدات تشمل السيرة والرحلة (مجلد)، والأعمال النقدية (مجلدان)، والأعمال القصصية(مجلدان)، والأعمال الروائية (مجلدان)، والأعمال الشعرية (مجلد)، والأعمال المترجمة (مجلدان).

وأخيراً لا يسعنى إلا أن أشكر كل من مد يد العون لإنجاز هذا العمل وأخص بالذكر موظفى مخزن الدوريات بدار الكتب المصرية: نجيب عبد العظيم، وعبد الحكيم على محمد، ومحمد عبد المحسن، وخالد سعيد وأستير مسعد مقار، كما أتوجه بالشكر للمجلس الأعلى للثقافه وأمينه العام الذى وقف خلف هذا العمل حتى اكتمل.

عبد السلام حيدر

مقدمة المجلد الخامس

أشرت فى مقدمة المجلد الرابع إلى أن عام ١٩٢٨ يمثل مرحلة جديدة فى حياة المازنى الأدبية، وهى المرحلة القصصية وكان قوامها التذكر والاستعادة، لقد كان لديه حنين دائم إلى الماضى فكانت أفكاره لا تفتأ تلتفت إلى الخلف ولذا غلب الاجترار على هذه المرحلة، ولكنه كان لا يفتأ أن يخرج من سياقات حياته ليقوم برحلة خارجية قام بتسجيل بعض منها (الحجاز والعراق والشام) وعزف - للأسف - عن تسجيل بعضها (رحلاته إلى لندن) أو سجل بعضها بشكل متشظى (كما فى رحلاته الصيفية إلى لبنان)، وسوف نتناول فى هذه المقدمة الوجيزة محتويات هذا المجلد أى رحلتى المازنى إلى العراق ورحلته إلى الشام وبعض ما نشره عن لبنان.

(١)

تمثل الرحلة لدى المازنى - وربما لدى غيره - شكلاً كتابيًا ملغزًا خصوصًا فى علاقته مع سيرة المازنى الذاتية.

فالمازنى - تبعًا لمتون رحلاته - يفهم الرحلة بوصفها أحد أشكال السيرة الذاتية المحدودة زمنيًا بفترة سفره وما يدور خلاله، ولأن الرحلة نص مرن ومتنوع ومفتوح على كافة الحقول الكتابية الأخرى فإنه يستغلها كمنفذ لرسم صورته وللبوح واجترار الذكريات؛ فسطور رحلاته لا تخلو من ذاته وشخصيته التى تتجلى فى طريقة فهمه للأمور وتناوله لها؛ فهو يمزج ما يراه بتأملاته وخواطره عن ذاته وعوالمه، فى الغالب بضمير المتكلم المفرد وأحيانًا بضمير المتكلم الجمع، فأحداث الرحلة تلجئه كثيرًا إلى

تذكر ماضيه البعيد مثل ما حدث فى "رحلة الشام"[1] فملابسات منعه من دخول فلسطين وتطيره الذى سبق ذلك يذكره بالتطير الذى سبق وفاة زوجته الأولى، وزيارته لحلب، مدينة الموسيقى كما قيل له، تذكره بمحاولته تعلم العزف على الكمان فى صدر حياته، وما حكاه عن الشاعر "بدوى الجبل" يذكره بالكيفية التى بدء بها استخدام اسم أسرته بعد أن كان معروفًا باسم جده، وفى رحلة الشام كما فى رحلة العراق الأخيرة يفصح عن أنه يكره أن ينام مع أحد فى غرفة واحدة "فالنائم يكون على غير ما يدرى من الأحوال والأوضاع، ولست استمرئ أن يرانى أحد على حال لا دخل للإرادة فيه" (رحلة العراق- ١٩٤٥، فقرة ٤).

ولكن الملاحظ أن المازنى لا يميل فى نصوص رحلاته إلى اتخاذ سمات الراوى المهيمن، بل يحكى عن أخطائه وهفواته ويتحدث بأريحية عن لباقة وشهامة الآخرين كأن يقول: "وما أكثر ما أقال إخوانى المصريون من عثراتى وأصلحوا ما أفسد بحماقاتى"[2] ، وعندما يدعى للمحاضرة أمام جمع غفير من الطالبات يقدم وصفًا مدمرًا للذات يقول فيه: "وأنا دقيق الشعور بنفسى مرهف الحس إلى حد المرض، ولا يخفى علىّ – وليته يخفى أو يفتر الإحساس به – أنى قصير قمئ، وأنى دميم وقد شاع الشيب فى رأسى "كنار الحريق ذات الوقود" وإنى فوق ذلك أعرج، وإن كان لا ذنب لى فيما أصابنى، فإحدى رجلىّ أقصر من الأخرى، وأحد الحذائين أعلى من الآخر، فالتشويه تام كما ترى، ولست بإنسان إذا لم يدرِ هذا فى نفسى وأنا واقف كالتمثال أمام أربعمائة عين نجلاء، لمائتين من الفتيات الناهدات" (رحلة العراق- ١٩٤٥، فقرة ١٨).

---

(١) نشرت جريدة البلاغ (فى الفترة من ١١ أكتوبر ١٩٤٤ إلى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٤) تحت عنوان "فى مهرجان المعرى"، وفى عام ١٩٧٤ أعادت مجلة "الجديد" نشر رحلة المازنى تحت عنوان "رحلة الشام" وادعت أن النص لم ينشر من قبل وكذلك فعلت مع نص محاضرة المازنى للمؤتمر، والأدق أن نص المقدمة فقط (عدد فبراير ١٩٧٤) هو الذى لم ينشر من قبل وقد أضفناه فى نشرتنا هذه وذلك فى السياق الذى وضعه المازنى فيه (المحرر).

(٢) راجع فيما يلى الفقرة الخامسة من "رحلة الشام- فى مهرجان المعرى ".

(٢)

تشكّل رحلات المازني مواصلة من جانبه لتقاليد أحد أشكال السرد العربي القديم الذي يعود إلى القرن التاسع الميلادي تقريباً، وهي رحلات تفصح أيضاً عن أحد أشكال تأثره بما قرأه من وعن "الرحلة" في اللغة الإنجليزية، وبصفة خاصة رحلات الكاتب الأمريكي ساميول لانجهورن كليمتر ، الذي اشتهر بمارك توين (١٨٣٥-١٩١٠)، ويلاحظ أن المازني كان يضجر من اتهامه بالنقل عن مارك توين، وقد أشار إلى ذلك (عام ١٩٢٩) فقال: "قال عني بعضهم إني نقلت "مذكرات حواء" عن "مارك توين" الكاتب الأمريكي، وصحيح أن "مارك توين" سبقني إلى الوجود وتقدمني في الحياة، وأنه عاش ومات قبل أن أجئ أنا إلى هذه الدنيا بحقبة طويلة، وصحيح أيضًا أن له "مذكرات حواء" ولكن غير الصحيح هو أني نقلت عنه أو سطوت عليه، ولو قال العائب إني اقتبست به أو قلدته بأن تناولت موضوعًا سبقني إليه، لكان هذا أشبه بالحق"[٢] .

ولعل هذا الأمر يصح أيضًا على أول رحلاته "رحلة الحجاز" التي قال بعض نقاد المازني إنه ينقل فيها عن كتاب مارك توين "أبرياء في الخارج" (١٨٦٩)، فيبدو أن المازني كان يقتاس طريقته في بناء أو تشكيل أو صياغة الرحلة كنص.

كانت رحلات المازني مرسومة لأنها تتم بدعوة، ومنظمة من قبل الداعين له، ومن ثم فإن عنصر المخاطرة فيها محدود، وقد اقتصرت رحلاته - عدا رحلته إلى الصحراء الغربية - على الشرق العربي، وربما لم تأته أية دعوات من دول المغرب العربي أو أنه كان ممنوعًا من دخولها.

وهي رحلات دائرية أي يعود راويها - في الغالب - إلى نقطة الانطلاق حيث تم الكتابة الثانية التي تعتمد على ما دونه إبان الرحلة وتتميز بالتكثيف والتنقيح لذا يقول في رحلته إلى العراق عام ١٩٤٥: "فإني أهيئ لهذا كتابين أرجو أن يوفقني الله

---

(٢) المازني: تاريخ الحركة القومية -١- استطراد،"السياسة الأسبوعية" في ٢ مارس سنة ١٩٢٩، (ص١٣).

فأخرجهما قريبًا بعد أن أتلقى ما تركت فى العراق من أوراقى"[٤]، فهو يدون أشياء إبان رحلته، وربما بعض تفاصيلها وانطباعاته عنها فقط، ثم يهيئها أى ينقحها ويكثفها قبل النشر.

ويمكن تقسيم كل رحلة إلى بداية تشمل الهدف والعزم على الخروج والتوق إلى الارتحال والتحرر، ثم السفر والانتقال ويتضمن وصفًا مفصلاً لحاله وحال أصحابه وما يحل بهم من المكاره أو المهالك، ثم الوصول إلى الهدف (الحجاز أو العراق أو الشام) ومرحلة العودة التى يتحدث عنها بإيجاز شديد.

من عادة المازنى فى مفتتح نصوصه أن يذكر نوعية الدعوة التى تلقاها للقيام بالرحلة وطريقة استجابته لها، وأن يشير إلى بعض أهدافه من القيام بها، وهو يقوم برحلة الصحراء الغربية بناء على دعوة من الجيشين المصرى والإنجليزى ويقدم نبذة عن تفاصيل العلاقة بينهما، وعن بداية ودوافع "رحلة العراق الأولى" (١٩٣٦) وربما تكون الرحلة الوحيدة التى قام بها دون دعوة رسمية، يقول: "فلما هممنا بالسفر إلى العراق من فلسطين واقترح صديقى الأستاذ أسعد داغر أن نطير إليه [العراق] من غزة"، ولكنه أخذ يحاور ويداور حتى أقنع صاحبه بالسفر إلى العراق بالسيارة، وكان فى "رحلة الشام" (١٩٤٤) مندوبًا عن مجلس نقابة الصحفيين المصرية، أما "رحلة العراق الأخيرة" (١٩٤٥) فيخبرنا فى الفقرة الأولى منها أنها كانت بدعوة من مدير الدعاية العام العراقى وبتزكية من صديق قديم للمازنى أصبح آنذاك مراقبًا عامًا للإذاعة العراقية.

والجزء الخاص بالسفر يكون أحفل بالمرئى والمسموع، ويكون حضور كل من الجغرافيا والتاريخ قويًا، وهو أمر طبيعى ومنتظر فى الرحلات لأنهما يرسخان السمة الواقعية التى تدعيها الرحلة لنفسها، فى هذا الجزء يصف المازنى ما يرى ويكابد من الجغرافيا ويقدم اللمحات التاريخية إبان ذلك، وهنا يتبع فكره الخاص، وموهبته،

---

(٤) المازنى: "مقدمة رحلة الشام" مجلة الجديد، فبراير ١٩٧٤، (ص ١٢).

وحسه الداخلى وتلعب ثقافته وخبراته السابقة دورها فى تعميق وتكثيف ما يرى مما يثير انتباهه.

(٣)

ولأن للرحلة كفن مسوغات عدة أهمها شهوة الاستكشاف، فكل رحلة حتى وإن تمت بدعوة هى رحلة "استكشاف"، خاصة وعامة، تنزع إلى تحقيق هدف ما عبر تجربة الارتحال والضرب فى الأرض للتعرف على الآخرين وحكاياتهم وطريقة حياتهم.

وقد كان هذا بعض ما يسعى المازنى إليه حين يصل إلى هدف رحلته، فمتون رحلاته تؤرخ، بطريقتها التى تميل إلى الحوارية، للحالة الاجتماعية والسياسية والثقافية للأقطار التى يزورها. وهى تفيض بالمشاهدات الحية، والتفاصيل الدقيقة، والملاحظات الطريفة، والمعرفة التى يستنتجها عن طريق المشاهدة والمعاينة وتمحيص الحقائق وتعد جميعها من الشروط الأساسية لكتابة الرحلة.

والمازنى فى هذه الرحلات يجمع الأقوال والحكايات، التى تؤيد رؤيته فى الحياة وللتقارب الذى يأمله بين أقطار المشرق العربى، ولقد كان المازنى مسكونًا بفكرة الروح العربية وضرورة استكشافها، ففى الوقت الذى وجدت فيه تيارات تدعو للفينيقية والفرعونية نجده يطوّف من خلال الرحلة انفتاحًا على المشرق العربى بهدف الاستكشاف والتعارف والتقارب تمهيداً للتعاون، فالمازنى فى رحلاته مهموم بما أسماه "روح الشرق العربى الواحدة" وهى الفكرة التى يكررها تحت مسميات عدة مثل "روح العروبة" أو "المعنى العربى" أو "الحركة العربية"، وهو لا يخفى أن هذا هو الهدف المباشر والدافع الأساسى لرحلاته، أن يثبت لقارئه تلك القرابة الروحية التى لا فرق فيها كما يقول "بين العراق والشام ولبنان وفلسطين والحجاز ونجد واليمن"، ثم يضيف: "وقد عجز الحكم التركى الطويل عن مسخ هذه الروح وتشويهها"(٥)، وحين يقارن بين مصر وسوريا يقول: "الروح العربية هناك [فى سوريا] أعمق وأعم وأشمل،

---

(٥) راجع فيما يلى الفقرة (٦) من "رحلة الشام – فى مهرجان المعرى".

وما من سورى، متعلم أو أمى، إلا وهو يعد نفسه معرقًا فى العروبة، فلا فينيقية ولا فرعونية، ولا حيرة بين أصول شتى، متقاربة أو متباعدة، وإنما هى العروبة صرفا"(٦) .

لقد كان التعرف على الجوانب التى تبرز هذه الروح فى الأماكن التى يزورها هو هدف المازنى الأساسى دائمًا؛ فرحلاته - أو الصيغة التى قدمها بها - كانت بمثابة محاولات متكررة لاستكشاف هذه الروح العربية المشرقية الواحدة.

وكان المازنى يتميز فى كل هذا بالحذر؛ فهو لا يتهجم إلا قليلاً، وعلى من يعرف فقط، وبعد أن يأخذ كل احتياطاته، كما تميز بأنه مستمع جيد يتوخى أن يصغى أكثر مما يقول، وفى رحلة العراق الأخيرة وضع لنفسه عدة قواعد صاغ أولها هكذا: "والقاعدة الأولى التى وضعتها لسيرتى فى العراق أن أسمع ولا أتكلم، وليس معنى ذلك أنى قضيت على نفسى بالبكم، أو قطعت لسانى، ولكن معناه أنى اتقيت الفضول والتطفل"(٧) ، ويشير إلى مبدأين أساسيين التزمهما فى رحلاته كلها فيقول:

"حرصت فى كل رحلاتى، وهى كثيرة، على مبدأين لم أحِد عنهما قط، وإن كانت صلات المودة والصداقة بينى وبين كثيرين من أبناء البلاد العربية الشقيقة، تغرى بالتبسط وترك التحرز والتحفظ، فأما المبدأ الأول فإنى لا أدخل فى أمر داخلى للبلاد التى أزورها، أو أتطفل عليها بالخوض فى شئونها أو التعرض بخير أو بشر لأحد من رجالها وأما المبدأ الثانى فأن أكون مصريًا قحًا لا يعرف غير مصر ولا يجعل باله إلا إلى سمعتها، ولا يذكرها ولا يسمح بذكرها أو ذكر أحد من رجالها بغير الخير"، وهو يدعو كل كاتب أن يحتذى هذا حتى لا "يسئ إلى سمعة مصر أو يغض من مقامها فى الشرق العربى"(٨) .

وفى نهاية هذه المقدمة الوجيزة نشير إلى أن لبنان قد حظى بمكانة فريدة لدى

---

(٦) راجع فيما يلى الفقرة (١٨) من "رحلة الشام - فى مهرجان المعرى".
(٧) راجع فيما يلى الفقرة (٧) من رحلة العراق (١٩٤٥).
(٨) راجع فيما يلى مقدمة "رحلة الشام - فى مهرجان المعرى".

المازنى الذى كان يصطحب أسرته إلى هناك لقضاء الصيف بصفة شبه سنوية، وقد أشار أكثر من مرة إلى أنه - وأسرته أحيانًا - كان يسافر إلى الإسكندرية فيقضى فيها أيامًا ثم يبحر من هناك إلى بيروت(٩)، وفى لبنان كان يكثر الإقامة والتردد على منطقة "ضهور الشوير" التى يصفها بقوله: "والشوير "ضيعة" كما يسمونها، أو قرية فى واد يشرف عليه الجبل ، فهذا هو "الضهور" أو الظهور"(١٠) .

وقد استلهم هذه الزيارات فى الكثير من كتاباته التى نشر بعضها فى أعماله المعروفة تحت العنوان الأثير لديه، "من ذكريات لبنان"، والذى نشر تحته أغلب هذه الفصول السردية، وهنا نورد طائفة من فصوله التى جمعناها حول هذا الموضوع، وآثرنا كذلك أن نرتبها تاريخيًا.

عبد السلام حيدر

(٩) المازنى: كيف صرف الله عنى السوء؟، الرسالة، ٢٨ يناير ١٩٣٥، (ص١٣٤).
(١٠) المازنى: عصران فى دار، الرسالة، ٢٢ أكتوبر ١٩٣٤، (ص١٧٣٥-١٧٣٧).

"رحلات المازنى وملحقاتها"

(مرتبة تاريخيًا)

رحلة الصحراء الغربية

فى مرسى مطروح[١١]

يظهر أن الذى بينى وبين الصحراء غير عامر، وإن كنت ابنها، وكانت هى عندى - على خرابها - أثر من العمران، فما اعتسفتها مرة إلا هاجت بى، وأقبلت علىّ تعفر فى وجهى وتحصبنى بالرمال ودقاق الحصى، كأنما تريد أن ترجمنى أو تخنقنى، ولقد كادت تظفر بى مرة، وأنا فى طريقى إلى العراق، لولا أن أدركتنا رحمة الله، وهنا أيضا فى مصر دعينا إلى زيارة مرسى مطروح وشهود ما فيها من عدة حربية، فلبينا الدعوة فرحين مغتبطين شاكرين فما كدنا ننزل من القطار فى "سيدى حنيش" ونستقل سيارة الجيش المصرى حتى تلقتنا بهبوب كاد يزهق أرواحنا ولم يجد فى اتقائه ما كسوا به عيوننا، وما وضعنا على أفواهنا وأنوفنا، وكانت السيارة مكشوفة والطريق وعرًا لا آخر لما فيه من الحفر والنقر فقضينا ساعة ونصف ساعة فى زلزال دائم لا ندرى أيهما أقسى علينا وأعنف بنا - هذه الرمال التى تنفذ إلى عيوننا وحلوقنا وتمنع أنفاسنا أن تستوى وتنتظم، أم هذه الرجات الشديدة التى تشيلنا وتحطنا وتقلبنا على مقاعدنا وتكاد تقذف بما على الأرض؟

وتختلف صحراؤنا هذه عن صحراء العراق، فى أن صحراء العراق منبسطة الرقعة مستويتها، ففى وسعك أن تختار لنفسك طريقًا سهلاً فيها، ولا خوف من الضلال ما دامت عينك على ما تهتدى به فى فيافيها وسباسبها، أما صحراؤنا فلا رأى لك معها ولا اختيار - وهما طريقان كانا معبدين فأتلفتهما كثرة الحركة عليهما

---

(١١) البلاغ، ١٨ مارس ١٩٣٦، (ص١).

فصار كل منها شراً من الآخر، ولا حيلة لأحد فى ذلك، ولا ذنب، ولا سبيل إلى تخفيف الحركة، ولا إلى إصلاح الطريق، كلما أتلفته السيارات الثقيلة، وهذه المتاعب التى شق أمرها علينا، هى أهون ما يكابده رجال الجيش، كان الله فى عونهم وقواهم.

على أن ما لقيناه ساعة وصلنا إلى مرسى مطروح، من اللطف والإيناس وحسن المودة والكرم والحفاوة أنسانا كل ما عانينا فى الطريق، فقد حف بنا الضباط من الإنجليز والمصريين على السواء، وكنا ضيوفًا على الجيش المصرى، ولهذا نزلنا فى مركز قيادته – أو لا أدرى ماذا يسمونه فإنى أجهل الناس بهذه الأمور، فخصونا بغرفة كانت فى الأصل مكتبًا، فرفعوا منها المكاتب وما إليها، ووضعوا فيها الأسرة وسائر ما يحتاج إليه الضيف، ولو أنزلونا فى إحدى الخيام لما كان لنا وجه اعتراض، ولكنهم ترفقوا بنا، وآثرونا على أنفسهم.

وكان يرافقنا من مصر ضابط من المدفعية البريطانية اسمه "الكبتن وودروف" وهو من أحسن من رأيت من الناس دماثة خلق ورقة حاشية وكرم طباع، وقد نزل مع رفقائه، وكان من حسن حظنا أن صحبنا هناك من الجيش المصرى اليوزباشى محمود على شوقى أفندى والكبتن بارفورد وكلاهما من أركان الحرب فى الجيشين، وكأنما انتقيا انتقاء، وأخشى أن أثنى على اليوزباشى شوقى أفندى فيقال مصرى يثنى على مصرى، ولكن الحقيقة أنه جدير بأوفر حظ من الثناء، كضابط وكرجل، أما الكبتن بارفورد فستظل ذكرى الأيام التى قضيتها معه، من أسعد ما أضن به على النسيان، ذلك له يمثل خير ما فى الخلق البريطانى من رجولة وعزم وشهامة ودعة وظرف وكرم، وغير ذلك مما قامت على دعائمه القوية هذه الإمبراطوية الضخمة التى لا تغرب عنها الشمس، ولهذا قلت إنه كأنما انتقى انتقاء هو وزميله اليوزباشى شوقى أفندى.

وليس فى وسعى أن أفى صاحب السعادة اللواء محمود شكرى باشا قائد القوات المصرية هناك حقه من الشكر، فقد أبت له مروءة نفسه إلا أن يولينا من العطف والرعاية والبر فوق ما نستحق أو يستلزم الأمر، فكان لا ينى يتفقدنا ويتعهدنا ويسهر على راحتنا وييسر لنا الأمور ويذلل المصاعب، وعلى الرغم من استمرار الهبوب فى

اليوم التالى لوصولنا فقد أبى إلا أن يرينا كيف يقوم الجيش بالأعمال الموكولة إليه، وهى كثيرة متنوعة، وشاقة معقدة، ولم يكن فى هذا متكلفًا غير طباعه، فإنه – على ما رأينا وسمعنا – يسهر على راحة كل جندى تحت أمرته، سهره على ابنه.

ويجب أن أسجل هنا شكرى للقائد العام، ولم يكن هناك، ولكنه مع ذلك أمر بدعوتنا إلى الشاى دعوة مقرونة بالاعتذار لاضطراره إلى السفر إلى مصر، وللماجور جنرال هوارد الذى ناب عنه فى استقبالنا وإكرامنا والحفاوة بنا، ولكل ضابط إنجليزى لقيناه، فقد كنا فى حيثما ذهبنا نجد صدور رحبة، واستعداداً تامًا لإطلاعنا على كل شىء وشرحه لنا على أوفى وجه، وحسب القارئ مثلاً أن أحد الضباط الكبار كانت ساقه مهيضة ومع ذلك رافقنا أميالاً عدة ليرينا بنفسه ما فى منطقته، وكان يصعد معنا ويهبط ويتكلف العناء الشديد والجهد الجاهد فإذا تقدمنا إليه نرجو منه أن يريح نفسه ضحك وقال إن الطبيب أمره بالمشى وإن هذه هى الطريقة الجديدة للعلاج، وأزيد القارئ بيانًا لهذه الروح الكبيرة فأقول إن ساقه كانت فى (الكلس)[١٢] وهو يمشى معنا، فتأمل!

وليست هذه سوى أمثلة لمروءة القوم ورجولتهم، وسيرد على القارئ غيرها فى مقالات أخرى.

---

(١٢) هكذا فى الأصل وربما يعنى الكِلْسُ وهو الجير أو الحجر الجيرى (المحرر).

فى الصحراء الغربية

حياة الناس فيها وواجب الحكومة نحوهم[١٣]

(٢)

كان ما رأيته فى مرسى مطروح من العدة الحربية دليلاً ماديًا على أن الحرب بعثرة للمال والجهود والأعمار فى غير طائل، ولقد سألت نفسى مرارًا - وسألت من لقيت هناك أيضًا من الإنجليز المصريين - عما كسبت أو ما كانت إيطاليا يمكن أن تكسب من هذا التهديد الأخرق الذى كلفها وكلف بريطانيا ومصر كل هذه الأموال الطائلة والجهود الشاقة التى أريقت فى الصحراء؟؟ ولست من رجال الحرب ولا لى أدنى علم بالشؤون العسكرية، وقد كان لكل ما شاهدته هناك سحر الجدة ومتعتها، ولكنه مع ذلك لم ينسنى، بل قوى سخطى ونقمتى على الذين يقذفون بالأمم فى هذا الجحيم، ولا أدرى لماذا تستطيع الأمم أن تحترب وتتقاتل، ولا تستطيع أن تتعاون وتتآزر؟؟ وليس الجهد الذى تتطلبه الحرب بأيسر ولا أهون من الجهد الذى يقتضيه السلم والتآخى، بل الأمر على العكس، فإن الحرب نكبة، وعذاب غليظ، وهى تورث الناس بلايا لا آخر لها، وطول الاستعداد لها يمسخ النفوس، ويزيغ الأبصار ويبلبل الخواطر ويوجهها وجهة السوء والشر.

وليس من همى هنا أن أعظ، ولو كان لى صوت يسمع، لقلت وأسمعت، ومن أجل هذا أعفى القارئ من حديث الحرب ومعداتها، فإنه باب لا يطيب لى القول فيه، وقد

---

(١٣) البلاغ، ٢١ مارس ١٩٣٦، (ص١).

كان الذى عنيت به وأنا فى مرسى مطروح، جانب الحياة فى هذه الرقعة الممحلة، وقد سمعت من محافظ الصحراء الغربية - جرين بك - أنه كان عام جفاف فأجدبت الأرض، وأشفى الناس على الهلاك والبوار، وهموا بالرحيل إلى وادى النيل الذى لا ينقصه أن يهجم عليه عشرات الألوف من الجياع المتضورين، لولا أن فيض الله لهم الدوتشى - أى موسولينى - فأزعج بريطانيا ومصر، فأرسلتا جيوشهما فراجت البلاد بعد البوار وشبع الناس بعد طول السغب، ورب ضارة نافعة.

ومن مظاهر هذا الرخاء الذى لم يكن لأحد فى حساب، أن البيت الذى كان كراؤه لا يزيد على جنيه واحد، صار يؤجر بثمانية جنيهات، وأن الدجاجة الصغيرة بلغ ثمنها عشرة قروش وزيادة، وهكذا فى غير ذلك.

وقد عنيت محافظة الصحراء الغربية بإيجاد مرتزق ثابت للناس غير المراعى فغرست لهم مائة ألف زيتونة على أن تزيد ذلك بضعة آلاف كل عام، ولو أن الحكومة أمدتها بالمال اللازم لغرست الكروم أيضًا فإن هذه المنطقة كانت مشهورة فى الزمن القديم بأعنابها، وقد رأينا مَعاصر كبيرة للنبيذ كشف عنها الجنود وهم يحفرون هناك، ولا أدرى أهى من العهد الرومانى أم أقدم من ذلك، ورأينا كذلك بئرًا يصفونها بأنها رومانية ويقول الموظفون الموكلون بها إنها فرعونية على الأرجح، وليست هى بئرًا بالمعنى الصحيح وإنما هى قناة طويلة فى جوف الأرض تعترض ما يتسرب من مياه الأمطار فى طريقه إلى البحر فى باطن الأرض، وتجريه فى مجراها، فيبقى وينتفع به الناس، وحدثنى الموظف الإنجليزى المشرف عليها أن الطلمبات التى ركبت عليها إلى الآن فى مواضع شتى تخرج منها مقادير كافية من الماء، وذكر لى أن دولة صدقى باشا هو الذى اعتمد المال الذى يتطلبه تطهير هذه القناة أو البئر المطمورة وإصلاحها ومدها.

وقد تركت المحافظ وقد اقتنعت بأن على الحكومة المصرية واجبًا لا مهرب منه لسكان هذه الصحراء، فما يجوز تركهم تحت رحمة السماء، فإن جادتهم أخصبوا وأمرعوا وأكلوا وشبعوا، وإن احتبس المطر جاعوا وتضوروا، واضطروا إلى الرحيل، وقد كانوا قبل أن تتمكن إيطاليا من طرابلس، يرحلون إليها إذا أجدبوا فإذا نزل المطر

عادوا، وكان بدو طرابلس يفعلون ذلك أيضًا على ما قيل لى، ولكن الحكومة الإيطالية وضعت الأسلاك الشائكة على الحدود ما بين طرابلس ومصر ومنعت هذا التنقل الذى تدعو إليه الحاجة ويحمل عليه شح السماء فى بعض السنين، فصار خطب البدو فى صحراء مصر الغربية أدهى، ومصيبتهم أعظم، فهم أحوج ما يكونون الآن إلى عون الحكومة ورعايتها، وإلا اضطرتهم فى سنى الجدب أن ينحدروا إلى وادى النيل، وعند وادى النيل كفاية من العاطلين، ولا أظنه يحتمل جيشًا عرمرمًا يخرجه الجوع من صحرائه ويقذف به على المدن والقرى.

فلعل هذا الصوت الضعيف يلفت الحكومة إلى واجب عمرانى لا يخلو طول التغاضى عنه من خطر غير قليل.

رحلة العراق

(١٩٣٦)

(١)

الصحراء[١٤]

كنت أظن أنني أعرف الصحراء، وأزعم أني بها خبير، وكنت – لغروري – أشبه بها نفسي وأقول فيما كتبت عنها إني كنت فيها قبل ميلادى وإنى بعضها أو قطعة منها، وأعلل ذلك بأنى انحدرت من قوم كانت الصحراء موطنهم، وأروح أصف ما يبدو لى من حالاتها الجمة وأطوارها المتنوعة، وقد أقمت على حافتها أربعة عشر عامًا فألفتها وأحببتها، وصرت أتمنى لو أوتيت القدرة على نقلها معى فى الحل والترحال وفرشها وبسطها حولى فى حيثما أكون من الأرض ولفها مع ثيابى فى الحقائب، حتى إذا نزلت مكانًا – واستوحشت نفسى – أنست بأن أخرجها وأنشرها أمامى وأتأملها وأذكر بها ليال فيها بما اشتملت عليه، حتى زمنى كنت أشبهه بها وأقول – أيام كنت لجهلى أنظم الشعر –:

فيافى زمان ظلت أشبر طولها   ومالى سوى رمضائها متقلب

وكان يخيل لى أنى عرفت سرها واستبطنت كنهها، وكنت أسترسل فى هذا الوهم فأتصور أنها أرض غابت عن رشدها وفقدت وعيها فهى لا تحس أو تنتبه، وتارة تبدو

(١٤) نشرت فى "مجلتى" أول يوليه ١٩٣٦ (ص٢١١–٢٢٠).

لى كأن القدرة التى بسطتها قد ملتها وانصرفت عنها ونسيتها وشغلت بسواها فأعطف عليها وأرثى لها، وكثيراً ما يجمح بى الغرور فأقول إنى ألمح فيها عروق "العلة الأولى" وشرايينها وأنسجتها، وربما توهمتها مخًا عاريًا ينشئ ما لا يدرى.

وقد ضربت فى صحراوات شتى فى مصر والحجاز - ضربًا عرفت الآن أنه كان هينًا قصير المدى - وأدركت أن الحفنة من الرمل ليست هى الصحراء - ولكنى كنت أحسب أنى عرفتها وفرغت منها وكان ظنى أن شأنها أبدًا واحد لا يختلف ولا يتغير، وأن كل ما فيها أنها رقعة منبسطة تكثر على وجهها الرمال ويشق فيها السير، فلما هممنا بالسفر إلى العراق من فلسطين واقترح صديقى الأستاذ أسعد داغر أن نطير إليه من غزة قلت له:

"لا يا شيخ خسارة".

فسألنى عن الخسارة ماذا أعنى بها أهى خسارة المال أم خسارة العمر؟

فقلت: "لا هذا ولا ذاك - وهل لنا مال نخشى عليه الضياع ونشفق أن نخسره - أما العمر فقد ذهب إلى الآن خير شطريه مع الرياح الأربع، فلو ضاع ما بقى منه لما كان هذا مدعاة للجزع، وما أظن أن فى الآتى عوضًا عما فات، إنما الخسارة التى أعنيها أن نعبر الصحراء فى طيارة فلا نراها رؤيتها، فاسمع منى - فإنى أسن منك فى زعمك، بارك الله لك فى هذه الصبغة الربانية التى لا يحول لونها - واحذر أن تقلد روتشيلد".

قال: "روتشيلد؟"

قلت: "نعم، ماذا يبقى من الفرق بينى وبينه إذا كان كلانا يتخذ الطيارة مطية فى أسفاره ويدفع الأجر عينه - تواضع لله يا شيخ".

فسألنى: "ولكن ماذا تبغى ، تركب جملاً؟".

قلت: "سبحان الله العظيم يا أخى - أولا يوجد بديل من الطيارة إلا الجمل؟ ولماذا

لا نسافر بالسيارة فنتملى بكل شبر من الصحراء".

فحذرنى وأنذرنى أنى سأتعب، ولكنى سخرت من تحذيره وقلت له:

"لا عليك، وماذا تعرف أنت عن الصحراء، إنى أنا ابنها، أما أنت فابن المدينة المترف المرفه".

ولم أزل به أحاوره وأداوره وأمسح منه فى الذروة والغارب على نحو ما يفعل الأطفال حين يتعلقون بآبائهم ويلثمون أيديهم وأطراف ثيابهم ليقضوا لهم حاجاتهم، حتى صدر عن رأيى.

ولا أطيل فإنى أخشى إملالكم - إذا كنتم تصغون إلى هذا الحديث[١٥] - وليت من يدرى أمصغون أنتم أم منصرفون إلى لهو آخر، ولا أكتمكم أنى أشك فى أن صوتى يبلغكم وأنا واقف فى هذا المخزن أمام حديدة أكلمها وأعزى نفسى بأنها تنقل الصوت وتفشيه فى الدنيا. وأكبر ظنى أن الذى جاء بى إلى هنا وأغرانى بالكلام وحدى كالمجانين يضحك منى الآن فى سره وليتنى أستطيع أن أسمع نفسى لاستوثق، فإنى أخشى أن يكون الأمر كله فكاهة، ولست أستغرب أن أجلس إلى الراديو وأنصت إلى ما يذاع، ولكنى لا أكاد أصدق أوصوتى يجاوز هذه الجدران التى تحيط بى، وما أشوقنى إلى الفراغ من هذا الحديث والخروج من هذا المحبس لعلى ألقى واحداً سمعنى فأسأله عن صوتى كيف وجده فيكون كريماً ظريفًا ويحدثنى عن نبراته العذبة وكيف وقعت من نفسه ، وعن كلامى الحلو وكيف اشتهى أن يطول وأسف لما انتهى، فاطمئن - ما علينا.

توكلنا على الله الحى الذى لا يموت وركبنا السيارة قبيل الفجر من عمان عاصمة شرق الأردن - ومعنا سائقان يتناوبان ويريح أحدهما الآخر فإن الشقة بعيدة والمسافة

---

(١٥) أذيع هذا الحديث بالراديو (المازنى).

ألف كيلو متر على خط مستقيم، وهيهات أن يستقيم فى الصحراء سير أو أن يكف الراكب عن التلوى والتعرج واللف والدوران التماسًا للأرض السهلة واجتنابًا للحفر والوعور، وليست من هنا طريق بغداد بل من الشام ، ولكنا اضطررنا أن نعتسف الصحراء من هذه الناحية لأنا ممنوعان من دخول الشام، ولولا ذلك لركبنا من دمشق مع الراكبين بنفقة قليلة وبلا عناء يتقى.

وكان أول الطريق دروبًا فى الجبال، فأغمضت عينى وقلت أستوفى حظى من النوم حتى نفرغ من الجبال ويتنفس الصبح وتبدو لأعيننا الدنيا، والطريق فى هذه الجبال وعر جدًا، والدروب فيها غير ممهدة، والمخاضات كثيرة فى بطون الأودية، فالرجات لهذا متتابعة وعنيفة مزعجة، والسير بطئ ولا سبيل إلى نوم أو راحة، ولكنى خفت أن أظهر التبرم بكلمة أو إشارة فيقول لى صديقى إنها مشورتى المنحوسة، ورأيت أن الأحزم أن أصبر على هذه الزلزلة – ولا بد من الصبر على كل حال – وأن أتناوم اتقاء للوم، على أن الأمر لم يطل إلا ساعة وبعض ساعة ثم خرجنا مع الصبح إلى صحراء يسمونها "الحرة" وهى أرض مستوية فسيحة مغطاة – أو على الأصح مفروشة – بصخور ظاهرها أسود كالفحم، كأنما حرقت فى النار، وباطنا مما يلى الأرض بلون الرمال أى أصفر، وهى متساوية الحجوم، متشاكلة كأنها منحوتة ومرصوصة بيد إنسان على وجه الأرض، وقد قالوا لى إنها صخور بركانية وإن هذا هو تعليل سواد وجهها، أما بياض قلبها فلا تعليل له، وقد احتاجت الحكومة وشركة النفط العراقية الإنجليزية أن تشقا فى هذه الحرة طريقًا للقوافل والسيارات اجتزناه فى نحو ساعتين.

وما كدنا نخرج من الحرة حتى أسفنا عليها وتمنينا أن نرجع إلى وجهها الأسود أو أن تمتد هى إلينا وتزحف علينا وتحف بنا، فما لقينا فيها عناء أو مشقة، أما بعدها فالصحراء رمال دقيقة ناعمة يطيرها النسيم الوانى فكيف بالرياح العاصفة؟ وشاء سوء الحظ أن تثور فى هذه اللحظة زوبعة شديدة، ولو تأخرت نصف ساعة لنجونا، فإن منطقة الرمال لا يزيد طولها على عشرين كيلو مترًا، ولو أحسسنا بها قبل الوقوع

فيها لعدنا أدراجنا، ولكنها أدركتنا فجأة بعد أن تورطنا فيها فإذا حولنا أسوار عالية من الرمال، وإذا نحن لا نرى حتى ولا مقدمة السيارة فاستحال السير ووقفنا ننتظر أن يصفو الجو وأن تسكن ثائرة الرياح، وكان ظننا ألا يطول الأمر، فلم نر أن نجازف مخافة أن نقع فى حفرة لا نراها أو أن نصطدم بصخرة محجوبة أو أن نضل إذا نجونا من التردى فى الحفر والتحطم على الصخور، وكنا نهتدى فى سيرنا بخط أنابيب البترول الممدودة من الموصل فى العراق إلى حيفا - ميناء فلسطين - وبأعمدة التليفون على محاذاة الخط، فغاب الخط واختفت الأعمدة، وأظلمت الدنيا وانقبضت الصدور وتوترت الأعصاب، وكان زجاج النوافذ مغلقًا ولكن التراب كان ينفذ مع ذلك إلينا ويدخل فى أنوفنا وحلوقنا وعيوننا ويدميها، فأطبقنا أجفاننا ووضعنا المناديل على أفواهنا حتى كادت تزهق أرواحنا، وشر من ذلك أن الريح - لشدتها - كانت تحمل دقاق الحصى فتحصب بها السيارة، فالتفت إلى صديقى وقلت - وأنا أحاول أن أسرى بالمزاح عن نفسى -:

"إن السماء ترجمنا يا صاحبى، وأرواحنا الآن فى يدك"

قال: "كيف؟"

قلت: "لأنك رجل نصرانى، ولهذا غضبت عليك سماء المسلمين، فأسلم بسرعة - هى كلمة تقولها فننجو جميعًا.. أسرع".

فضحك ولم يفعل، وضاعت الفرصة.

وخفنا أن يكسر الحصى الزجاج فيكون الهلاك المحقق، وكانت صناديق البنزين خلف السيارة فقلنا هى وقاية كافية للزجاج الخلفى، فجعلنا ظهر السيارة إلى مهب الريح، ورحنا ندور معها كلما اختلفت مهابها خوفًا على زجاج النوافذ الجانبية، ففقدنا اتجاهنا الأول لكثرة ما تحولنا إلى اليمين واليسار، وكان معنا الطعام والماء والدخان ولكنا صمنا عن ذلك كله وفطمنا عنه نفوسنا اتقاء للتراب، وقال صديقى يعاتبنى:

"لو كنا سافرنا بالطيارة لكنا الآن فى بغداد".

قلت: "صحيح، لو زرعنا (لو) في أرض (يا ريت) لخرجت هلبت".

قال: "طيب".

وحول وجهه عني وقد آثر الترفق بي، ولكني لم أترفق به فقلت:

"إني أؤكد لك أن الأمر كله في يدك - أسلم تسلم".

فلم يجب فأمسكت عن الكلام.

ونفذ صبرنا بعد ساعتين من هذا الكرب، فقلت لهم إن الجو يصفو من حين إلى حين بضع ثوان فيحسن أن نغتنم فرصتها لتتقدم بضع خطوات، فإن الحركة أرفق بأعصابنا من هذه الرقفة الثقيلة، فخشي صديقي أن نضل إذا سرنا أو أن يصيبنا سوء آخر، وكان على حق، واقترح أن نقطع أسلاك التليفون ليجئ من يصلحها فينقذنا، فقلت لو رأينا الأسلاك أو الأعمدة لما احتجنا إلى منقذ فإن البلاء أنَّا لا نرى شيئًا، وعلى أنا علمنا فيما بعد أن الرياح تكلفت عنا بتقطيع الأسلاك وأن القوم انتظروا حتى تمر العاصفة.

وقال أحد السائقين: "وسأخرج وأنفض المكان، فما أظن أن الأعمدة بعيدة".

وما كاد يفعل حتى أعمته الرمال وحملته الرياح إلى حيث لا يرانا ولا نراه، ففقدنا وفقدناه، ولم نكن نعلم ذلك، فلما أبطأ علينا فيما نحس - والدقيقة في مثل هذه الأحوال تكون أطول من العام - جزعنا وجعلنا ننفخ له في البوق، ليهتدي بصوته، ولكن الرياح كانت تقصف كالرعد فأقصرنا عن هذا العبث الواضح، وكان زميله موقنًا أنه هلك، فأنشأ يبكي ويعول فزاد بكاؤه في تلف أعصابنا، وكنا لا يخالجنا شك في أن الزوبعة قد بلعته، ولكنا لم نكن ندري ماذا نصنع لننقذه - أنخرج لنبحث عنه؟ - فذاك خليق أن يلحقنا به، ويوقعنا فيما صار إليه، أم ندور بالسيارة، ولكن إلى أين؟ وهو لو كان على مسافة خطوة منا لدسناه دون أن نراه - وشق علينا مصرعه ولمنا أنفسنا لأنا تركناه يخرج، وكان ينبغي أن نقدر أنه لا محالة ملاق حتفه، ولم يطق زميله صبرًا ففتح النافذة وأطل منها ويده على عينه وانطلق يصيح: "يا بدري - يا بدري" وهيهات

أن يسمعه بدرى، وامتلأ جوف السيارة تراباً فعظم البلاء واشتد الكرب واضطررنا أن نرده عن النافذة ونغلقها.

وتغير فى هذه اللحظة مهب الريح فحولنا السيارة خوفًا على الزجاج أن يتحطم، وكان بدرى وراءها وعلى خطوات منها ولكنه لا يبصرها، وكان منطرحًا على وجهه لا يجرؤ أن ينهض على قدميه - كما حدثنا - مخافة أن تقذف به الريح على صخرة أو تلقى به فى هاوية، فصدمته السيارة صدمة خفيفة، ونحن نديرها فتعلق بها وجعل يضربها بكفه ونحن نظن أن هذا صوت الريح، أو وقع الحجارة، فلما تعب دار حولها وهو ممسك بها حتى وجد الباب ففتحه وانحط على كرسى، وقد سألته بعد ذلك: لماذا أوهى يده بضرب السيارة؟ فقال: إنه كان لا يعى ما يفعل، وإنه لم يكن يخاف الموت وإنما كان يخشى الجنون، وله العذر، فقد سمعنا بعد ذلك أن واحداً من عمال شركة البترول خرج فى ذلك اليوم فى سيارة فوقع فى هذه العاصفة وعجز عن الخروج منها، فجعل يسير فى دائرة وهو يظن أنه ماض على استقامته حتى نفد البنزين فطار صوابه ولم يطق البقاء فترك السيارة، وقد أطلقوا وراءه الطيارات والسيارات فلم يعثروا له على أثر.

وبعد أن حمدنا الله على نجاة السائق واستراح هو مما أصابه شرعنا نعمل بما كنت أشرت به - أى أن نبحث عن خط الأنابيب والأعمدة ونتقدم خطوات كلما صفا الجو، فما بقى من الحركة مفر - كائنة ما كانت العاقبة وإلا جننا - وبعد لأى ما اهتدينا إلى طريقنا، ثم قطعنا كيلومترين فى ساعة ونصف ساعة، وإذا بنا عند محطة الشركة، وقد طفنا حول سورها أربع مرات نبحث عن بابها فلا نجده؛ وكان أمام الباب صفان من البراميل ملأى بالرمال لتثبيتها؛ فكنا نمر بينها ولا نبصرها ثم إذا بنا فى المطاف الأخير فى مدخل الباب.

وقال الحارس: "الدخول ممنوع".

فقلنا: "إنا هالكون إذا لم نفعل؛ ولا بد لنا من جدار نأوى إليه ونحتمى به".

فجاءنا بخفير للشركة دعانا إلى الاستراحة فأمسك بعضنا ببعض وتناول واحد منا يده وسرنا مغمضى العيون؛ فذهب بنا إلى بناء قريب دخلناه؛ فإذا هو حجرة مستطيلة صفت فيها السرر لخفراء الشركة، وكانوا جميعًا هناك؛ ولا أدرى ماذا كان إحساس الذين معى؛ ولكنى أدرى أن قلبى جعل يعلو ويهبط (كاليويو) من فرط السرور بمرأى السرر وشدة الحنين إلى الرقاد على واحد منها، وجاءونا بماء غسلنا وجوهنا ورؤوسنا وسقونا شايًا وقهوة وأخرجنا السجاير فانقلبنا مداخن.

ومضت ساعة ولم تسكن الرياح، فتساءلنا: ما العمل؟ فأشاروا علينا بأن نذهب إلى المخفر لنعرض جوازات سفرنا – ولا بد من هذا على كل حال – ولكنا كنا نرجو أن نفعل ذلك فى جو أصفى، وكان أملنا أن ندعى إلى المبيت على هذه السرر وإن كانت غير وثيرة؛ ولكن القوم اكتفوا من الكرم بالقهوة والشاى وأنس الحديث، فذهب بنا الخفير إلى المخفر آسفين محزونين، وهناك وجدنا موظفًا ظريفًا لم يكتف بالشاى والقهوة ولا بالإعراب عن العطف علينا فى محنتنا والأسف لما أصابنا؛ فقال لنا حين استشرناه:

"هذه غرفتى وفيها مكتبى وسريرى وبضعة كراس كما ترون، فإن شئتم بتنا جميعًا فيها وخير من ذلك أن تكتبوا إلى مهندس الشركة وهو إنجليزى فإنهم يكرمون الضيف".

فتناولت ورقة وكتبت إلى المهندس شارحًا حالنا راجيًا منه أن يؤوينا بأى ثمن؛ فجاءنا رد رقيق يدعونا إلى الحضور فخففنا إلى المحطة فرحين، وإذا بها مدينة عظيمة داخل السور؛ فيها بنى عديدة وبيوت شتى للموظفين، وأخرى للضيافة، والبيوت مجهزة بأحدث وسائل التهوية والتدفئة، وقد أفردوا لنا بيتًا قائمًا بذاته، فيه غرفتان للنوم وأخرى للاستقبال وحمامان، وجاؤونا بالطعام الشهى والشراب المنعش فكانت ليلة حميدة بعد نهار أسود، وسألونا متى نحب أن نستيقظ، فقلت:

"بعد العاصفة، فلست أنوى أن أفتح عليها عينى مرة أخرى ولو بقيت هنا إلى آخر العمر".

ونمت وأنا أفكر فى أمر هؤلاء الإنجليز الذين يعيشون فى الصحراء، وينقلون إليها كل ما تستطيع المدنية أن تمدهم به من وسائل الترفيه، ويتلقون الحياة كما تجئ، ويقابلونها بالصبر والبشر والأمل، وفى هذا المهندس الإنجليزى الذى لم تمنعه العاصفة التى كادت تقتلنا أن يخرج إلى عمله المضنى وأن يظل يباشره النهار كله، وأن يعود أشعث أغبر، ولكنه ضاحك السن مشرق الوجه منبسط الأسارير – يمزح ولا يشكو ولا يتذمر أو يتأفف أو ينفخ، ولا يذم الحياة ولا يسخط على الحظ؛ ولا يظهر الحنين إلى معاهد صباه ومدارج شبابه، ولا يتحسر على المسارح والملاهى؛ ولا يتلهف على المراقص؛ كأنما كان قد ولد وشب وترعرع فى هذه القفار ولم يعرف غيرها، ولم يسعنى وأنا أتدبر هذا إلا أن أتصور المصرى الذى يكره أن ينقل "من القاهرة إلى الجيزة" ويعد بلاد الصعيد منفى ولا يزال – إذا نقل – يسعى ويرجى الوسطاء والشفعاء إلى رؤسائه ليردوه على القاهرة وينفوا غيره، كأن فى الدنيا حكومة يمكن أن تحشد موظفيها جميعًا فى عاصمتها وتهمل سائر ما عداها.

وقد كنا ونحن فى العاصفة نتمنى المطر ليرقد التراب، ولا يزال أحدنا يقول لصاحبه كل بضع دقائق "أما لو نزل المطر – إذن لنجونا" وكان خوفنا حين ركبنا السيارة من عمان أن يجودنا من السماء هاضب، فينفذ الماء إلى ما فى حقائبنا، وتبتل ثيابنا، ولهذا أبينا إلا أن نضعها فى قلب السيارة، فلم يصبنا ما كنا نخشى بل أصابنا من الرياح معصفات غير معصرات تأتى بالتراب الخانق ولا تأتى بالماء المنعش؛ وقد علمنا بعد أن عدنا من رحلتنا أن مطراً غزيراً نزل فى عمان وما جاورها، وأن إخواننا أشفقوا علينا من الأوحال فى الطريق ومن بقايا السيل فى الأجراف، وما دروا أنَّا كنا نتلهف على قطرة من هذا الذى كانوا يخافون علينا منه.

واستأنفنا السير قبيل الفجر، وكان الوقت طلقًا والليل ساجيًا ساكن البرد والريح والسحاب فكان من أغرب ما شعرت به أنى كنت أرانى دائم التحديق فى الطريق والنظر إليه لأنه كان يخيل لى أن أمامنا بنى وأن للطريق يمينًا ويساراً، فأقلق وأخشى الاصطدام أو التحطم، وكان هذا يكبر فى وهمى حتى لأهم بتنبيه السائق وتحذيره ولا

شىء هناك يتقى، ولا يمين للراكب ولا يسار، إن هو إلا فضاء متقاذف تختار منه ما يطيب لك، وأحسب ذلك راجعًا إلى أمرين - تأثير الظلام وما يتجسد فيه للعين من الصور التى ينشئها الخيال ويركبها من أشتات ما يلوح للمرء أو يبدو له أنه يراه، والثانى أثر الحياة الطويلة فى المدن، فكأن المرء لطول ما ألف من عمرانها ونظامها لا يسهل عليه - حين ينتقل فجأة إلى القفار - أن يخلى ذهنه مما اعتاد أن يتوقعه ويجده فى كل حال، وقد بلغ من ذلك أنى دهشت وفزعت حين رأيت سيارة مقبلة علينا وأبصرت سائقنا يميل بنا إلى اليسار لا إلى اليمين كما هو المألوف فى شوارعنا.

ووسعنا فى يومنا الثانى هذا أن نضحك ونمزح ونأكل ونشرب ونحن سائرون، وأدرنا الراديو فسمعنا موسيقى الحرس الملكى تذاع من المحطة المصرية وأسفنا لما انقطعت الإذاعة إلى أوانها بعد الظهر.

واجتزنا حدود العراق وبلغنا أولى المحطات، فلقينا ضابط كريم لطيف، ودود عطوف، أبت له مروءته إلا أن يرافقنا إلى الرطبة حتى لا نضل بعد أن ننحرف عن خط الأنابيب، ولم يكن الضباط العراقيون فى الرطبة دونه مروءة وأريحية فأكرموا وفادتنا ثم أرسلو معنا شرطيًا يصحبنا ثلاثمائة كيلو متر إلى الرمادى قرب بغداد، ولم يفعلوا ذلك لأنهم عرفونا ولا لأن أحدًا أوصاهم بنا، فما كان أحد يعلم أنَّا ذاهبون إلى العراق وإنما فعلوا ذلك بالسجية وجروا فيه على عرق قديم فى المروءة والكرم والشهامة.

ومن أوقع ما وقع فى نفسى من هذه الصحراء أن الإنسان يقف فيها وجهًا لوجه أمام الطبيعة بلا معين - هو أضعف ما يكون، وهى أطغى ما تكون، وكل شىء فيها قاتل إلا أن يلطف الله فى قضائه، وقد رأيت فى هذه الرحلة كيف تكون السيارة القوية الحديثة المجهزة بالمعدات اللازمة للطوارئ جميعها فى رحلة طويلة شاقة - من أدوات ووقود وماء وغير ذلك - أفشل المطايا وأقلها عناء، على حين يستطيع الجمل أن يكون أهدى سبيلاً وآمن أيضًا، فلا يزال الجمل - كما كان - سفينة الصحراء على الرغم من الطيارات والسيارات.

وفى الصحراء يفقد الإنسان الإحساس بالأيام فلا يعود يعرف أى يوم هذا، أهو

السبت أم الثلاثاء مثلاً، وكل ما يدريه - إذا لم يحرص على الحساب، أن هذا نهار وهذا ليل، وقد نسينا فعلاً أى يوم كنا فيه فاختلفنا على قرب عهدنا بالعمران.

ولم أستغرب ما قرأته عن البدو وقدرتهم العجيبة على الاهتداء بالنجوم وعظم فطنتهم إلى دلالة الآثار التى يرونها على الأرض، فإن الصحراء تحوج إلى ذلك، وقد كان سائقنا، بعد أن دخلنا صحراء العراق وانحرفنا عن خط الأنابيب يقتفى آثار العجلات، ولا ينتظر إشارة الدليل، ويهتدى وحده بها ويفرق بينها، وهذا هو الغريب، فيترك طريق الشام وطريق نجد ويتبع طريق بغداد بإلهام النفس المجربة.

وقد كان لى رأى فى تشابه المزاج الذى تحدثه حياة الصحراء وحياة البحر، وكنت أقول لنفسى إن طبيعة الصحراء كطبيعة البحر وأن كلتيهما قوة غادرة لا أمان لها ولا اطمئنان إليها ولا سبيل إلى كبح طغيانها، فأخلق بأن يكون أثرهما فى تكوين الشخصية واحداً، وكنت أفرع على ذلك نتيجة أخرى فأقول إن الأدب الإنجليزى لهذا السبب، أحرى بأن يكون أشد موافقة فى جوهره لمزاج العربى من الآداب اللاتينية كالفرنسى والإيطالى وما إليهما، وإن روح الأدبين: الإنجليزى والعربى، واحد وإن اختلفت المظاهر وتنوعت الشكول وتباينت الموضوعات، وإن أبناء العربية أحق بأن يكونوا أحسن فهمًا للأدب الإنجليزى منهم للآداب الأخرى، ولكنى كنت أحجم عن المجاهرة بهذا الرأى مخافة أن أكون قد شططت فيه، فلما كانت الرحلة إلى العراق ورأيت البدوى الذى لم تصقله المدنية، والإنجليزى الذى قذفته البحار على هذه القفار وكيف يتلقيان الحياة ويستجيبان لها بروح واحدة، زدت اقتناعًا برأيى هذا وإصراراً عليه واستعداداً للجهر به، وليس هذا وقت الإفاضة فيه فحسبى أن أشير إليه.

والتقينا فى عودتنا بشيخ من شيوخ العشائر يقيم فى البادية، فسألنا عن الجبهة الوطنية والمفاوضات والأمل فيها ودعا لمصر بخير، فقال لى صديقى بعد أن عدنا إلى السيارة:

"هذا بدوى لا يبرح الصحراء ولا يخرج منها ولا يقرأ الصحف، ومع ذلك يعنى بمصر هذه العناية ويسأل عن أخبارها".

فأطرقت وقد خجلت. فإن قومى كانوا لا يعنون إلا بأنفسهم[١٦] .

ولم نلق مشقة فى الإياب، ولكن شيئًا واحدًا ملأ نفسى سرورًا وأسفًا فى آن معًا، ذلك أن حكومة العراق، جزاها الله خيرًا تفضلت فأمرت زيادة فى تكريمنا أن ترافقنا إلى الحدود سيارة مسلحة، على سبيل التكريم كما قالت لا لحراستنا فإن الأمن مستتب وطيد، فأنسنا بها مسافة ثمانمائة كيلو متر، وملت على صاحبى وقلت: "إنى آسف".

وأشرت إلى السيارة المسلحة، فسألنى فقلت:

"هذا تكريم ضائع فى الصحراء لا يراه أحد ولا يحس به ديار، ما الفائدة منه إذا كان لا يشعر أو يدرى به مخلوق؟".

ودار فى نفسى قول ابن داود: "الكل باطل وقبض الريح".

---

(١٦) أشار المازنى إلى هذه الجزئية مرات عدة لعل أشملها هو ما ورد فى مقالة بعنوان "مصر والعراق" (البلاغ فى ٢٨ فبراير ١٩٣٦) وسوف يجد القارئ هذه المقالة فى ملحق الرحلتين (المحرر).

فـى بغـداد[17]

(٢)

دخلنا بغداد ليلاً - والطريق إليها ممهد مرصوف ولكن بعضه - نحو ثلثه - أرض مسحاء مستوية ذات حصى صغار كبعض السهوب التى قطعناها من قبل، وكان الظلام حالكًا والسماء مطبقة على الأرض بمطر رقيق دائم كنا نستغيث بمثله قبل يومين فلا نغاث، وكنت أنظر من نافذة السيارة فلا أرى شيئًا إلا أعمدة التليفون حين ندنو منها أو نحاذيها فى سيرنا، وكنت إذا بعدنا عن الأعمدة وغابت عن عينى يخيل لى أن السيارة تهتز وتدور عجلاتها وهى فى مكانها لا تريمه ولا تتجاوزه، ذلك أن الحركة قياس إلى السكون، والشعور بها لا يكون إلا بالقياس إلى جسم ثابت، فإذا كنت لا ترى الأرض ولا شيئًا آخر مما يكون عليها اقتصر الأمر على الشعور بهذة الحركة - أو بالقلقلة - وتعذر الإحساس بنوع الحركة واتجاهها، وليس أثقل على النفس من هذه الرجة إذا كانت مقترنة بانتفاء الشعور باتجاه الحركة التى تحدثها، لهذا كنت دائم الإلحاح على السائق أن يدنو من الأعمدة لأعفى نفسى من ثقل هذا الشعور ولكنه كان يظن أنى أخاف أن نضل أو نصطدم فليطمئننى وينفى لى إمكان ذلك، فأهم بأن أشرح له الأمر على وجهه الصحيح ثم أرى أن هذا عبث فأرد نفسى عنه.

واجتزنا فى طريقنا جسراً جديداً على نهر الفرات حضر صديقى الأستاذ أسعد داغر الاحتفال به فى رحلة سابقة له على عهد المغفور له الملك فيصل، والجسر ضيق

(١٧) نشرت فى "مجلتى" ١٥ يوليه ١٩٣٦ (ص٣٠٥-٣١٢).

جداً لا يتسع لأكثر من سيارة واحدة، وكان مغلقًا وحارسه نائمًا فأيقظناه ففتح لنا، وما كدنا نجتازه حتى أخذ يعدو وراءنا ويصيح بنا ويتكلم كلامًا حسبناه فارسيًا ثم علمنا أنه عربي ولكن لهجته عجيبة وعرفنا أنه يطلب منا "العبور" أى رسم المرور وهو ثلاثون فلسًا - أى ثلاثون مليمًا - فإن الجنيه - ويسمونه الدينار - ألف فلس أى ألف مليم بلغتنا المصرية، ولم نستغرب أن يتقاضونا رسم مرور على هذا الجسر فقد كان عندنا فى مصر رسوم يتقاضونها على اجتياز الجسور فى الأقاليم ولم تلغ إلا بعد أن صدر القانون الخاص بضرائب السيارات، ولكن الذى استغربناه فى أول الأمر أن فى بغداد نفسها جسرًا قديمًا - يسمونه جسر مود - كلما مرت عليه سيارة أدت لحارسه مثل هذا الرسم ثم علمنا أن الغرض من هذه الإتاوة جمع مبلغ كاف لبناء جسر جديد - ومن كان يقتنى سيارة فهو فى سعة كافية تسمح بأن يؤدى إتاوة المرور على الجسور - ولكن من أعاجيب الحظ التى يرى مثلها فى كل مكان فى هذه الدنيا أنى علمت أن كبار الموظفين يعفون من أداء هذه الإتاوة على سياراتهم حين يجتازون بها جسر مود فلا يزال صحيحًا فى بغداد - كما هو صحيح فى مصر وغيرها - أن الغنى المطيق يلقى فى حياته التسهيل والتذليل وأن الفقير المسكين قلما يلقى غير التصعيب والعرقلة.

وكانت الساعة العاشرة حينما بلغنا بغداد فأراد صديقى أن يخاطب بعض إخوانه بالتليفون فجاءوه بدفتر قلبه ونظر فيه ثم هز رأسه ورمى به إلىّ وقال انظر أنت - وسمى اسمًا - ففتحت الدفتر لأبحث عنه فلم أستطع أن أهتدى إليه وخيل إلى أنه دفتر خاص بمصالح الحكومة ودواوينها وموظفيها وحدهم فقد وجدت الحكومة فى كل صفحة وتحت كل حرف، ولكنا تبينا بعد ذلك أن أرقام التليفون جميعًا - من حكومية وغير حكومية - موزعة على حروف المعجم فليس هناك صفحات خاصة بالحكومة وأخرى للأهالى كما هو الحال عندنا.

ولما حاولنا أن نتكلم بالتليفون بعد ذلك وجدنا عقبة أخرى، ذلك أن لهم فى لب الأرقام اصطلاحات غير مألوفة عندنا، مثال ذلك أن تطلب رقم ٥٣٣ فإنك تقول فى مصر ٥-٣-٣- أما فى بغداد فإنهم يقولون ٥ مكرر ٣ وهكذا كلما تكرر رقم، وقد

أخذوا ذلك عن الإنجليز كما اقتبسوا بضعة ألفاظ من لغتهم شاع استعمالها بينهم فتراهم مثلاً يسمون خادم الفندق boy أو waiter ويسمون السيارة motorcar ويطلقون على سائقها كلمة driver ويطلب الواحد منهم زجاجة بيرة فيقول أعطنى a bottle of beer .

ولم يسعنى إلا أن ألاحظ ذلك بسرعة فإن للإنجليز فى مصر أربعاً وخمسين سنة ومع ذلك يندر جداً أن ترانا نستعمل فى لغتنا ألفاظاً من لغتهم، وقد يفعل بعضنا ذلك على سبيل التظرف أو التظاهر أو لأنه يرى الكلمة الإنجليزية أسرع إلى لسانه أحياناً من الكلمة العربية ولكنه ليس فى لغتنا ألفاظ دخلتها من اللغة الإنجليزية على الرغم من نصف قرن من الاختلاط الوثيق، ولا شك أن أساليب التعبير عن المعانى والخوالج تأثرت بالأساليب الإنجليزية ولكن هذا يشبه تأثرها بالأسلوب الفرنسى فى التعبير فلا ميزة للغة الإنجليزية على غيرها فى هذا الباب وهذا طبيعى فإن الذى تستند ثقافته الحديثة إلى لغة أجنبية ما لا يسعه إلا أن تتأثر أساليب تفكيره وأساليب تعبيره باللغة التى تعلم وتثقف بها، ولكن احتذاء أساليب التعبير الغربية فيما تمس الحاجة إليه ولا تسعفه لغته فيه يجدد اللغة الأصلية ويزيدها لينا ومرونة ومطاوعة كما يوسع أفقه هو أن يكثر اطلاعه فى تلك اللغة الأجنبية، والأمر على كل حال مقصور على المتعلمين، والمهم والذى أريد أن ألفت إليه النظر أن لغة الكلام أو اللغة العامية التى نتحدث بها لم يدخلها شيء قط من لغة الإنجليز وإن كنا قد عاشرناهم وخالطناهم أكثر من نصف قرن وأعجبنا بكثير من صفاتهم وخصائصهم، بل الغريب أنه شاع فى لغتنا العامية من الفرنسية – بل حتى من الألمانية واليونانية والإيطالية كثير من الألفاظ فأصبحت مألوفة متداولة مثل "جرسون" و"شيك" و"بردون" و"بونجور" و"بونسوار" إلى آخر ذلك مما لا داعى إلى استقصائه ولكنك لا تسمع أحداً من عوامنا أو خواصنا يدعو خادم القهوة أو الفندق boy أو waiter أو يسمى السائق driver ولو فعل أحدنا ذلك لكان الأرجح ألا يفهمه المخاطب إذا كان من العامة وإن كان من المألوف أن يدعو الأول garcon والثانى chayffeur مثلاً .

وأنا أعلل ذلك بأن فى المصريين مناعة طبيعية وعناداً قومياً هو الذى جعل الشعوب الكثيرة التى أغارت عليهم واستولت على بلادهم زمناً طويلاً أو قصيراً تفنى

فيهم ولا يفنون هم فيها، ولذلك تراهم يأخذون عن الفرنسيين واليونان وغيرهم – فى اللغة والعادات وأساليب الحياة – ولا يأخذون عن الإنجليز كما لم يأخذوا عن الترك الذين حكموا مصر قرونًا، وفى كل بلد غير مصر حكمه الترك أثر باق ملحوظ حتى فى نظام البيوت إلا فى مصر لأن لمصر شخصية قديمة ثابتة يتعذر أن تنزل عنها – حتى لو شاءت هى أن تنزل عنها – كما يتعذر أن ينزل الفرد عن شخصيته حتى ولو كان جاهلاً غير مدرك لها أو محيط بجوانبها.

وفى عامية بغداد ألفاظ لا أدرى من أين جاءت، مثال ذلك "اكو" بمعنى "يوجد" فتقول "اكو معى فلوس" أى يوجد معى فلوس،

و"ماكو" بمعنى "لا يوجد" فتقول "ماكو معى شىء" أى ليس معى شىء وهى مركبة من كلمتين – "ما" وهو أداة النفى المعروفة و"اكو" التى عرفناها ولعل "اكو" هذه أصلها "أكون".

ومن الألفاظ الغريبة أيضًا كلمة "خوش" بمعنى حسن أو جيد فتسمع أحدهم يقول "ألقى فلان خوش خطبة" أى ألقى خطبة حسنة جيدة.

وثم ألفاظ أخرى شائعة ولكنها عربية الأصل منها "زين" بمعنى حسن وقد تسمع الناس فى مصر يقولونها ولا سيما فى الأرياف.

و"مبسوط" ولها فى العراق معنى هو عكس ما يفهم منها فى مصر، والمبسوط فى مصر هو المسرور المنشرح الصدر الراضى عن الدنيا، وقد يفهم منها العامة معنى اليسر والغنى وخصب العيش ولينه، أما فى العراق فالمبسوط هو المضروب علقة وإذا قلت لواحد "ابسط فلانًا" فهم من ذلك أنك تريد منه أن يشبعه ضربًا.

ومن التعابير الغريبة أن تسمع واحدًا يسألك "كيف لونك" أى كيف حالك أو كيف صحتك،

وأكثر من ترى يقول "إى" بمعنى "نعم" أو "أيوه" فى عاميتنا.

وما لقيت أحداً فى بغداد إلا تبينت أنه فى الجيش - أو كان فيه فى وقت من الأوقات - ذلك أن العراقيين رجال حرب بفطرتهم وقد كانوا فى العهد التركى يؤثرون أن يعلموا أبناءهم فى المدرسة الحربية فى الآستانة، على حين كان غيرهم من أبناء الولايات العثمانية الأخرى يلتحقون بمدارس الطب أو الحقوق، ومن مظاهر الروح الحربية أنه لم يكد يتقرر التجنيد الإجبارى حتى عظم الإقبال عليه حتى من العشائر - أى القبائل البدوية - التى تغريها طبيعة حياتها فى البادية - وهى حياة لا ضابط لها إلا الحظ ولطف الله - بكره الضوابط والقيود والنظام على العموم، ومن أحسن ما رأيت الناس سروا به وأنا هناك أن الحكومة أدخلت فى المدارس الثانوية النظام العسكرى وجعلت من تلاميذها شبه احتياطى لجيش الدولة فكونت منهم ما يسمى "فرق الفتوة" وهم يلبسون ثياباً عسكرياً ويتدربون على الحركات الحربية واستعمال السلاح فى ثكنات الجيش فى ساعات معينة من النهار.

ومن مزايا الروح الحربية أنها تسهل طبع الشعب على النظام واحترام القانون - وهذا أول ما يلاحظه المرء فى العراق، فالقانون هناك نافذ بأدق معانى الكلمة - يطيعه ويحترمه رجال الحكومة والشعب على السواء وبلا تذمر أو ضجر، وأضرب لكم مثلاً فأقول إنا ذهبنا إلى بغداد فى سيارة خاصة، وقانون العراق يقضى بألا تستعمل السيارات الأجنبية فى العراق إلا بعد إجراءات خاصة طويلة، وقد نبهنا إلى ذلك فى الرمادى - وهى على بُعد تسعين كيلو متراً من بغداد، وأردنا أن نستعمل سيارتنا غداة وصولنا فخاطبنا فى أمرها من نعرفه ذا نفوذ أو من قيل لنا إنه يستطيع أن يعفينا من الإجراءات اللازمة وكانت رغبتنا أن نستغنى عن هذا الإجراءات بإذن شفوى نفوز به وفى ظننا أن الأمر هناك سهل كما هو فى بلادنا، ومع أنّا لقينا من التكريم والرعاية ما لم نكن نطمع فيه أو نحلم به فعدتنا الحكومة ضيوفاً عليها وجعلت إحدى سيارات الوزراء تحت أمرنا وفى خدمتنا ليلاً ونهاراً، فإن سيارتنا لم يطلق سراحها لأنّا لم نتبع ما يقضى به القانون - ولا أنكر أنّا أُبلغنا فى الأيام الأخيرة أن فى وسعنا أن نخرج بسيارتنا إذا شئنا - وقد خرجت بها فعلاً مرة وحدى لأجرب الإذن - ولكنا خجلنا أن نخرق القانون فى بلد هذه مبلغ احترام القانون فيه،

وعلى ذكر القانون أقول إن العراق ليس فيه امتيازات للأجانب، أى أن سيادة الدولة تامة فى التشريع والقضاء وفى كل باب آخر - إذا كان هناك باب آخر - وقد كان فى الفندق الذى نزلنا فيه أجانب كثيرون فحدث، أن بعضهم شرب فى ليلة فأخذت فيه الخمر فانطلق يغنى بصوت عال مزعج ولم يكن زملاؤه خيراً منه حالاً فراحوا يؤازرونه، فثقل ذلك على بعض النزلاء وتحدثوا به إلينا عرضًا فرويناه لصديق عراقى كان يزورنا فدعا مدير الفندق وأخبره الخبر، ولست أحب أن أطيل عليكم ويكفى أن أقول لكم إن الأجنبى الصاخب رحل عن الفندق وإن البوليس العراقى حاسبه على ما كان منه وإن الذى أرق بعد ذلك لم يكن أرقه بسبب الضوضاء.

وأهل العراق ديمقراطيون بفطرتهم لا يعرفون الأبهة الفارغة ولا النفخة الكذابة التى نعرفها ونحرص عليها فى مصر ونعتز بها جداً ولو ضيعنا فى سبيلها الجوهر والأصل وكل ما له قيمة حقيقية، ومن ديمقراطيتهم أنهم ألغوا الألقاب بقانون صدر بعد عودتنا إلى مصر - ما عدا الألقاب العسكرية فإنه لا غنى عنها على ما يظهر - وفرضوا عقابًا - غرامة جنيهين - على من يلقب نفسه أو يلقب غيره بلا حق، وقد قلت لما سمعت بهذا القانون الجديد إن الشعب نفسه ألغى الألقاب قبل أن تلغيه الحكومة فقد كنا نرى الناس هناك يسمون رجال الدولة بأسمائهم المجردة العارية من الألقاب، فكنا نقول للسائق مثلاً، اذهب بنا إلى بيت رشيد بك أو يس باشا، فيسألنا على سبيل التثبت "رشيد عالى" أو "يس الهاشمى" ولا يردف الاسم بأى لقب ولا يبدو عليه أنه يتعمد ذلك ولا يظهر لنا أى أثر للاستخفاف أو سوء الأدب فى غيبة رئيسه أو مخدومه.

وعلى ذكر السيارات أقول إنى خرجت مرة مع سائق عراقى وكنت وحدى، وكنت أريد أن أذهب إلى دار المفوضية المصرية وكان السائق لا يعرف الطريق إليها فقلت له:

(امش على طول).

وكنت قد عرفت الطريق من زيارة سابقة فلم يفهم، فظننته لم يسمع وكررت له الأمر فمال إلى اليمين فصحت به أستوقفه وقلت له:

(يا أخى بقول لك على طول – رايح فين).

فمال إلى اليسار فعدت إلى الصياح والاعتراض فوقف فاستغربت وسألته لماذا وقف فقال إنه لا يفهم إلى أين أريد أن يسير بى وإنه لهذا فضل الوقوف حتى يعرف أين يسير لأن هذا الاعتراض المستمر يربكه وقد يعرضه لخطر وهو على التحقيق يعطل حركة المرور فاقتنعت بأنه على حق وقلت له:

تعال نتفاهم ونتفق على اللغة التى نستعملها فى كلامنا وسألته (ماذا ينبغى أن أقول إذا أردت أن تسير بى إلى الأمام).

فقال: (قل سر جبل).

قلت: (شىء جميل – عرفنا هذا – وإذا أردت أن أميل إلى اليمين فما هى الكلمة الصحيحة التى لا تقبل غيرها منى).

قال: (قل سر يمنة).

قلت: (فصيح والله – وإلى اليسار أقول لك سر يسرة، أليس كذلك؟)،

قال: (أى).

قلت: فإذا خطر لى أن نرجع من الطريق نفسه؟ يجب أن نتفق على كل شىء حتى لا يحدث أى خطأ فى المستقبل، هه؟).

قال: (تقول ديور).

قلت على سبيل التأكيد: (ديور).

قال: (أى ديور).

والبساطة والديمقراطية شعار القوم هناك – حتى فى القصر الملكى لا تجد أثراً للتكلف ولا للرغبة فى الظهور البذخ وقد كان منهم أول ما فعلنا غداة وصولنا أن قيدنا أسماءنا فى دفتر التشريفات فى القصر الملكى كما هو الواجب فما راعنى فى اليوم التالى إلا تحديد موعد للتشرف بمقابلة صاحب الجلالة الملك فقلت لصديقى وزميلى:

(ما العمل؟)

قال: (إيش؟).

قلت: (ليس معى ثياب للمقابلة الملكية).

قال: (ولا أنا).

قلت: (هذا أدهى – لقد كنت معتمداً على أن بدلتك تكفيك وتكفينى معك).

قال: (هذه مسائل لا قيمة لها فى العراق، نذهب هكذا بثيابنا العادية).

وقد ذهبنا فعلاً بثيابنا العادية وشجعنى ورد روحى قبل التشرف بالمقابلة أنى رأيت رئيس الديوان الملكى يدخل معنا بثيابه العادية مثلنا وهممت بأن أعتذر لجلالة الملك ولكن بشره وتواضعه وشدة تلطفه معنا وحسن إقباله علينا أشعرنى أن الاعتذار غير مطلوب ولا مرغوب فيه، ومن مزايا هذه البساطة الطبيعية أنها تجعل كرم العراقيين خفيفًا على النفس وهم يكرمونك من غير أن يشعروك أنهم يفعلون شيئًا، ويغمرونك بكرمهم ولطفهم ولا يبدو مع ذلك عليهم أنهم يتكلفون من أجلك وفى سبيلك هذا، وإن كنت غارقًا فيما أفاضوه عليك وأزجزه إليك – سألنى أحد كبرائهم مرة هل أنا مرتاح فقلت: (كلا).

فصمت، فما كان ينتظر هذا الجواب البارد فقلت: (لو كنت أعرف العراق من قل لاحتطت، ولكن هذه أول زيارة لى ولست ألوم أحداً ولكنى ألوم نفسى)،

فظل صامتًا ينتظر أن أتم كلامى ولا يقول هو شيئًا فقلت: (لقد تبينت إنه كان واجبًا على أن أجئ بمعدة احتياطية لأستطيع أن أحتمل كل هذا الكرم).

فبلع ريقه وقال وهو يضحك وقال: (يا شيخ أرعبتنا أعوذ بالله).

وقد سمعنا هناك فى إحدى الليالى غناءً عراقيًا فى بيت مطربة العراق واسمها سليمة باشا – هكذا يسمونها على سبيل التدليل والإعزاز على ما أظن – وأنها لجديرة بذاك – وقد قالت لى إنها زارت مصر فلعل البعض قد رآها وسمعها، وقد لفت نظرى

من الأغانى الشعبية التى سمعتها منها أن الغزل فى هذه الأغانى على لسان المرأة لا على لسان الرجل كما هو المألوف فى مصر، وليس فى الصوت - أعنى التلحين - رخاوة أو تطر أو ضعف أو ذوبان، والقوة فيه واضحة، ولعل التعبير يكون أدق إذا قلت إن مزية الألحان العراقية الشعبية هى الصحة والسلامة أى الخلو من آفة الضعف والطراوة.

وهذه إحدى أغانيهم الشعبية التى دونتها أوردها على سبيل التمثيل:

يا نبعة الريحان	حنى على السهران
جسمى نحل والروح	دابت وعضمى بان..
من علة ال بجشاى[18]	ما تم عندى راى[19]
دائى صعب ودواى	ما يعرفه إنسان

* * *

يوم الذى حبيت	يا منيتى حنيت
صابره أنا تميت	ما درى ذنبى إيش كان
يا بعد روحى إيش جاك[20]	محرب على جفاك[21]
عود على اللى هواك	واتعوذ الشيطان[22]

---

(١٨) أى من العلة التى بجشاى (المازنى)

(١٩) أى ما بقى لى رأى أو عقل (المازنى)

(٢٠) أى يا أكثر من روحى (المازنى)

(٢١) مسلط على جفاك (المازنى)

(٢٢) أى تعوذ من الشيطان

صور من الحياة[23]

(٣)

سأحاول فى هذا الفصل أن أرسم للقراء طائفة من الصور لما رأيته فى بغداد ومظاهر الحياة فيها، وهى صور لا يمكن أن تكون إلا ناقصة أو غامضة ككل صورة وصفية فما تغنى الألفاظ غناء التصوير ولا يمكن أن تؤدى ما تؤديه ريشة الرسام، ولو كان فى وسعى أن أعرض طائفة من الرسوم لكانت خير بديل من هذا الكلام الذى لا أظنه يؤدى شيئًا ولا أحسبه يعين إلا قليلاً على تمثل الواقع، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، وأنا بعد أعول على فطنة القراء وصحة إدراكهم للحدود الطبيعية لكل من التصوير والكلام وفرق ما بينهما من حيث القدرة على الأداء.

وأبدأ بالمرأة العراقية فما أظن بالقراء إلا أنهم ينتظرون منى كلمة عنها، ولا أحسب أنهم يتوهمون أنى ذهبت وعدت ولم أولها فكرة، والحق أقول إنى أطلت الفكرة فى المرأة العراقية وكانت هى مدار خواطرى وحديث كثير من أحلامى أغلب الوقت، وأعترف أنى لم أر منها إلا لمحات قصيرة سريعة لا تغنى ولا تشبع العين أو القلب، وقد كادت عينى تخرج من فرط التحديق وطول التطلع وشدة البحث ولكنى لم أجدها كما كنت أرجو – لا لأنها غير موجودة، فما يعقل أن يكون فى العراق ناس وألا تكون فيه نساء، ولكنى لم أجدها لأنها لا تبرز – أى لا تسفر – أعنى فى المدن، أما فى

---

(٢٣) نشرت فى "مجلتى" فى ١٥ أغسطس ١٩٣٦ (ص٤٩٧–٥٠٥).

الريف، فأن شأنها هو شأن المرأة المصرية فى ريفنا، بل شأن كل امرأة فى كل ريف، أى أنها هناك تخرج، وتمشى بين الناس، سافرة إلى حد ما، وتعمل، وتبيع، وتشترى، وتتولى الأمور التى هى أدخل فى طوقها، والتى هى أقدر عليها، وأعظم إتقانًا لها من الرجل، وقد رأينا من المرأة الريفية كثيرات فى خلال رحلاتنا القليلة خارج بغداد، وهى تلبس ثوبًا بسيطًا يغلب أن يكون منقوشًا بألوان الصبغ كأنه موشى – أو مخططًا فى التواء، أو فى وشيه ترابيع صغار فيها صور كهيئة الطير أو الحيوان، ولا بد من اللون الأحمر فى بعض ما تلبس هذه المرأة، والأحمر هذا قد يكون حزامًا أو بخنقًا – أى شيئًا تغطى به رأسها – فإذا اتخذت الأحمر لرأسها جعلت تحته خرقة بيضاء تلفها على جانبى وجهها – أى خديها – وتخيطه تحت حنكها وتخيط معه خرقة أخرى على موضع الجبهة، وقلما تراها إلا حافية، وهى تلف على ساقها خرقة بيضاء لتقيها وخز الحسك والشوك فى مشيها فى المراعى والحقول – أو هذا ما قيل لى لما سألت عن سر هذه اللفافة.

أما الريفية الغنية فمثل أختها فى مصر – لا تخرج ولا تسعى ولا تعمل إلا فى بيتها – لأن لها من يغنيها عن ذلك فلا فرق بين المرأة العراقية والمرأة المصرية من هذه الناحية، وسنرى أنه لا فرق فى الحقيقة بين الأختين إلا بمقدار ما أسرعت المدنية فى مصر وأبطأت فى العراق.

والمرأة فى بغداد – أى فى المدن – نساء شتى فى الحقيقة، وأكثرهن يتحجبن – كما كان يفعلن فى مصر على عهد قريب – ولو كن متعلمات مثقفات، ولم أسمع بواحدة من هذه الطبقة المتعلمة تظهر للرجال حتى فى بيتها، ولكنى رأيت بنات الجيل الجديد اللواتى يتعلمن فى المدارس يمشين فى الشوارع سافرات، وكنت يومًا أتنزه على نهر دجلة فرأيت سربًا منهن حسبتهن لأول وهلة من المصريات فما يختلف مظهرهن عن مظهر التلميذات المصريات فى كثير أو قليل، فلما استقبلتهن ورأيت وجوههن الجميلة وعيونهن الواسعة الحوراء وحواجبهن السابغة – كأنها مخطوطة بالقلم – وأهدابهن الوطفاء وظلها على وجناتهن – زال عنى الوهم ورددت إلى دنيا

العراق، وليس معى هذا أن المرأة العراقية أجمل من المرأة المصرية فإن لكل من الجمالين خصائصه المميزة، وإذا كان بعض الخصائص يورث ويكون كالطباع لا حيلة لأحد فيه، فإن هناك مزايا تكتسب بالرياضة وأسلوب المعيشة وقد سبقت مصر العراق فى هذا الباب ولكن العراق سيدركها لا محالة على الأيام.

وقد رأيت نساء لم يخالجنى أى شك حين وقعت عينى عليهن أول ما وقعت أنهن رجال أو شيوخ، وكبر فى وهمى هذا الاعتقاد حتى لرحت أبحث عن اللحية فى هذه الوجوه وأستغرب ألا تكون لأمثال هؤلاء من الشيوخ لحى طويلة، والذنب فى هذا الوهم للثياب وحدها، وقد أفضيت بعجبى هذا إلى صديق عراقى فضحك جداً وقال:

"شىء غريب.، فى الحجاز ترى رجالاً فتظنهم نساء.، وفى العراق ترى نساء فتظنهن رجالاً"،

قلت: "يا شيخ اتق الله؟ ما هذا المزاح؟ أو أعمى أنا؟"،

قال: "والله نسوة!"،

فصدقته - وما حيلتى؟ أليس هو أدرى؟ ولكنى لا أزال فى شك من ذلك كبير، ذلك أن التى رأيتها - أول ما رأيتها - كانت تلبس عباءة وردية اللون سوى أنها باهتة وهى لا تختلف فى شىء عن العباءة التى يتخذها الرجال عندنا فلى العذر إذا كنت قد توهمتها فى أول الأمر رجلاً، ولم يكن وجهها يبدو لى لأنه مغطى بنقاب أسمر كثيف جداً وعلى عينيها نظارة سوداء كالتى يتخذها الناس ليقوا عيونهم وهج الشمس والتراب، وكان غطاء الرأس من لون العباءة ولكن له حافة تغطى الجبين وتبرز كالشرفة من فوق النظارة حتى لخيل لى فى أول الأمر أنها قبعة ضابط فى الجيش، ولم يكن أى جزء من وجهها يبدو للناظر مهما حدق وحملق، وقد قيل لى إن هذا كان اللباس المألوف قديماً وعليه بقى البعض إلى الآن.

وقد رأيت بيوت العراقيين وإن كنت لم أر نساءها، ومن السهل أن يدرك المرء أن المرأة العراقية - كأختها السورية - مدبرة حازمة وسيدة للبيت بأدق معانى الكلمة

وأسماها وأوفاها وليس يعيبها أنها لا تبرز للرجال ولا تخالطهم ولا تغشى المراقص والأندية العامة بل تقتصر على الواجبات المنزلية التى بدا لى من جملة ما رأيت، وتفصيله أنها تتقنها أتم إتقان وتؤديها على أوفى وجه، وهى فى هذا كأختها السورية ولعل الاثنين قد أفادتا من الحكم التركى هذه المزية وإن كنت أميل إلى الاعتقاد بأن صفات المرأة العربية طباع فيها وليست اكتساباً.

وهذا هو الفرق بين المرأة المصرية والمرأة العربية على العموم - عراقية كانت أو سورية أو فلسطينية - فإن العربية سيدة بيت قبل كل شىء، وواجبها الأول هو لبيتها أى لزوجها وبنيها، وقد تكون أسرتها أغنى الأسر ولكنها تتولى الأمر بنفسها ولا تستنكف أن تعمل بيديها بل تعد من مفاخرها أنها تعمل بيدها ولا تجعل معولها على الخدم والأعوان، ويولم الرجل فى بيته لطائفة من إخوانه فتحرص المرأة العربية على أن يكون أشهى ما يوضع على المائدة من صنع يديها، والأسر المتوسطة الحال لا تستخدم الطهاة أى الطباخين أو الطباخات حتى ولو كان هذا فى الوسع جداً، لأن تقاليد المرأة العربية تجعلها هى المسئولة عن البيت، وتربيتها تعودها أن تنهض هى بالأعباء لا أن تضعها على كاهل سواها وإن كان المال موفوراً، والعيب عند المرأة العربية هو ألا تعمل لا أن تعمل، وقد كان الحال فى مصر على هذا المنوال قبل بضع سنوات، ولكنا فى الأعوام الأخيرة تغيرنا جداً وصارت المرأة المصرية تستنكف أن تعمل فى بيتها وتطلب أن تقضى لها حاجاتها جميعاً وهى قاعدة لظنها أن هذا أكرم لها وأحق بأن يرفع مقامها، حتى إرضاع الأطفال صارت تكله للأجيرات وقلما ترى فى طبقاتنا الوسطى والعليا سيدة تكنس أو تطبخ أو ترتب غرفة أو تتولى أمراً من أمور البيت ولهذا كثر المخدمون فى بلادنا وكثرت الجرائم - من ظاهرة ومستورة - تبعاً لذلك، فما من شارع إلا وفيه مخدم وما من بيت جرب هؤلاء الخدم إلا عانى ما لا أحتاج أن أصفه لأنه معروف. وتذهب إلى فلسطين أو سوريا أو العراق أو الحجاز أو غير هذه وتلك من بلاد العرب وتبحث عن مخدم أو دكان مخدم فلا تجد - والبيوت مع ذلك هناك فى كل مكان من هذه البلاد أحسن نظاماً وتدبيراً وأقوم حالاً، والجرائم التى ترجع إلى الخدم والمخدمين لا وجود لها، فإذا كنت أعجب لشىء فإنى أعجب

للتدبير المنزلي الذى يتعلمه بناتنا فى المدارس ماذا استفدن منه؟ فإذا كن لم يستفدن منه شيئًا فلماذا لا يلغى أو يصلح بحيث يخرج لنا امرأة صالحة كفوًا لإدارة البيت وتدبير أموره وتربية الأولاد كالمرأة السورية أو العراقية.

ولم أر بغداد من الجو، وكأن رئيس الحكومة قد تفضل فطلب من بعض كبار الموظفين أن يرتبوا لنا رحلات جوية فأعد البرنامج وكان ينبغى أن ينفذ ولكن المآدب كثرت من ناحية وغلبنى النوم من ناحية أخرى - والنوم سلطان - ولم يشأ صديقى أن يوقظنى فذهبت الفرصة، وأرجو ألا تحسبوا أنى خفت على عمرى فما لعمرى قيمة، ثم إنى أؤمن بالمثل القائل "إن عمر الشقى بقى" فلا خوف على عمرى هذا من الطيارة أو سواها، ولهذا ترونى أقذف بنفسى على المعاطب وألقى بها فى المهالك وأنا آمن وواثق من النجاة ومطمئن إلى السلامة، على أن هذا استطراد والذى أردت أن أقوله هو إنى على الرغم من ذلك يخيل لى من السير فى طرق بغداد أنها تشبه حرف "T" فنهر دجلة يشقها من الشمال إلى الجنوب - أو من الجنوب إلى الشمال إذا شئتم - وما يدرينى؟ لعله يشقها من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق، فليس أجهل منى بهذه الشؤون الجغرافية - والمهم على كل حال أن دجلة تشق البلد - ما فى هذا شك - وتشطره شطرين كما يشطر النيل القاهرة ويفصلها عن الجيزة، وعلى محاذاة دجلة شارع اسمه "شارع هارون الرشيد" وطوله نحو خمسة كيلو مترات، وعند منتصفه تقريبًا يقع جسر مود ويمتد من آخر الجسر شارع عمودى على الأول - إذا أهملنا المنعطفات والأبنية الفاصلة وما إلى ذلك - ولا أعرف لهذا الشارع آخرًا لأنه يمتد إلى الكاظمية والأعظمية - نسبة إلى الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان وقبره هناك - وعلى هذين الطريقين الأعظمين تتفرع شوارع ودروب شتى لا يأخذها حصر، والطرق كلها ممهدة ومرصوفة ومفروشة بالقطران أو الأسفلت، ومما يساعد الحكومة العراقية على تعبيد الطرق أن الاتفاق المعقود بينها وبين شركة آبار البترول الإنجليزية العراقية يخولها أن تأخذ بلا ثمن من القار أو الزفت الذى يتخلف من البترول ثلاثة آلاف طن فى العام فإذا احتاجت إلى زيادة أخذتها بأقل من سعر السوق بثلاثين فى المائة، وثلاثة آلاف طن فى العام مقدار يكفيها فى الوقت الحاضر، وقد شرعت حكومة العراق

فى تمهيد الطرق وفرشها بالأسفلت حتى فى قلب الصحراء وقد رأيناها تعبد مائة كيلو متر من طريق الصحراء بين الرمادى والرطبة، ومتى فرغت من هذه فستعمل فى مائة أخرى وهكذا، وأنا موقن أن العراق ستكون بعد بضع سنوات من أحسن بلاد العالم طرقًا، وهى تدرك قيمة الطرق لشدة حاجتها إلى تسهيل المواصلات بين أطراف بلادها المترامية، وعلى ذكر ذلك أقول إن بغداد ليس فيها ترام يشوهها أو يرج مبانيها أو يزحم طرقها، والمواصلات كلها داخل المدينة بالسيارات، ولما كانت السيارات ليست مما يستطيع أن يقتنيه كل واحد فإن هناك سيارات ركوب - أو أوتوبيس - تجريها البلدية ولكنها صغيرة وشبيهة بالمخازن، وقد أذكرتنى السيارات التى تتخذها المحال التجارية فى مصر لنقل بضائعها، ولكنى علمت من حديث مع أحد رجال البلدية أنها - أى البلدية - قررت أن تبطل هذه وأن تسير بدلاً منها أخرى واسعة رحيبة كالتى نراها فى مصر.

والمبانى فى بغداد كلها بالآجر - أى الطين المطبوخ - ولم أر بيوتًا مبنية بالحجر أو الأسمنت، والآجر مادة البناء هناك من أقدم العصور، فقد رأينا ما بقى من إيوان كسرى - أو طاق كسرى كما يسمونه - على نحو خمسين كيلو مترًا من بغداد وكله بالآجر، ورأينا فى بغداد نفسها قصرًا من العصر العباسى يسمونه "قصر المأمون" وإن كانت مصلحة الآثار تنفى لك وتقول إنه لا يوجد دليل يثبته وأن الأرجح أنه قصر بُنى فى صدر الدولة العباسية، وقد كان مطمورًا فى عهد الحكم التركى وكان موقعه متخذًا ثكنة للجيش العثمانى فلما استقلت العراق رفعت عنه التراب كما نفضته عن روحها، فبدا جانب كبير منه على أصله، منه يستطيع الإنسان أن يكوِّن فكرة صحيحة عن طراز المبانى فى العصر العباسى.

والمبانى فى بغداد لا تذهب فى الهواء ولا تزيد على طبقتين اثنتين - الطبقة العالية تسكن فى الشتاء طلبًا للشمس والدفء والطبقة الواطية - أو القريبة من الأرض - تتخذ فى الصيف اتقاء للحر الشديد فإن درجة الحرارة ترتفع فى الصيف إلى الخمسين فى أحيان كثيرة، وللبيوت سراديب هى التى نسميها فى مصر البدروم وهم يأوون إليها فرارًا من الحر، ومن طرق التهوية القديمة الموروثة عن العصر

العباسي – والتي يرى مثلها في بعض المساكن إلى اليوم وقد رأيت ذلك في الفندق الذي كنا فيه إنهم يجعلون في جوف الجدار فراغًا أو فرجة كالمدخنة ينحدر منها الهواء من السطح على السرداب فيخفف عمن فيه في الصيف ويكفل لهم تجديد الهواء كلما فسد، ويكون لهذه المهواة باب يغلق في الشتاء، وشتاء بغداد بارد كما أن صيفها حار ولذلك لا يخلو بيت من موقد للنار، والخشب هو الوقود المألوف، وليالي بغداد في الصيف مشهورة من أقدم عصورها كما يعرف كل مطلع على الأدب العربي والناس هناك يؤثرون النوم في الصيف على السطوح.

ونهر دجلة مشهور بفيضانه – أو طوفانه على الأصح – والفيضان يقع في الشتاء لا في الصيف كما هو الحال عندنا، وهذا من حسن الحظ لأن الماء يتسرب إلى السراديب فيملؤها فيستحيل الانتفاع بها أو الإقامة فيها، وكثيرًا ما يطغى النهر ويفيض على المدينة فيغرقها كما تفعل أنهار كثيرة غدارة نسمع بها ولا نراها لحسن الحظ، ومن الغريب أن بغداد الجديدة مبنية في الناحية الواطئة التي يغرقها الماء إذا فاض، ولذلك ترى أبواب البيوت في هذه الأحياء الجديدة مرتفعة عن الطريق بضع درجات تصعدها قبل أن تصل إلى الباب.

وفي بغداد سوق بعضها قديم والبعض جديد ولكن قديمها والجديد من طراز واحد لأنهم أرادوا أن يحرصوا على صبغته ومزيته، والسوق عبارة عن شوارع ضيقة بعض الضيق ومتقاطعة وهي جميعًا مسقوفة لا تنفذ منها الشمس في الصيف ولا المطر في الشتاء وفي هذه السوق يباع كل ما في بغداد، وقد جبتها في ساعتين ونصف ساعة من شدة الزحام، وأقرب ما يشبه هذه السوق في مصر خان الخليلي أو أجزاء منه لولا أنه – أي خان الخليلي أضيق جدًا – أو حي القربية قبل أن يرفع السقف وترصف الأرض، ولكي يستطيع القارئ أن يتصور مبلغ الزحام في هذه السوق أقول إني جبتها كلها ومع ذلك خرجت وأنا لا أعلم هل أرضها مبلطة أو مفروشة بالأسفلت فقد كان همي أن أشق لي طريقًا وأن أتنفس وأرى ما جئت لأراه – فإني قصير كما تعلمون أو كما لا تعلمون – وليس معنى هذا أن الدكاكين كلها في هذه السوق وإنما معناه أن هذه هي السوق العراقية البحت، وفي كل شارع دكاكين –

من كبيرة وصغيرة - كما لا أحتاج أن أقول وبعضها للعراقيين والبعض للأجانب، ولكن الأهالي يفضلون أبناء وطنهم ويؤثرونهم على غيرهم، وسأضرب مثالين اثنين أعتقد أن فيهما الكفاية.

الأول - إن في بغداد مصنعًا لنسج الثياب الصوفية أسسه فتاح باشا، وابنه نوري بك فتاح باشا، - أو السيد نوري فتاح كما يجب أن يسمى الآن وإلا غرمونا جنيهين، وكل من في العراق - من جلالة الملك إلى أصغر من يلبس بذلك أفرنجية، لا يتخذ ثيابه إلا من نسج هذا المصنع الوطني، والمصنع يستعمل نوعين من الصوف - العراقي ومنه تصنع المنسوجات الخشنة بعض الشيء، والأسترالي أو الروسي ومنه تصنع المنسوجات الناعمة، والنوعان رخيصان لا يبهظان ولا يثقل ثمنهما على أحد، بل كل ما في العراق رخيص - على قدر ما وسعني أن أتبين، وقد احتجت وأنا هناك إلى معطف لأن معطفي أتلفته الصحراء - أو أنا ادعيت هذا أما الحقيقة فهي أنه قديم - قديم جداً حتى ليخيل لي أنه كان لأبي من قبلي أي منذ نصف قرن على الأقل[٢٤]، فأردت أن أشتري معطفًا جديداً أظهر به بين الناس وأتقي به البرد والمطر، ورأيت صديقًا عراقيًا يلبس معطفًا جميلاً فيه وقاية كافية من البرد حتى في القطب الشمالي، فاشتهت نفسي أن يكون لي مثله، ولكني خفت أن يكون ثمنه فوق ما يسعني وأنا فقير وغريب وبعيد عن بلادي فقلت أحتال حتى أعرف الثمن وجعلت أتحسس المعطف مظهراً إعجابي به وسألته:

"هذا من نسج العراق؟"

فقال: "إي.، لا نلبس إلا ما تنسجه العراق".

قلت: "ما شاء الله! ما شاء الله! وبكم يا ترى اشتريته إذا جاز مثل هذا السؤال؟"

فابتسم وقال: "بكم تظن أنت؟"

(٢٤) هذا عمر المعطف ؛ لا عمري أنا (المازني).

قلت: "لا أدرى"

قال: "خمن"

قلت: "لو كان هذا فى بلادنا لما قل ثمنه عن سبعة جنيهات"،

قال: "فقط؟"،

قلت: "هذا تقدير مبنى على ما أعلمه من أحوال بلادنا وقد أكون مخطئًا"،

قال: "هل تصدق إذا قلت لك إن ثمنه سبعمائة وخمسون فلسًا؟"،

فظننته لأول وهلة يقول سبعمائة وخمسين قرشًا، فهبط قلبى إلى حذائى ويئست من شراء المعطف الجديد فإنا سنعود بعد أيام قليلة إلى جو مصر المعتدل الذى لم يحوجنى إلى المعاطف، فعاد يسألنى:

"ألا تصدق؟".

قلت: "صادق، صادق".

قال: "٧٥٠ فلسًا لا أكثر".

فتنبهت وسألته: "فلسًا أم قرشًا؟".

فأغرب فى الضحك وسألنى: "ماذا تظننى؟ مليونير؟"

فنهضت وجذبته من ذراعه وقلت له:

"خذنى إلى هذا التاجر! بسرعة! قم؟".

وقد اشتريت المعطف الذى راقنى بثمانمائة مليم!! ولا يزال عندى فمن أراد أن يراه فليتفضل.

والدخان يزرع فى العراق وقبل بضع سنوات لم تكن مصانع السجاير قد أنشئت فكان العراقيون يشترون الدخان ويلفونه بأيديهم وكان يس باشا الهاشمى – السيد

يس الهاشمي الآن - رئيس الوزراة الحالية إذا زاره أحد يقدم له علبة الدخان والورق ليلف لنفسه سيجارة إذا شاء ويأبى أن يشترى السجاير الأجنبية كائنًا من كان هذا الضيف، والآن تلف السجاير فى المصانع ولا يحتاج المدخن أن يلفها بيديه، ولا أعرف فى العراق فرداً واحداً يفضل الدخان الأجنبى، أما ثمنها فالتراب أغلى منه، ذلك أن أحسن صنف من هذه السجاير لا يزيد ثمنه على قرش مصرى ونصف قرش.

والعراقيون قوم يحبون الوقوف - لا أدرى لماذا؟ - وقد عانيت من حبهم له فوق ما أطيق فإنى مهيض الساق مكسورها، والوقوف يشق على، وأهون منه عندى أن أمشى إلى آخر الدنيا وكنت إذا دعيت إلى طعام أو شاى أجد الداعى والمدعوين وقوفًا فأحوقل فى سرى، وأكل أمرى إلى الله، وأظل واقفًا - أو على الأصح أتظاهر بالوقوف، والحقيقة أنى أفعل ما يفعل الجواد، أى أثنى رجلاً وأقوم على الأخرى حتى يجئ أوان الأكل فنجلس وأنا أتشهد وأحمد الله وأثنى على آلائه ولا نكاد نفرغ من الطعام حتى يعود القوم إلى الوقوف فأقول لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن ماذا أصنع؟ ونظل هكذا حتى ننصرف، أما إذا كانت الدعوة إلى شاى فإن مصيبتى تكون أعظم، لأن الشاى يشرب على الواقف، وغرضهم من ذلك أنهم يريدون أن يمكنوا المدعو من التنقل والاتصال بمن يشاء من الحاضرين وألا يلزموه مكانًا واحداً وجاراً واحداً لا يعدوهما، وهذا معقول، والحكمة فيه واضحة، ولكنى أرجو حين أعود إلى العراق أن يعفونى من هذه الحكمة فإنها تمر بى وتتسرب إلى الأرض خارجة من قدمى كالتيار الكهربائى.

(انتهت)

ملحق رحلة العراق (١٩٣٦)

مصر والعراق

والمصريون فى بغداد[٢٥]

يمثل مصر فى العراق رجل فاضل رضى الخلق مرضى السيرة هو الأستاذ حافظ عامر بك القائم بأعمال المفوضية هناك، وصاحب الرسالة المشهورة عن الحج، وهذه الرسالة التى ميزته وأفردته بين زملائه من رجال السلك السياسى تدلى على نزعته الإسلامية واتجاهه الدينى، وقد سمعت فى بغداد ثناءً كثيرًا عليه، وامتداحًا لاستقامته، وارتياحًا إلى سيرته، ورضى عما يبذله من الجهود لتوثيق الصلات بين مصر والعراق، واعترافًا بما أدى للقطرين فى هذا الباب، ويعاونه فى المفوضية نخبة من المصريين المدربين عرفت بعضهم من قبل فى بيروت وغيرها، وقد لاحظت أن حكومتنا أشد تقتيرًا على مفوضيتها فى بغداد من الحكومة العربية السعودية على مفوضيتها هناك، وحكومتنا أغنى وأقدر على البذل، ولكن الحكومة العربية السعودية، على رقة حالها، أصح إدراكًا لمعنى التمثيل السياسى والغاية منه، وأفطن إلى مقتضياته، وهذا التقتير يكلف رجالنا فى البلدان الأخرى شططًا، ويرمى بهم فى مآزق محرجة لا تكاد الوزارة هنا تحس بها، أو تباليها حتى إذا عرفتها، ولم يفض إلىَّ أحد بشكوى أو تذمر، ولكنى نظرت بعينى وقارنت وتبينت أن ممثلينا فى الخارج يتحملون الكثير ليستروا تقصير حكومتهم أو قلة مبالاتها.

ومن حسن حظ مصر أن الأساتذة الذين ذهبوا إلى العراق لتولى بعض مناصب التدريس أو غيره فيها - إلى حين - من أرقى المصريين، وأوفاهم علمًا، وأحمدهم

---

(٢٥) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٦ (ص١).

سيرة، وأغزرهم مادة، بل أن أمثالهم قليلون فى مصر، ويكفى أن أذكر أسماء ثلاثة منهم ليقتنع القارئ بأنى لا أبالغ، وهم الدكتور السنهورى، والأستاذ عبد الوهاب عزام، والأستاذ عبده حسن الزيات، وغيرهم كثيرون، ولكنى لست فى مقام الإحصاء أو التقصى، وقد قلت لبعض الذين حدثونى من العراقيين عنهم، وهنأوا مصر بهم، إنى أخاف إذا مضى العراق فى هذه الخطة وراح ينتقى كل عام مثل هذه الصفوة المختارة، أن يغنى هو وتفتقر مصر، ولست أكره للعراق الخير، ولكنى لا أحب لمصر السوء، ولم أقل هذا لمحدثى على سبيل المزاح، وإنما قلته جاداً، فإن أمثال هؤلاء الأساتذة المخلصين الجادين لا يعوضون بسهولة، وهم أشهر من أن يحتاجوا منى أو من سواى إلى تزكية فحسبى هذا القدر.

وهؤلاء الأساتذة الكبار سفراء غير رسميين، من مصر إلى العراق، ومما هو حقيق أن يجعل سفارتهم أنجح وأعظم توفيقًا أنهم من المؤمنين بالقومية العربية، والمدركين لقيمة التعاون بين هذه الشعوب العربية التى مزقها الاستعمار، وباعد بينها الجهل، وسوء التوجيه، وقلة الفطنة إلى المصالح الحقيقية، على أن غير المؤمن بهذه القومية لا يلبث إلا قليلاً فى العراق حتى يهتدى بعد الضلال ويتحول من الكفر إلى الإيمان، ويكفى أن يرى حب العراقيين لمصر، وإعجابهم بها، وعنايتهم الدقيقة بتتبع حركاتها من أدبية وسياسية وعلمية وفنية واقتصادية، ليدرك ما يخفى أحيانًا على المقيم بمصر من منزلة بلاده، وليفطن إلى الوجهة التى هى بها أولى.

لقد كان من أروع ما وقع لنا أننا ونحن راجعون من بغداد إلى عمان بسيارتنا وأمامنا السيارة المسلحة التى تفضلت حكومة العراق علينا بها لترافقنا إلى حدود بلادها – وهى سحيقة – أن التقينا فى هذه الصحراء التى لا ماء فيها ولا شجر، ولا طير ولا إنسان، ولا ظل لشىء من الأشياء، بسيارة مقبلة علينا، عرفها الضابط الذى معنا، فوقفنا لها ووقفت لنا، ومعتسف الصحراء يفرح بمن يلاقى فى فيافيها المتقاذفة، فإذا فيها شيخ عنيزة من كبرى عشائر العراق، وتولى الضابط الفاضل أمر التعريف، فكان أول ما سأل عنه الشيخ الوقور الذى يعيش فى البادية ولا يكاد يسمع من أخبار

الدنيا شيئًا "وكيف حال مصر؟ وماذا تم فى أمر المفاوضات؟ لعلها ناجحة إن شاء الله!"

فالتفت إلى صديقى الأستاذ أسعد داغر وقال:

"فى قلب الصحراء يسألونك عن المفاوضات ويرجون لها التمام والتوفيق"،

فأطرقت، وبى خجل، فإن قومى لا يذكرون للأمم العربية مثل ذكراها لهم.

ومن مظاهر هذا الاتجاه أن القوم يريدون أن يزورهم صاحب السعادة طلعت حرب باشا ليدرس ما يمكن عمله لتوثيق الروابط الاقتصادية بين البلدين، وهو أقدر رجالات مصر على ذلك وأحقهم بالنجاح فيه، فلعله فاعل إن شاء الله، وموفق بعونه وقوته.

إبراهيم عبد القادر المازنى

جميل صدقى الزهاوى[٢٦]

(٢)

كانت حياة المرحوم الزهاوى مضطربة هائجة مائجة كروحه، حافلة بالحوادث و[النوب] كزمنه، وقد ذكر مترجمه صديقنا الأستاذ رفائيل بطى فى كتابه "الأدب العصرى فى العراق العربى" أن الزهاوى ولد فى "التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٧٩ هجرية – يوم الأربعاء الموافق ١٨ حزيران سنة ١٨٦٣ ميلادية" فيكون قد أدركه الحين فى الثالثة والسبعين من عمره أو حوالى ذلك، ولكنى أعتقد أنه كان أسن من ذلك، وأكبر ظنى – فإنى لست على يقين لفرط جهلى بالحساب – أن التاريخين الهجرى والميلادى لا يتفقان، ولا أظن أن فى الوسع معرفة يوم الميلاد وسنته بمثل هذه الدقة فى زمن كالذى جاء فيه الزهاوى إلى الدنيا، ولعله لم يكن هناك نظام محكم لتقييد المواليد والوفيات فى تلك الأيام فى بغداد، على أنى سمعت من الزهاوى فى بغداد بيتين له أنشدنيهما وفيهما يذكر عمره ويقول إنه فى التسعين أو إنه جاوزها، والمرء يبالغ فى كل شىء إلا فى عمره، وليس الرجل بأقل كلفًا بتمويه الحقيقة فى ذلك وسترها من المرأة، ودليل آخر على عدم الدقة فى تعيين تاريخ الميلاد ذلك أن مترجمه يقول إنه ولد فى سنة ١٢٧٩ هجرية، وهذه سنة ١٣٥٤ هجرية، فعمره يوم وفاته يكون على هذا الحساب حوالى خمسة وسبعين عامًا، ولكن المترجم يذكر فى مكان آخر أنه كان فى الثلاثين من عمره لما عين سنة ١٣٠٣ هجرية عضوًا فى مجلس المعارف فى بغداد وعلى هذا الحساب الجديد يكون عمره إحدى وثمانين سنة ثم أنه أصيب بالفالج

(٢٦) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١ مارس سنة ١٩٣٦، (ص١، ٥).

منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، والأستاذ بطي يذكر أنه أصيب به في الخامسة والخمسين من عمره.

على أن العبرة ليست بالسنين وعددها، بل بالحيوية والإحساس وقد كان الزهاوي إلى آخر أيامه شابًا فتيًا إذا اعتبرت الروح، وشيخًا مضعضعًا حتى في صدر أيامه وحداثته إذا اعتبرت الجسم، فقد أصيب في الخامسة والعشرين من عمره - وهو في شرخ الصبي - بداء في نخاعه الشوكي لم يبرأ منه قط، وتوالت عليه العلل والأدواء بعد ذلك ولازمته، كالفالج وتصلب الشرايين وضعف القلب وغير ذلك مما لعله أدهى ولكن هذا كله لم يؤثر في روحه ولم يضعف عقله ولم يزد نفسه إلا [ضعفًا][٢٧] وحدة.

وكانت عيشته مرة في ظل السلطان عبد الحميد، فأحيط بالجواسيس في الأستانة، ومنع من السفر منها إلى بغداد حتى ضاق صدره بالعيون التي عليه فنظم قصيدة يهجو فيها السلطان الطاغية ويقول فيما يقول:

لقد عبث بالشعب أطماع ظالمٍ	يحمله من جوره ما يحملُ
فيا ويح قوم فوضوا أمر نفسهم	إلى ملكٍ عن فعله ليس يسألُ
إلى ذي اختيار في الحكومة مطلق	إذا شاء لم يفعل، وإن شاء يفعلُ
وذي سلطة لا يرتَضي رأي غيره	إذا قال قولاً فهو لا يتبدلُ
أيأمر ظل الله في أرضه بما	نهى الله عنه والكتاب المنزَّلُ؟
فيفقر ذا مال، وينفي مبرءاً	ويسجن مظلومًا، ويسبي ويقتلُ؟

إلى أن يقول:

وأيديك إن طالت فلا تغترر بها	فإن يد الأيام منهن أطولُ

وكان طيشًا أن يهجو الطاغية في عاصمته، ولكنه لم يكتف بذلك بل أنشد أبا الهدى الصيادي هذا الهجاء فرفع خبره إلى السلطان فسجنه مع الزهراوي وصفا بك الشاعر التركي ثم نفاه إلى بغداد.

---

(٢٧) كذا في الأصل بينما السياق يستوجب العكس على سبيل المثال [صفاء] ! (المحرر) .

وفى ذلك يقول:

وهل راحة فى بلدة تصف أهلها على نصفه الثانى عيون تطَّلعُ
تعقبنى فى كل يوم وليلة إلى الحول من تلك الجواسيس أربعُ
تراقب أفعالى، وكل عشية إلى "يلدزٍ" عنى التقارير تُرفعُ
ولست بناسٍ نكبةً نزلت بنا على حين ما كنا لها نتوقعُ
فقد قَلعتنا رفقةٌ من بيوتنا كما تقلع الأشجارَ نكباءُ زعزعُ
وسَاروا بنا للسجن راجين لنا تَذلُ الحكم الغادرين ونخضعُ
وما علموا أنا أناس تمتُّهم إلى العزِ أنسابٌ لهم لا تُضيَّعُ
وأنَّا من الأحرار مهما تألبت علينا عوادى الدهر لا نتضعضعُ

ولم يجد راحة فى بغداد فقد كان واليها يكرهه، وأغرى به هناك رجل وهابى أخذ يحرض الحكومة عليه ويتهمه بالكفر والزندقة وبأنه يبسط لسانه فى السلطان عبد الحميد، فطلب الوالى من حكومة الأستانة أن تبعد الزهاوى إلى بلد قصى فاضطر الزهاوى إلى تأليف كتاب "الفجر الصادق" فى الرد على خصمه الوهابى، وصدره بمدح السلطان اتقاء لأذاه المجرب، ولكنه جعل يهجو ولاة الترك فى بغداد كلما جاء منهم واحد وقصائده فيهم مثبتة فى ديوانه .

وأعلن الدستور فظن أنه نجا وأنه سيجد فى ظله السلامة إذا لم يفز بالراحة فجعل يخطب الناس ويبين لهم مزايا الحكم الدستورى ثم رحل إلى الأستانة فعين أستاذاً للفلسفة الإسلامية فى المكتب الملكى ثم مدرساً للآداب العربية فى جامعة دار الفنون ولكن وطأة المرض ثقلت عليه فعاد إلى بغداد فعين مدرساً لما يسمونه "المجلة" فى مدرسة الحقوق ويعنون بها - أى بالمجلة - مجموعة القوانين وكان يكتب إلى المقتطف والمؤيد فنشر له المؤيد مقالاً فى "المرأة والدفاع عنها" هاجت عليه الناس فى بغداد وذهبوا إلى واليها يطلبون منه عزل الزهاوى فأقاله، وبلغ من سخط الناس عليه

أن اضطر إلى ملازمة داره خوفًا من الاغتيال ولكن العقلاء فى مصر وسوريا أنصفوه وأيدوه.

ولما سكنت الضجة أعيد إلى تدريس المجلة، ثم انتخب مرتين نائبًا مرة عن المنتفق ومرة عن بغداد فذهب إلى الأستانة ودأب فى المجلس على الدفاع عن حقوق العرب، ومن نكاته الجريئة المشهورة أن المجلس مرة أراد أن يقرر تلاوة البخارى لينفع الله بها الأسطول فصاح الزهاوى بهم أن الأسطول إنما ينفعه البخار لا البخارى.

وكانت حياته فى السنوات العشر الأخيرة موزعة بين السرير إذا اشتدت به العلة وبرح به الداء، والقهوة يذهب إليها ويقرأ فيها الصحف والكتب، أو يلعب "الداما" أو النرد، وكان يرسل شعر رأسه ولحيته وشاربيه فيختلط كل أولئك، ويكاد يخفى وجهه النحيل المتهضم فلا يبدو منه إلا عينان تومضان حين يتكلم وتفتران حين يصمت، وجبين حفر فيه الزمن أخاديد عميقة، وأنف كبير أقنى يشى بصدق العزم وقوة الإرادة، وكان على ضعفه ومرضه مفرطًا فى التدخين، وقد سمعته يضحك مقهقهًا فانقبض صدرى وانعصر قلبى، فما خفيت علىّ نبرة اليأس المرة فى هذه القهقهات التى تشبه حشرجة المتشنج، رحمه الله.

إبراهيم عبدالقادر المازنى

رحلة الشام

(فى مهرجان المعرى) (١٩٤٤)

مقدمة[٢٨]

أتيح لى، فى الشهور الستة الأخيرة أن أقوم برحلتين طويلتين، واحدة إلى الشام للاشتراك فى مهرجان المعرى أو عيده الألفى، بدعوة من المجمع العلمى العربى بدمشق، وبالنيابة عن نقابة الصحفيين، والثانية إلى العراق بدعوة من حكومته الموقرة لإلقاء طائفة من المحاضرات الأدبية وكانت الرحلة الأولى فى الصيف، وقد نشر "البلاغ" البحث الذى كنت أعددته لمهرجان المعرى، ووصف ما كان فيه، فلا حاجة بى إلى العودة إلى ذلك، وكانت الثانية فى الشتاء وهى أطول وأحفل[٢٩]، ولست أكتب اليوم لأصف شيئًا، مما كان فى هذه الرحلة الشتوية، فإنى أهيئ لهذا كتابين[٣٠] أرجو أن يوفقنى الله فأُخرجهما قريبًا بعد أن أتلقى ما تركت فى العراق من أوراقى – وإنما أكتب هذا الفصل لأعالج مسألة قومية.

ويحسن قبل أن أتناولها بكلام أن أقول إنى حرصت فى كل رحلاتى، وهى كثيرة، على مبدأين لم أحِد عنهما قط، وإن كانت صلات المودة والصداقة بينى وبين

(٢٨) نشرت فى "مجلة الجديد" فى أول فبراير ، ١٩٧٤.

(٢٩) يتضح من هذا أن هذه المقدمة كتبت بعد الانتهاء من رحلة العراق الثانية (١٩٤٥) (المحرر).

(٣٠) لا ندرى أهما كتابين يضمان الرحلة أم الرحلتين الأولى (١٩٣٦) – وقد مرت بك – والأخيرة (١٩٤٥) التى سننشرها فيما يلى ذلك (المحرر).

كثيرين من أبناء البلاد العربية الشقيقة، تغرى بالتبسط وترك التحرز والتحفظ، فأما المبدأ الأول فإنى لا أدخل فى أمر داخلى للبلاد التى أزورها، أو أتطفل عليها بالخوض فى شؤونها أو التعرض بخير أو شر لأحد من رجالها وأما المبدأ الثانى فأن أكون مصرياً قحًا لا يعرف غير مصر ولا يجعل باله إلا إلى سمعتها، ولا يذكرها ولا يسمح بذكرها أو ذكر أحد من رجالها بغير الخير، وقد كلفنى هذا شططًا وحمل أعصابى فى بعض الأحيان فوق طاقتها، فما كانت أحوالنا فى كل حال بالمرضية، وأنا رجل أوثر الصراحة والحق على المداورة والمكابرة، ولكن هو الواجب، ومن فضل الله علىّ أنى تعلمت وتعودت أن أقدم الواجب على الهوى.

ولعل أكثر المصريين لا يدرون أن مصر كتاب مفتوح تقرأه البلاد العربية صفحة صفحة، وسطراً سطراً، وحرفًا حرفًا، وقد لا يدركون أن لبلادهم مقامًا ممتازًا ومنزلة ملحوظة، وإن صحفها تدرس - ولا أقول تقرأ - وتغربل وتنخل، ولا يهمل]منها [حتى الإعلانات وأن القوم يعرفون أعلامنا واحداً واحداً، وفى وسعهم أن يكتبوا لهم تراجم دقيقة مستفيضة، وأنهم واقفون على أحوالنا وسير الرجال عندنا، ومجرى الحوادث فى أرضنا وقوفًا يدهش ويروع ويريك.

فى سنة ١٩٣٦ كنت عائداً من العراق مع صديقى الأستاذ أسعد داغر، إلى شرق الأردن، من صحراء جرداء لا ماء فيها ولا شجر، وإنّا لنتلمس طريقنا فيها على حذر، وإذا بسيارة مقبلة، فلما لمح راكبها الطرابيش على رءوسنا استوقفنا وأقبل علينا يسألنا عن المفاوضات المصرية الإنجليزية وما يحتمل أن تفضى إليه، وهل يرُجى لها نجاح؟ ولم نكن نعرف شيئًا يجيز لنا أن نعرب عن أكثر من الأمل، فدعى لمصر بخير ومضى فجعلنا نتعجب لهذا الشيخ - فقد كان من شيوخ العشائر - وعنايته بأخبار مصر ودقة تتبعه لها.

وفى هذا الشتاء، كانت صحف مصر تتخطف فى بغداد، وغيرها من مدائن

العراق، وكان فى بعضها أسماء المرشحين فى الانتخاب لمجلس النواب، فكان أغرب ما فى الأمر أنى أنا المصرى لا أعرف شيئًا عن معظم المرشحين، على حين كان العراقيون لا تخفى عليهم من أمرهم خافية، وقد جاء تقديرهم لاحتمال النجاح والإخفاق أقرب إلى الصحة من تقديرى فيما بينى وبين نفسى - فقد كنت فى هذا وما إليه أتوخى أن أصغى إليهم دون أن أقول شيئًا.

وما من كتاب ينشر فى مصر إلا وهو يُلتهم التهامًا فى البلاد العربية، وهم لا يكفيهم أن يقرأوا ويدرسوا، ولا يقنعوا إلا بأن يقفوا على بواعث التأليف أيضًا، ولماذا طبع فى هذه المطبعة دون تلك.. إلخ.

وفى سنة ١٩٣٠ برز لى شاب فى صحراء الحجاز - عند وادى فاطمة - وسألنى:

"ألست المازنى؟".

قلت: "نعم فكيف عرفتنى؟"

فقال: "عرفتك من صورة لك نشرتها مجلة الاثنين"

وليست هذه سوى أمثلة قليلة من مئات يسهل سردها بلا عناء.

والذى أريد أن أقوله هو إن على كل مصرى أن يذكر أن البلاد العربية مفتوحة العيون والآذان، وأن يحرص على أن لا يجرى لسانه أو قلمه، بما يسئ إلى سمعة مصر أو يغض من مقامها فى الشرق العربى.

وأنا كما يعرف القراء رجل لا أنتمى إلى حزب، وقد نأيت بنفسى عن المعترك السياسى الحزبى منذ سنوات عديدة، وليس فى نيتى أن أعود إليه ولو أفضى ذلك إلى ترك الصحافة، وإذا كانت قد ظللت متشرفًا بالعمل فى "البلاغ" فذلك لأن صاحبه تفضل فترك لى رأيى واستقلالى لثقته أنه لا مآرب لى، وأن المصريين جميعًا سواء عندى، وأنى لا أغمط أحدًا فضله، ولا أضن بالتأييد والمناصرة على من يحسن.

وقد قال لى عراقى حكيم: "يا أخى إن الله قد خلق لنا عيوننا فى وجوهنا لنرى بها ما هو أمامنا لا لنظل نردها إلى ما هو وراءنا، أفليس خيراً للبلاد العربية أن تنظر على المستقبل وتنصرف عن الماضى بخيره وشره؟".

وما أرى إلا أن كلمتى هذه ستغضب الناس جميعًا، ولكنها كلمة الحق، ولست أبالى من رضى ممن غضب، فليس همى أن يرضى الناس، ولا أنا أخشى غضبهم، فمالى عندهم مآرب، فأُحاسنهم أو أصانعهم، فإذا استجابوا لدعوة الحق، فيها ولله الحمد والمنة، وإلا فقد بلغت وبرئت ذمتى والله الموفق.

إبراهيم عبد القادر المازنى

(١)

فى مهرجان المعرى[٣١]

كنت أحلم بأيام أقضيها على ساحل بحر الروم فى سكون ودعة، وإذا بمجلس النقابة يفاجئنى، ونحن مجتمعون فى دار البصير بالإسكندرية، بندبى لتمثيله فى مهرجان المعرى، فقلت لنفسى "جاءك الموت يا تارك الصلاة!" فقد كنت أعود إلى المعرى من حين إلى حين، فأتناول من آثاره أقربها إلى يدى وأقرأ أبياتًا من اللزوميات أو سقط الزند أو سطورًا من الفصول والغايات أو رسالة الغفران ثم أطوى الكتاب وانتقل إلى سواه أو أروح أفكر فيما يشغلنى من أمور دنياى أو أترك له المكتبة كلها وأجلس إلى نافذتى أطل منها عل خلق الله، فالآن صار على أن أحشد آثاره كلها وكل ما كتب فيه الأقدمون والمحدثون وأعكف عليها عكوف الدارس لا المتصفح المتلهى، وسيستغرق ذلك وقتى كله، فما بقى على السفر إلا شهر أو نحوه، وسيصرفنى عن السعى والعمل وكسب الرزق بعرق الجبين، فإنى أعمل لأطعم، وعلى قدر العمل يكون الرزق، وليس من العدل أن يجئ المعرى بعد أن شبع موتًا وفناءً، واستراح، وإن كان لم يُرح، فيشق الأرض ويخرج لى منها ليقطع رزقى ورزق عيالى.

واستخرت الله وتوكلت عليه، وقلت لا بد بما ليس منه بد، فما كان ثم سبيل إلى الاعتذار مخافة أن يحمل على غير محمله، أو يؤول بالعجز والقصور، وإنى لعاجز ولكنه لم يبلغ من عجزى أن يعيينى أن أكتب كلمة فى هذا المعرى تقبل على التسامح.

وصارت المسألة هى "ماذا أكتب؟ وأى موضوع أتناول؟" وكنت أعلم أن أعلام

---

(٣١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (ص٣).

الأدب فى البلدان العربية مدعوون إلى هذا المهرجان، وكنت على يقين جازم أنهم لن يدعوا لى سم خياط أنفذ منه، وقد دعيت من مصر وحدها جمهرة من أعيان البيان وأمراء النثر والشعر، وأساطين البحث العلمى (أوف)، وأساتذة الفلسفة والتاريخ (يا حفيظ) مثل العقاد وطه حسين وأحمد أمين وعبدالوهاب عزام وعبدالحميد العبادى وأحمد الشايب، وماذا يصنع صعلوك مثلى بين كل هؤلاء الملوك؟ ألا حيلة لى أردهم بها عن هذا المهرجان فيخلو لى الميدان؟

وأصبحت يومًا على أحب وجه إلىّ، وإذا بالتليفون يدق، والعقاد يطلبنى وينبئنى أنه ينوى الاعتذار، وأنه مشغول بما يؤلف فلا وقت عنده للسفر، فقلت لنفسى "يا فرج الله؟ يا ... ما أكرمك يا رب!" هذا واحد بألف قد آثر القعود، فخلت لى رقعة فسيحة يسعنى فيها - والقليل يكفينى - أن أجول وأصول، وأصيح هل من منازل؟ هل من مبارز؟ وإن العقاد لقدوة صالحة، وإن المعرى لقدوة أخرى فما بارح بيته أربعين سنة وزيادة، ودرت على أهل العلم أسألهم عن "التعازيم" التى تزهد الناس فيما يراد تزهيدهم فيه، لعلى أستطيع أن أصرف "طه وشركاءه" عن السفر فاستأثر بالحلبة كلها، وخطر لى أن أحاول أن أبعث إليهم بموجة نفسية تنيمهم، على البعد، فأوحى إليهم أن يقعدوا عن السفر، وعلمت أنهم ذاهبون بالقطار، فقلت أذهب أنا بالطائرة، وعسى الله أن يعطل قطارهم أليس الله يفعل ما يريد؟ ألم تمت أمى وهى عنى راضية، ولى داعية؟ بل لقد تمنيت أن تسقط الطائرة فلا تقتلنى ولكن تكسر لى ذراعًا، فيكون لى هذا عذرًا كافيًا، ومخرجًا وسيعًا من هذا المأزق، ويتسنى لى أن أدعى أنى كنت أعددت بحثًا أى بحث! ولكن مشيئته ربى قضت أن أتخلف، ولما كان قلمى عويصًا، وخطى رديئًا، والتى الكاتبة قد سطا عليها من سطا، ولا بارك الله له فيها، فإن من العسير أن أنيب عنى أحدًا فى تلاوته.

وكان لا بد أن أبلغ المجمع العلمى العربى بدمشق عنوان بحثى، والعنوان آخر ما أكتب وأنا لم أكتب شيئًا، فقلت إن الله لم يخلق لى هذا الرأس الذى بين كتفى، عبثًا - أبعث إليهم بأى عنوان يخطر لى الآن، وأحتاط فأقول فى كتابى إليهم إنى مندوب نقابة

الصحافة المصرية، وأنه يجب من أجل هذا أن يكون لى مكان ملحوظ بين ممثلى الهيئات فى هذا المهرجان ثم أسافر على بركة الله، وأعترض على كل مكان أوضع فيه، بين الباحثين أو الآكلين أو القاعدين أو الواقفين، وأغضب، وأثور وأحتج باسم الصحافة المصرية على ما لحقها من هوان، وأقاطع المهرجان، وأذهب أتنزه على هواى، وكفى الله المؤمنين القتال ولا بحث ولا يحزنون ولا وجع دماغ.

ومن العجيب أن هذا الخاطر استولى على نفسى واستبد بها، فما تناولت القلم إلا قبيل السفر بيومين اثنين، وكنت قد شبعت من القراءة والمراجعة وأشبعت المعرى وأوسعته ذماً ونقمة، أليس هو الذى جر علىّ هذا العناء الذى كان بى عنه غنى؟ ولماذا عدت السنون التى انقضت على وفاته بالحساب القمرى؟ ولو عدت بالحساب الشمسى لبقى على تمام الألف ثلاث وثلاثون سنة؟ والله إنها لفكرة! أذهب إلى القوم وأقول لهم إن إقامة المهرجان فى هذا الآوان غلط فى غلط، وأن الشيخ عفا الله عنه يستحمقنا ويستقل عقلنا ويسخر منا فى قبره إذا كانت عظامه ما زالت باقية فيه، أو فى الجنة أو فى جهنم، فما أدرى ماذا صنع الله به، وإنه لقادر على مثل هذه السخرية، فإنه فى كتبه يعابث الملكين اللذين يحاسبان الميت ويسألهما أسئلة نحوية ولغوية.

وكان هذا كله منى عبثًا لا خير فيه ولا طائل تحته، فركبت الطائرة فلم تسقط وركب إخوانى القطار فلم يتعطل، وكان أول ما أصابنى مما يسميه الأستاذ الجليل إسعاف بك النشاشيبى "العناء فى سبيل أبى العلاء" أنى أفقدت "قداحتى" قبل أن أركب السيارة إلى المطار، وقد يستخف الناس بهذه الخسارة وإنها لخسارة هينة، وأهون بما ثمنه قروش، ولكنى أستحى أن أتقدم إلى من لا أعرف وأسأله أن يعيرنى عود ثقاب، أو أن أبدأه بأى كلام، فما العمل؟ كان العمل أنى ظللت إلى أن بلغت الفندق فى دمشق أضرب يدى فى جيبى لأخذ سيجارة، ثم أخرجها فارغة، وإنى حرمت التدخين أربع ساعات ونصف ساعة، فتأمل هذه الفاتحة!

(٢)
فى مهرجان المعرى[٣٢]

وكان المطار يعج بالخلق، ونظرت فإذا الطائرات المصرية شتى، فتقدمت إلى الميزان فتبسم الضابط – ومعذرة إذا كنت مخطئًا فإنهم هناك جميعًا يلوحون ضباطًا، ولا علم لى بدلالات هذه الأشرطة التى على الأكتاف – ولكن هذا لم يكن دورى، وعلى كثرة الناس والطائرات، وبعضها يذهب إلى فلسطين والبعض إلى بيروت، أو تونس، أو دمشق، لم تكن ثم ضجة أو زحام وكان كل شىء يجرى بنظام وفى سكون، يوزن المسافر وتوزن حقائبه فيحملها الخادم إلى "الجمرك" ويذهب المرء إلى مكتب الجوازات، ومنه إلى "الجمرك" ثم يخرج إلى حديقة صغيرة على هامش المطار حتى يدعى إلى طائرته.

وكانت طائرتنا "الفسطاط" ضخمة ذات محركات أربعة، ولم أر أظرف ولا أرق حاشية، ولا أصبح وجهًا من الطيارين اللذين يقودانها، وقد أسفت لأن الحياء منعنى أن أتحدث إليهما وأعرف اسمهما، وكان حذقهما كفاء ظرفهما، فكانت الطائرة تهبط فى كل مطار على الطريق فى موعدها لا تتقدم عنه ثانية ولا تتأخر، ولم أشعر إلا بالراحة والطمأنينة فاضطجعت ونمت، فلما نزلنا فى "اللد" أو على الأصح فى مهبط قريب من مطار اللد، قلت فى سرى "آه! ماذا ترى سيصنع بى هذا الرجل المنتفخ

(٣٢) نشرت فى البلاغ، فى ١٢ أكتوبر ١٩٤٤ (ص٢) .

الأوداج القاعد فى خيمته؟ لقد عودتنى فلسطين فى السنوات الأخيرة أن تردنى عنها، وأن تتلقانى متجهمة ولا تأذن لى فى الدخول إلا وهى كارهة متوجسة كأنى كتلة من الديناميت لا إنسان من اللحم والدم، وقد حدث مرة أن دعتنى قبيل الحرب محطة القدس اللاسلكيه وهى مصلحة حكومية، إلى إذاعة حديث منها عن الهجرة النبوية فقبلت مغتبطًا وسافرت بالطائرة، فلما وقفت أمام الموظف المختص بالجوازات رأيته يتردد وهى يختم الجواز، ويراجع اسمى، ثم يتناول كتاباً أسود ضخماً فينظر فيه ثم يدعونى أن أنتظر فى المقصف أو حيث شئت، وبعد ساعة أو أكثر يدعونى إليه ويعرب لى عن أسفه لأنه مضطر أن يأبى علىّ الدخول، وأن يعيدنى إلى مصر، ثم تفضل فأنبأنى أن الطائرة القادمة من بغداد ستصل بعد ثلث ساعة، ففى وسعى أن أستقلها إلى مصر.

فتعجبت لأن حكومته هى التى دعتنى فكيف تصدنى عن بلادها؟ وأريته عقد الإذاعة، فهز رأسه، وقال إن هذا ليس من شأنه وإنما تلقى أمراً فهو يمضيه.

قلت: "أليس هنا تليفون لأتحدث مع محطة الإذاعة وأبلغها الخبر فلست أحب أن تظن بى أنى أخلفت الوعد".

قال: "بلى، فى الرملة تليفون تستطيع أن تتحدث منه وتخاطبها.

و"الرملة" – فاعلم – على مسافة عشرة كيلو مترات!! وكان إلى جانب غرفته، غرفة أخرى فيها مكتب لشركة مصر للطيران وفيها تليفون، ولكنه آثر أن يبعث بى إلى الرملة على مسافة عشرة كيلومتراً.

واتصلت بمحطة القدس بعد لأى، فاتصلت هذه بإدارة الأمن العام فى فلسطين فعدلت عن المنع، وأذنت لى فى الدخول فأقبل موظف الجوازات مهرولاً ووجهه طافح بالبشر والسرور، ولسانه يجرى بعبارات التهنئه لى!

قلت: "يا أخى؟ إنما التهنئة لكم دونى، فما يعنينى أن أدخل أو أخرج، وإن الأمرين عندى لسيان، وقد كان الطيران إلى هنا نزهة جميلة، وأرى حفاوتك بى الآن عظيمة، وكنت قبل ذلك تنسى أن على ذراعين من غرفتك تليفونًا غير حكومى، ولأتذكر إلا التليفون الذى فى الرملة، فإذا كان لا بد من الرد أفلا يمكن أن يكون بالتى هى أحسن دون التى هى أخشن؟".

ذكرت هذا الذى اتفق لى منذ ست سنوات أو أكثر فأشفقت أن يتكرر، وضاعف هواجسى وساوسى أن موظف الجوازات الذى فى الخيمة صرفنى على أن يبعث إلىّ بالجواز فى الطائرة! ولم يكن وجهه وهو يتأملنى يبشر بخير، فانصرفت وأنا قلق ولم أستطع أن أنوق عصير الليمون الذى قدمته لنا شركة مصر بالمجان، ولكن الله سلم!

وعادت الطائرة إلى التحليق، وكنت راكبها الوحيد بعد أن غادرها الآخرون فى بورسعيد واللد، فانتفخت ووضعت رجلاً على رجل، ولكنى شعرت بالبرد وكنت أرتدى أخف ما يُرتدى فى الصيف فتجمعت ونظر إلىّ الطيار الثانى وهو يبتسم وهز رأسه كأنما يريد أن يقول إنى مسافر بطائرة خاصة، فأشرت إليه أنى مقرور، فخف إلى جزاه الله خيراً وحجب منافذ الهواء وجاءنى ببطانية فشكرته ونمت!

وهبطنا فى مطار "المزة" على مسيرة دقائق بالسيارة من دمشق فإذا أربعة حول منضدة يدور عليهم الجواز ويفحصه كل منهم ولكنى كنت مطمئنًا فإن هذه دمشق لا اللد، وسورية لا فلسطين، والأمر هنا لأهل البلاد لا لدعاة الوطن القومى[٣٣]، ولم يخبّ ظنى فلقيت من رجال الجوازات وموظفى الجمرك التيسير والحفاوة، ولم يكن معى شىء إلا ثيابى، وإلا الكلمة التى أعددتها لمهرجان المعرى، وقد أظهرتها لهم وأطلعتهم عليها فتبسموا وتركوها لى فى الحقيبة وليتهم أخذوها! إذن لوسعنى أن أعتذر بأنها معهم وأنى لا أستطيع من أجل ذلك أن ألقيها، فاتقى سواد الوجه، ولكن كل شىء كان لمكيدتى فلا مفر من الفضيحة، على ما يظهر، بين هذا الحشد من أعلام الأدب والبيان، والأمر لله.

---

(٣٣) ربما يعنى "الوطن القومى لليهود" (المحرر) .

وليست هذه أول مرة أزور فيها دمشق، فقد زرتها قبل عشر سنوات، لا أراها قد غيرت منها كثيراً، فما زالت كما عهدتها، وما انفك من عرفت من أبنائها كما كانوا - كأن السن لم ترتفع بهم، أو كأن شبابهم عليهم سرمد، حتى من كانوا شيوخًا يوم لقيتهم قديماً، ظلوا ملء العين بهاء وإشراق ديباجة فلا بد أن تكون دمشق هذه قطعة من الجنة، أليست الأنهار تجرى من تحتها، أليس أهلها منها فى جنات وعيون "لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون" "يطاف عليهم بكأس من معين" "بيضاء لذة للشاربين" وعندهم "قاصرات الطرف عين" "كأنهم بيض مكنون" آمنت بالله!

وكان أول من رأيت على باب الفندق صاحب مجلة الأحد - إيليا شاغورى - وهو صديق قديم أثير، لولا أن يكره أن أصفه بالقدم، وله العذر فإنه ناعم رفاف الشباب، والله وحده أعلم بما طوى من سنين، ولعل قلبه الكبير العطوف هو الذى يرقرق فى محياه هذا الرونق العجيب، ولكن ألم أقل إن القوم فى دمشق لا يهرمون؟

ولمحت خلفه وعلى قيد أمتار منه أستاذ العربية الجليل إسعاف بك النشاشيبى "أعلم من عرفت بلغة القرآن وأدبها وتاريخها، وأغيْر من لقيت على دين محمد والإسلام الصحيح".

فقال وهو يعانقنى: "سل إيليا، ألم نكن نذكرك قبل دقائق؟".

قلت: "صادق! اذكر القط يجيئك ينط".

وقال إيليا: "ماذا تنوى الآن؟".

قلت: "استوثق من الفوز بغرفة فى هذا الفندق الفخم، ثم آكل فإنى أتضور".

قال: "هنا؟".

قلت: "ولم لا".

قال: "أعرفك تحب الآكال الشامية، ولن تجدها هنا، فتعال معى".

وألححنا معًا على الأستاذ إسعاف حتى أسلم أمره إلى الله ففزنا به.

(٣)

فـى مهرجـان المعـرى[٣٤]

رأيت عصر ذلك اليوم الأول أن أزور المجمع العلمى، فإنه هو الذى يقيم المهرجان وهو الداعى إليه، ثم لأن لى معه قصة، فقد بعث إلى رئيسه الجليل الأستاذ محمد كرد على، قبل عـام ونصف، بكتاب تلو كتاب، ينبئنى أن المجمع اختـارنى عضـواً فيـه، فقصرت فى واجب القبول والشكر – أو هذا ما ظن القوم بى، فقد حمل إلىّ غير واحد من القادمين من دمشق عتب صديقى الأستاذ كرد على، أما الحقيقة فهى أنى ما قصرت ولا أهملت، فقد كتبت الجواب، ودسسته فى جيبى لأضعه فى صندوق البريد، فنسيته – وما أظن به إلا أنه فى بعض جيوبى إلى الآن، فإنى أغير ثيابى فيحرص أهل بيتى على أن يدعوا أوراقى حيث أتركها، فإذا كان لا بد من نقلها وضعوها لى تحت المخدات، أو فى حيث يسهل أن أراها، واكتفوا بتنبيهى فأقول لهم "طيب، طيب" وأعود إلى ما أنا مشغول به، وأنسى كل ما عداه، كالعادة، وتمضى الأيام، ويعلو الكوم الذى تحت المخدة، حتى يتعذر النوم المريح، فأضجر، وأتذمر، وأروح أنفخ، وأسخط، وأقول:

"ألا يمكن أن أجد فى هذا البيت الطويل العريض وسادة لينة؟".

فيقولون لى: "إن الذنب للأوراق التى نحشرها تحت الوسادة، لا للوسادة".

فأصيح: "وهل أنا الذى يحشرها أم أنتم الحاشرون؟ خذوها فأحرقوها أو

---

(٣٤) نشرت فى البلاغ، فى ١٤ أكتوبر ١٩٤٤ (ص٣) .

اصنعوا بها ما شئتم، فما يعنينى إلا أن أريح هذا الرأس المكدود، لكأنى والله عبد رق اشتريتموه! أتعب لتنعموا بالخفض والدعة ونضرة العيش، وكل حظى بعد الجهد والمشقة [...][٣٥] ووسادة كالحجر، فإذا شكوت قلتم هى الأوراق! سبحان الله العظيم، كأنما كان يمكن أن تعيشوا طاعمين كاسين مكفين لولا هذه الأوراق!".

وهكذا نسيت الجواب، فضاع أو أكلته النار أو لا أدرى ماذا صنع الله به، فلا بد من زيارة المجمع والاعتذار إليه.

وقال أحد الإخوان: "ولكنك لا تعرف الطريق إلى المجمع".

قلت: "بل أعرفه، فإنه من المسجد الأموى قريب".

وقال آخر: "يحسن أن نطلب لك مركبة تحملك إليه، ونتفق لك مع سائقها على الأجر سلفًا".

قلت: "لا بأس".

وجاءت المركبة، وقيل للسائق احمله إلى المجمع العلمي، وزاد أحد الواقفين فقال للحوذى: "إنه عند مسجد دجنس" - أو دنجس فقد نسيت - فهز الحوذى رأسه وقال: "تكرم"، ورضى أن يكون أجره "ليرة" سورية أى مائة قرش سورى، وهى تساوى أحد عشر قرشًا مصريًا، واضطجعت فى المركبة، فسارت بى عشر خطوات ونصف خطوة ووقفت.

فسألت: "ماذا جرى؟".

قال: "هذا جامع دجنس وهذا هو المعهد".

فخطر لى أن لعل المجمع انتقل إلى دار أخرى فترجلت وأنا أتعجب لماذا أبى إخوانى إلا أن أُحمل فى مركبة لأقطع بضع خطوات! أتراهم ظنونى كسيحًا؟ ونظرت

---

(٣٥) غير واضحة فى الأصل (المحرر).

فرأيت مسجداً، فيه "معهد شرعى".

فقلت: "يا أخانا إن هذا غير ما أبغى، هذا معهد شرعى وأنا طلبتى المجمع العلمى".

قال: "إنما قالوا لى جامع دجلس وهذا هو الجامع وفيه المعهد".

فأنقدته الليرة، وأنا أحدث نفسى أن روكفلر كان خليقًا أن يتباهى به سوء الحال فى الفقر إذا كانت كل عشر خطوات تكلفه ليرة!

واستغنيت عن المركبة وسرت على قدمى إلى سوق الحميدية، ودخلت فى حيث أعلم أن المجمع قائم، فإذا به ما زال هناك، ولكن لا أحد به غير بضعة حجارين ينحتون حجارة ويرصفون بعضها إلى بعض فى أرض الفناء!

وخفت أن استقل سيارة أو مركبة، وأنا عائد، فيتقاضانى السائق أو الحوذى فوق ما حملت معى من مصر من مال.

والحقيقة أنى لا أدرى كيف يطبق الناس هذا العيش فى الشام، ولا من أين يجيئون بالمال حتى للكفية بمجردها؟

مسحت حذائى فطلب الرجل نصف ليرة أو خمسين قرشًا - أى ما يعادل خمسة قروش مصرية ونصف قرش، فصحت به: "من تظننى؟" ولكنه أصر فلم يسعنى إلا التسليم، وعلمت فيما بعد أنه غلا واشتط، وأنه كان ينبغى أن يكتفى بنصف هذا القدر أى بنحو ثلاثة قروش مصرية، وحتى هذا ليس بالزهيد.

واحتجت إلى مناديل يباع الواحد من أمثالها فى مصر بعشرة قروش، أو نحو ذلك، فإذا الثمن هناك أربعة وأربعون قرشا مصريًا؟

وسألت بعضهم: "ما أقل مبلغ تقدمه إلى خادم كلفته عملاً؟".

قال: "قد يرضى بربع ليرة، ولكن يحسن أن تجعلها نصف ليرة".

قلت: "بل سأعمل بقول القائل: ما حك جلدك مثل ظفرك، فتول أنت جميع أمرك – على الأقل كلما تيسر ذلك ودخل فى الطوق".

وصرت أحس، كلما أخرجت محفظة نقودى أنى مليونير، فإن كل حساب لا يكون إلا بمئات القروش، وقد حاولت مساء يوم أن أحصى ما أنفقت فى نهارى فدار رأسى فقد بلغ الرقم الآلاف وأنا ما ألفت فى مصر إلا الآحاد، وكان يخيل إلىّ كلما أنفقت ليرة سورية أنى أنفقت جنيهًا مصريًا فأقول فى سرى "يا خبر أسود! سأتسول هنا بعد ساعات، فما العمل؟ ومتى ينتهى هذا المهرجان فنعود مستورين، بل متى يبدأ فيذهلنى عما أنا مسوق إليه لا محالة من العدم والصعلكة؟".

وقد سألنى بعضهم عن الحالة المعاشية فى مصر فما وسعنى إلا أن أقول له: "من رأى مصيبة غيره، هانت عليه مصيبته".

غير أنى بعد أيام ألفت ذلك فزايلنى الفزع والجزع، وأصبحت أغتبط بأن أدفع يدى فى جيبى فأخرج حزمة ضخمة من أوراق النقد وأرمى بالعشرات منها غير عابئ بها أو آسف عليها أو مشفق من عواقب الإسراف، فتالله ما أسرع ما يتكيف المرء – كما يقولون – ويأنف كل ما كان يستهوله أو يستنكره!

وخرجنا فى المساء، بعد العشاء، نتمشى، فكانت ليلة، ولكن هذه حكاية تستحق أن أفرد لها فصلا قائمًا بذاته.

(٤)

فـى مهرجـان المـعرى[٣٦]

أى نعم كانت ليلة ولا كالليالى، وخير ما فيها أنها جاءت عفوًا على حد قول الشاعر وأحسبه ابن الرومى:

لم يكن ما كان شيئًا يُعتمد بل أمورًا وافقت يوم الأحد[٣٧]

سوى أن يومنا كان الخميس - أول أيامى فى دمشق - وكنا ثلاثة أو أربعة وكان رفقائى يتغيرون كلما مضى من الليل هزيع، فيذهب قوم ويجئ قوم، حتى خيل إلىّ أنى كالزمن أو الدنيا، يتبدل الناس، وتتعاقب الأجيال، وهى كما هى.

وما كدنا نخرج من الفندق - فندق أوريان بالاس، أو خوام الجديد على الأصح - ونسير خطوات حتى وقفت أمام بناء شامخ فسألت الإخوان: "البنك السورى؟"

قالوا: "نعم".

قلت: "هنا إذن يكون سامى الشوا قد وقف وبكى وعزف وجمع عليه الخلق!".

قالوا: "وكيف كان ذلك؟".

فرويت لهم الخبر كما حدثنى به سامى نفسه، قال إنه قدم دمشق مرة فاستوقفه

(٣٦) نشرت فى البلاغ فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (ص٣).

(٣٧) هو فعلاً لابن الرومى وهو من بحر الرمل . (المحرر) .

هذا البناء الضخم، وهو من الحجر الأبيض، ولم يكن يعرف أنه البنك السورى، فظنه سجنًا، وإن كان قد استغرب أن يقام السجن فى قلب المدينة وأحدث أحيائها، ولكنه حدث نفسه أن لعل المقصود العبرة، وصوب عينه إلى البدروم - أو السرداب كما يسمونه فى العراق - وإلى نوافذه وعليها قضبان من الحديد، فرأى فتيات كثيرات حسبهن السجينات فرق لهن قلبه الكبير، وأغرورقت عيناه بالدمع، وأقبل عليهن - أو على النافذة يعرب لهن عن أسفه وعطفه وهو يشهق والدموع على خديه، وكانت الفتيات ذكيات خبيثات، فأبدين الحزن وتظاهرن بالبكاء فما كان منه إلا أن ارتد يعود إلى الفندق فحمل كمانه وعاد بها إلى النافذة وأقعى على أطراف قدميه، وراح يعزف لهن ليرفه عنهن فاجتمع عليه خلق كثير، وهو ساه لاه، لا يرى إلا هؤلاء المسكينات، ولا يعنيه إلا ما هو فيه، وأروع ما يكون عزف سامى، حين تذهله عاطفة جياشة عمن حوله، وتكاثر الناس حتى سدوا الطريق وعطلوا المرور واحتاج الأمر إلى تدخل الشرطة!

وقد ظل لا يعرف إلا أن هذا سجن للنساء، حتى اجتمع ببعض من رآهن وعزف لهن من الفتيات، فى ناد من الأندية، فأقبل عليها يسألها متى أفرجوا عنها، فاستغرب الذين كانوا معها، فضحكت الفتاة وقصت القصة واعتذرت إليه!

واستأنفنا السير- أو السرى على رأى المتحذلقين- فمررنا بمرقص أو دار لهو فيها غناء ورقص، وما أعرفنى قط عبأت شيئًا بمثل ذلك، ولكنى قرأت على لوح كبير يعترض الطريق - فوق الرءوس - اسم "نزهة العراقية" وهى فتاة رأيتها مرة فى بغداد فى أولى زياراتى للعراق، فأعجبت بها وتوسمت فيها الخير وآنست من حديثها ذكاء القلب ومروءة النفس والإخلاص، ولم تخنى فراستى، فقد سمعت عنها بعد ذلك ما زادنى إكبارًا لها، وقد أُخرجت من العراق وإن كانت تنسب إليه، لأسباب سياسية فلما صارت فى الشام لاحقها سوء الحظ أو سوء الظن بنزعاتها السياسية، فاعتقلت عامًا ونيفًا، وكان من عجب تصريف الأقدار لأمور دنيانا، أن ينجو رجال سياسيون من الاعتقال وتقع فنانة، لا ينسيها الفن، على إخلاصها له وتخليها لمطالبه، أن لها وطنًا وإن كانت لا تنزل إلى ميدان العمل.

وقلت لإخواني: "ما رأيكم؟ أني أشتهي أن أدخل وأنظر إلى نزهة، فإن لها في قلبي لنوطة، ليست من العشق والعياذ بالله منه، بل من الإعجاب، وما أظنها تذكرني لو تعرفني حين تراني، وما يدريني لعلي أنا أيضًا لا أعرفها إذا رأيتها".

فدخلنا، وكانت مقبلة من وراء المسرح، فغمزوني، وأشاروا إلى ناحيتها بلحظ العين، وإذا بها تقف وتحملق، ثم تعدو إلينا وتتناول كفي وتحيبني أجمل تحية، وطالت الوقفة فدعوتها إلى الجلوس فقالت: "نحن هنا في مكة، فلا يؤذن لنا في الجلوس مع الأخوان".

وتجهم محياها فسألتها: "ولكن لماذا؟".

قالت: "لأن الفن على ما يظهر، شيء زري محتقر".

فغيرت الموضوع وقلت: "إني مغتبط برؤيتك، وأتمنى لك كل خير، والآن إلى اللقاء إن شاء الله".

وانصرفنا ولم نتلبث، وسأعود إليها مرات أخرى فقد غمرتني بكرمها ومروءتها وطوقتني بما لا يفي به شكر.

وقال بعضهم: "ما قولك في زيارة فخري البارودي؟".

وفخري البارودي هذا أحد نواب دمشق، وصديق قديم لي، وأديب واسع الاطلاع، وله شعر يتفكه به ويعبث، وهو فوق ذلك وقبله من أظرف خلق الله، ولولا أن أظلم غيره لقلت إنه أظرف الناس قاطبة، وكنت قد سمعت قبل سفري إلى دمشق أنه يكتب بحثًا يثبت فيه أن المعري كان عالمًا بالموسيقى، فاشتقت أن أطلع عليه، وإن كنت أعرف أن أبا العلاء أحاط بكل ما كان في زمانه من علوم وفنون وآداب.

وأقلتنا سيارة إلى مكتب اتخذه في زقاق قديم، فدخلنا فإذا بستان صغير، وإذا هو متربع في حجرة كبيرة على مقعد عظيم وقيع كأنه العرش، وأمامه منضدة طويلة عليها طوائف شتى من الكتب والدفاتر والأوراق المبعثرة وحوله عدة من رجال الموسيقى

يضربون على العود والكمان، وإلى جانبيه طبلة ورق، ينقر على هذا تارة، وتلك تارة أخرى.

فسألته: "ما هذا؟".

قال: "يا سيدى هذا لحن صيغ فى أبيات للمعرى، ونحن نضبطه الآن، والعزم أن يُعزف فى مهرجانه".

قلت: "والبحث الذى سمعت به؟".

قال: "فرغت منه، ولكنى لن ألقيه لأنه لا يُلقى فى المهرجان من الأفراد – دون ممثلى الهيئات – إلا من كانوا أعضاء فِى المجمع العلمى"

قلت: "خسارة".

قال: "وأى خسارة، ولكن شو بدك من...".

وانطلق يسح بما لا يروى!

وبقينا فى سماع وسمر ليس أحلى منهما ولا أجلى للصدر أو أنفى للهم إلى الثانية صباحًا، فانصرفنا وتركناه لألحانه، يسهر فيها الليل كله حتى يتنفس الصبح.

وقلت له وهو يودعنا بالعناق والقبلات: "ألا تزل فى ضلالك القديم؟".

قال: "شو بدك تقول؟".

قلت: "تحيى كل من تلقى بالعناق والقبل، عسى أن يكون أحد الوجوه صباحًا بضًا...".

قال: "يا مازنى اتق الله!".

قلت: "اتق الله أنت يا أخى، ألا تحلق على الأقل فلا تخزنا بهذا الشوك الذى فى وجهك؟".

فكر علينا يقول: "يا عينى، يا عينى على الخدود الغضة مثل الحصير!".

فانهزمنا.

(٥)

فى مهرجان المعرى[٣٨]

كان همى، وقد بت فى دمشق، أن أرى كل ما يتسنى رؤيته فى أربعة أيام فى دمشق ذاتها، وحولها، وعلى كثب منها قبل أن يبدأ المهرجان فنُشغل به عما عداه فزرت من مصايف الشام "الزبدانى" و"بلودان" ويبلغ علوها عن سطح البحر نحو ١٦٥٠ متر، و"بقين" وفيها عين ماء من أحلى وأطيب وأنفع ما ذقت، و"شتورة" من مصايف لبنان على الحدود السورية، و"زحلة" المشهورة بمائها و"عرقها".

وكنت أخرج فى الصباح فلا أعود إلا ليلاً، ومن أجل هذا سمانى إخوانى "الزوا غ" فإذا سأل عنى سائل قالوا "زا غ" كالعادة، حتى لقد أشيع فى اليوم الثانى من أيام المهرجان أنى سافرت إلى "اللاذقية" فى أقصى الشمال من سورية فلما رأونى أعود إلى الفندق فى مساء اليوم ذاته تعجبوا لى كيف استطعت أن أقطع كل هذه المئات – وهى تقرب من الألف – من الكيلو مترات ذهاباً وإياباً فى نهار واحد، فقلت لهم مازحاً: "ألا تعلمون أن عمكم المازنى قد أصبح من أهل الخطوة؟".

على أن للإشاعة أصلاً تحور إليه، ذلك أنى بعد العشاء – فى أول أيام المهرجان – آثرت الجلوس مع الصديق الكريم العالم الجليل الأمير مصطفى الشهابى أمير اللاذقية أو محافظها – فقال لى فيما قال إنه عائد من غد، إلى اللاذقية ليعد العدة لاستقبال أعضاء المهرجان فيها، واقترح علىّ أن أصحبه وأبقى معه حتى يلحق بى إخوانى فأعود معهم.

(٣٨) نشرت فى جريدة البلاغ فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (ص٣).

وكانت التكاليف الرسمية قد ثقلت عليّ بعد نهار واحد، وليس أبغض إليّ منها، فنازعتني نفسي أن أقبل.

فقلت له: "ليس أحب إليّ من ذلك ولكن سألقي كلمتي في حلب، فما العمل؟".

قال: "نغير الترتيب فتلقيها في اللاذقية".

قلت: "إذن يحسن أن نستشير خليل بك مردم "أمين سر المجمع العلمي".

ففعلنا، فلم يوافق خليل بك، وقال إن حلب خليقة أن تثور إذا نحن فعلنا ذلك، وقد كانت تسأله عني وتستوثق قبل ذلك بدقائق واستشهد بالدكتور أسعد طلس، فأمن على قوله.

فعدلت مرغمًا، وكان المقرر أن يزور أعضاء المهرجان في صباح اليوم التالي آثار دمشق، وقد زرتها من قبل، فتخلفت عن مشاركة الإخوان في هذا الطواف وقصدت إلى "بلودان" فكان أن شاع وذاع أني سافرت إلى اللاذقية!

ويحسن بي أن أقول إن وفد مصر – حكومتها وجامعيتها – كان موضع التكريم والتبجيل، وكان أعضاؤه جديرين بكل ما لقوه من حفاوة وإجلال، ولو أن الخيار كان لي لما اخترت غيرهم، وقد كنت مزهوًا بهم فخورًا بأني منهم وهم مني، وحدث ونحن نزور في صباح اليوم الأول دار المجلس النيابي أن جلسنا على مقاعد النواب – وكان المجلس في إجازة – وكنت قريبًا من الدكتور طه حسين وليس بيننا إلا ممر ضيق هو الفاصل بين مقاعد اليسار ومقاعد اليمين، فقلت للدكتور طه: "هذا حال مقلوب كان ينبغي أن تأخذ مكاني وآخذ مكانك فإني من أهل اليسار".

ونظرت إلى الحائط المواجه لنا فرأيت ساعتين على الجانبين، فأما اليسرى فمعطلة، وأما اليمنى فدائرة تعد الدقائق وتقيد الساعات، فحدثت الدكتور طه بذلك، وقلت: "يظهر أن ساعة المعارضة معطلة هنا" وضحكنا، وفي هذه اللحظة أقبل بعضهم على الدكتور طه وانحنى عليه وأسر إليه شيئًا. فقال: "لا يا حبيبي! عليك بالمازني" والتفت إليّ وقال: "قم يا مازني واشكرهم بكلمتين".

قلت: "أنا؟ يفتح الله يا سيدى! إنى أولاً لا أحسن هذا الضرب من الكلام وإن كان فى ذاته سهلاً، ثم إن صوتى خفيض لا يصلح إلا للمناجاة، وأهم من كل ذلك أنك تمثل هنا حكومة بلادى، فحقك التقديم ولا يجوز غير ذلك".

فاقتنع ونهض، وقال خير ما يقال فى مثل هذا الموقف.

وانتقلنا من مجلس النواب إلى رياسة مجلس الوزراء، فحيانا رئيس الوزراء بالنيابة – لطفى الحفار بك – أرق تحية ورحب بنا أجمل ترحيب، فرد عليه الدكتور مهدى البصير – أحد ممثلى العراق – وإذا بمن عرفت فيما بعد أنه الشيخ عبدالقادر مبارك – من علماء الشام وأعضاء المجمع – يصيح من أحد الأركان، مرحباً مؤهلاً، ويقول فى ختام كلمته، إن من دواعى سروره أن سمى "عبدالقادر المازنى".

فمال علىّ الدكتور طه وقال: "عليك به، فقد وقعت وكان ما كان".

قلت: "بل على جدى به، فإنه سمى جدى لا سميى".

فعاد الدكتور طه يقول: "يظهر أن المفاجآت ستكون كثيرة، فما كان هذا كله فى البرنامج، فيحسن أن تعد خطبتين أو ثلاثًا".

قلت: "أما قلت لك إنك تمثل حكومة بلادى فأنت المكلف أن ترد على كل خطيب فى كل حفل وكفى الله المؤمنين – مثلى – القتال".

التقيت بالشيخ مبارك ونحن خارجون فقلت له: "يا مولانا شكراً، ولكنك سمى جدى لا سميى أنا، فإن اسمى إبراهيم وأحب أن أبشرك فاعلم أن جدى كان من المعمرين، فعاش إلى ما فوق المائة".

قال: "بشرك الله بالخيرات! إذن سأكون أنا أيضًا من المعمرين".

وهكذا نجوت من الرد على الخطب ولم تكن تلك حيلة احتلتها، وإنما كان هذا واجبى، فما يسعنى، خارج مصر، إلا أن أحرص على أن أكون على قدر المستطاع، مثالاً لما ينبغى أن يكون عليه المصرى، وإلا أن أعرف حق كل مصرى فأؤديه له، وقد

كنت مغتبطًا بما يلقاه إخوانى من التكريم والتوقير، وكلهم أهل لهذا وزيادة، وكنت فى مجالسى الخاصة أزيد القوم تعريفًا بهم وبأقدارهم لا لأنهم غير معروفين، بل لأنه كان يطيب لى أن أرطب لسانى بذكرهم، ولم استغرب حين علمت أنى إنما كنت أفعل مثل ما يفعلون فكان الدكتور طه يسأل عنى ويتفقدنى فى كل مكان، فإذا جئته قال: "خفت أن تكون زغت أو ضجرت أو ساءك أمر، خلك معى فإنى لا آمن أن تزوغ". فنضحك. وروى لى غير واحد من أهل الشام كيف كان يذكرنى بالخير الأستاذ الجليل أحمد أمين بك، وتوثقت الصلة بينى وبين الأستاذ أحمد الشايب بسرعة، ولم أكن قد رأيته من قبل وإن كنت أعرف آثار قلمه وأكبرها، أما الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ عبد الحميد العبادى فصديقان قديمان كريمان، جزاهم الله جميعًا خير الجزاء فقد رفعوا قدر مصر وأعلو شأنها.

وأنقذنى الدكتور طه بلباقته من ورطة، فقد سألنى بعضهم عن حلب ماذا رأيت فيها وكيف وجدتها؟ فقلت بلا تفكير: "لم يتسع الوقت لشىء، وما رأيت فى حلب إلا القلعة القديمة ، ومسجد الفردوس الأثرى، والسوق المسقوفة المشهورة، ثم المحافظ"، فظنوها نكتة وتناقلوها، فخفت أن تبلغ المحافظ، وهو رجل فاضل، فيسوؤه منى هذا المزح الثقيل الذى لم أقصد إليه، فما كان من الدكتور طه حين بلغه ذلك إلا أن صدهم عن اللغط بهذه الكلمة، وأولها أحسن تأويل فاقتنعوا وأمسكوا.

وما أكثر ما أقال إخوانى المصريون من عثراتى وأصلحوا ما أُفسد بحماقاتى.

(٦)

فـى مهرجـان المعـرى[٣٩]

كان الاحتفال الذى أقامه المجمع العلمى العربى فى البلاد السورية بالذكرى الألفيه لمولد المعرى - بالحساب القمرى - "مهرجانًا" ولم يكن مؤتمرًا أدبيًا، وكان الذى خطر له ذلك واقترحه أمين سر المجمع خليل بك مردم الشاعر المشهور، وكان فخامة الرئيس السيد شكرى القوتلى هو الذى يسر الأمر كله وأقنع الحكومة السورية بأن تمد المجمع بما يحتاج إليه من النفقة، حتى لقد أعلن أنه مستعد أن يتحمل هو تكاليف المهرجان إذا لم تستطع الحكومة تدبير المال اللازم، وكان من حسن الاتفاق أن اجتمعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى بالإسكندرية فى نفس اليوم الذى بدأ فيه المهرجان، فلهجت الألسنة بذلك، وعد هذا الاتفاق من البشائر المؤذنة بالتوفيق، وصار مدعاة "لمظاهر عربية" بل لقد سمعت بعضهم يقول لصاحبه فى الطريق ونحن منصرفون من مقبرة المعرى: إن هذا من "كرامات أبى العلاء!!".

رحم الله الشيخ، كان لا يعدم من سلكه مع الزنادقة والملاحدة والكافرين فأصبح لا يعدم من يسلكه مع أولياء الله الصالحين!

وكان قبره مهملاً، وعظامه ليست فيه - بليت أو نبشت، من يدرى؟ فإن ألف عام حقبة مديدة من الزمن - فالآن جُدد قبره، وسور المكان وزُرعت الأرض وغُرس فيها الشجر، واجتمع عليه أربعة وأربعون من أدباء العالم العربى وشعرائه وعلمائه يقولون

---

(٣٩) نشرت فى البلاغ، فى ١٩ أكتوبر ١٩٤٤ (ص٣).

فيه ويبدئون ويعيدون! وجعل له دفتر تدون فيه أسماء زوار الضريح، وقد استكتبونى كلمة فى هذا الدفتر، كما استكتبوا سواى، فكتبت ما معناه أن أبا العلاء لو كان دارياً لما رضى عن زيارتى لقبره، ولكنه لا حيلة لى فيما لعله كان خليقاً أن يكره، فإن يك هذا يسوءه فإنى أرجو أن يكون شفيعى أنه - كما يقول:

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى، فهل لى، بعدُ تخيير ؟[٤٠]

ولو اتسع المقام لزدت أنى ما زرت قبراً قط مذ رشدت.

وحدثونى، وأنا بالمعرة، أن مستشرقاً سأل بعض أهلها عن قبر أبى العلاء، فنادى الرجل صبياً وقال له: "انطلق بهذا الكافر إلى قبر الزنديق!".

ووجدت من عامة أهل المعرة من يسمى الشيخ "أبا على"!.

وقد تبينا من الحفلة الافتتاحية، أن إلقاء ما أعددنا من بحوث سيكون مشكلاً عويصاً، فإن هذا، كما أسلفت، مهرجان لا مؤتمر، والوقت المحدد لكل قائل، نصف ساعة ليس إلا، والجمهور يطلب الكلام المؤثر وكنت قد شاورت إخوانى قبل ذلك فأشار الدكتور طه بأن تلقى خلاصات لما أعددنا، وأن ندفع بالبحوث المطولة إلى المجمع للنشر فى أوانه، وقد فعل هو ذلك، وفعله أيضاً أحمد أمين بك والأستاذ أحمد الشايب والدكتور عزام، أما أنا فاقبلت على كلمتى أحذف منها واختصر فما أجدانى هذا شيئاً.

وخطر لى أن لعله كان الأوفق أن يكتفى بحفلة الافتتاح وحفلة الختام، فيحضرهما الجمهور، ويصفق فيهما لما يسمع على هواه، وتعقد فيما بينهما جلسات فى الصباح والمساء لإلقاء البحوث المطولة على الراغبين فى الاستفادة من طلاب الأدب والعلم، غير أنى تبينت فى أثناء المهرجان أن هذا مستحيل فإن لكل مدينة كبيرة من مدن الشام شخصيتها الخاصة وهى حريصة عليها، ضنينة بها والتنافس بينها قائم، فلا معدى

---

(٤٠) من البسيط (المحرر) .

عن إقامة حفلات بها كالتى تقام بدمشق وإلا غضبت، وقد فكرت فى هذا وعلته. فلما قمنا برحلتنا الطويلة إلى حمص وحماه وحلب واللاذقية رأيت أن المدن متباعدة، وأن الجبال والسهوب تفصلها، والعمران غير متصل بينها، فلا غرابة إذا أحست كل مدينة كبيرة أنها قائمة بذاتها، وأن لها شخصيتها الخاصة التى تتميز بها وتنفرد على خلاف الحال فى مصر، فإن اتصال العمران بين المدن ينفى الإحساس بالاستفراد وتميز الشخصية، ويجعل حياة كل بلد متسربة فى حياة البلد الآخر، أما فى الشام فحلب مثلاً هى حلب، ودمشق هى دمشق، ولكل منهما خصائصها، وهذا التميز ملحوظ حتى فى تأليف الوزارات أحياناً، مثال ذلك أن رئيس الجمهورية دمشقى، وسعدالله الجابرى بك الذى استقال من رئاسة الوزارة منذ بضعة أيام حلبى، وليس هذا بمطرد فى كل حال، ولكنى أراه يراعى أحياناً كما قلت.

وقد تعجب بعض الإخوان الذين لا يعرفون الديار الشامية لديمقراطية القوم وأدهشهم وراعهم انتفاء التكاليف الرسمية وإيثار البساطة، وقلة الاحتفال بمناصب الحكم أو الاغترار بما يصاحبها من جاه وسلطان وأبهة، فإنك تدخل على الوزير كما تدخل على الموظف الصغير، ولا تحتاج إلى أكثر من الاستئذان الواجب حتى بين الأصدقاء، فإذا انتهى العمل رأيت الوزير الكبير والرجل الصغير - موظفاً كان أو غير موظف - يجلسان ويتسامران كأنهما ندان.

ولا عجب فى هذا فإنه روح الشرق العربى كله، لا فرق بين العراق والشام ولبنان وفلسطين والحجاز ونجد واليمن، بل هى روح الإسلام الذى يجعل أكرم الناس عند الله أتقاهم، وقد عجز الحكم التركى الطويل عن مسخ هذه الروح وتشويهها.

وروح الشام جمهورية بحت، فهى تسمح بالتحرر من كثير من القيود الرسمية وبإرسال النفس على السجية، غير أن هذا لا يغرى بسوء الأدب أو قلة الذوق، وليس أحسن أدباً ولا أرق حاشية، ولا أحرص على المروءة من أبناء العربية فى هذه الديار عامة وفى الشام خاصة. وقد يبلغ الخلاف والتنافس بينهم أشد مبلغ، فلا يورث التقاطع والتدابر، ولا يمنع حسن المواطنة وجمال المعاشرة، ويقسو بعضهم على بعض

فى النقد، ومع ذلك يأنس بعضهم ببعض ويتلاقون ويتفكهون كأنما الذى بينهم هو الود الصريح والحب المحض وأحسب أن ذلك إنما كذلك لأنهم يدركون إدراكًا صحيحًا ما بين الواجب والحق من صلة، فلا ينكرون الحق على صاحبه وهم يتقاضونه واجبه، ولا يغلون نشدان الحقوق ويهملون الواجب، ومن هنا على ما أظن اعتدل الميزان واستقام الأمر.

وسرعان ما يتبين المرء أن أهل الشام أكثر توفراً على درس الأدب العربى والتاريخ العربى من غيرهم من أبناء العربية، وما لقيت شاباً هناك إلا وجدته واسع الاطلاع على الأدب والتاريخ، ولعل اطلاعهم على الآداب الغربية أقل وأضيق نطاقًا، وعسى أن يكون المصريون من أجل ذلك أرحب أفقًا وأصح إدراكًا لحقيقة معنى الأدب، ولكنه لا شك فى أن شبانهم أكثر من شباننا إحاطة بكنوز العربية وعناية بها، والعربية هى لغتنا، فلا مهرب من هذه العناية، وتلك مزية جلية لأبناء الشام.

وقد تجد شباننا متعجلين يعالجون الشعر بغير آلة، فلا يلقون تشجيعًا، ولا يسعهم إلا أن يقصروا ويفيقوا من حلم الشباب الذى أوهمتهم حيويته الدافقة إنهم يقدرون على كل شىء، بآلة أو بغير آلة.

(٧)

فــى مهرجـان المعـرى[٤١]

بدأ "العناء" فى سبيل أبى العلاء على حد قول الأستاذ الجليل إسعاف النشاشيبى من أول يوم من أيام المهرجان، فقد دعونا فى ظهر ذلك اليوم إلى موائد مثقلة بألوان شتى من الطعام كانت تلوح لنا من بعيد شهية، فنتلمظ ونتمطق قبل الأوان فلما قالوا "تفضلوا" ذهبنا نعدو، وإذا بواحد يشدنى من ذراعى ويقول:

"هل تعرف أن هذه أكلة علائية؟".

قلت: "ماذا تعنى؟".

قال: "كل ما تراه مطبوخ بالزيت – حتى الحلوى – ولا لحم من أى نوع".

قلت: "أعوذ بالله!".

فسأل: "والعمل؟ الزيت لا يوافقنى".

قلت: "وهبه كان يوافقك، فأين المعدة التى تحتمل أن تكتظ بهذه العشرات من الألوان المطبوخة بالزيت؟ لا يا سيدى يفتح الله! تعال نؤلف حزب معارضة، بل ثورة".

وقد كان – وصار حزب المعارضة قوامه الأساتذة إسعاف النشاشيبى وطه الراوى وأحمد الشايب والعبد لله، واحتللنا طرف مائدة ودعونا عمال الفندق وأمرناهم بلهجة حازمة أن يجيئونا بطعام آخر سائغ ولغط القوم بثورتنا الموافقة، وحسدونا

(٤١) نشرت فى البلاغ، فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (ص٣).

وزعموا أنها فكاهة ظريفة، وتظاهروا بأنهم لا يبالون بما يحشون به بطونهم من نار، وبعث لى، الأمير مصطفى الشهابى يقول إن هناك إشاعة بأنى "سأرقصهم" بخطبة على هذا الطعام، فكتبت إليه، أقول إنهم سيحتاجون حقًا إلى من يرقصهم طويلاً بعد هذه الأكلة الشنيعة، وأكبر ظنى أنهم سيغدون بعدها فى عداد الموتى، ويؤسفنى أن الله لم يؤاتنى القدرة على إحياء الموتى.

واعتمت إذا دعيت إلى الكلام بكرهى أن أشكر طاهى الفندق الذى جاد علينا ببعض ما عنده، وأنقذنا من هذا الهلاك، وأن أبرئ المعرى المسكين مما توهم هذه الوليمة التى كانت ألوانها تعد بالعشرات، ولو كان يأكل كما أكلوا لمات بالتخمة، غير أنى لم احتج إلى كلام ما، لأنى بعد أن أصبت الكفاية، زغت كالعادة.

وكانت هذه الأكلة بداية المتاعب، فقد حملونا فى صباح اليوم الثالث فى سيارات، وضعوا كل أربعة منا فى واحدة منها، فانطلقنا ننهب الأرض ونقطع ١٢٥٠ كيلو متر فى ثلاثة أيام! وكنا ننام بعد نصف الليل ونستيقظ فى بكرة الصباح مع العصافير، ولا نستريح فى النهار لأنا لا نكون فيه إلا على سفر، أو على طعام.

وكان من حسن حظى أن كان رفقائى فى السيارة الأستاذ ساطع بك الحصرى مدير التعليم فى سورية الآن، وكان على عهد المرحوم الملك فيصل فى سوريا وزيراً فلما دخل الفرنسيون بعد معركة مسيلون خرج هو، وانتهى به المطاف إلى العراق فتولى أمر التعليم هناك وأشرف على الآثار أيضًا، ثم أُخرج من العراق مع من أُخرجوا من السوريين قبيل هذه الحرب فعاد إلى سوريا، وعكف على التأليف فأخرج كتابه الضخم فى ابن خلدون، وثنى بمجموعة نفيسة من المقالات، وهو رجل واسع الاطلاع، كبير العقل، مستقيم النظر، ساحر الحديث.

والأستاذ العالم الجليل الشيخ عبد القادر المغربى، عضو المجمع العلمى بدمشق، ومجمع فؤاد الأول للغة العربية بمصر، والمصريون يعرفونه لأنه أقام بمصر زمنًا قبل الحرب الماضية وكان يكتب فصولاً اجتماعية فى المؤيد ينحو فيها منحى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ومن غريب ما حدثنى به الأستاذ المغربى فى هذه الرحلة، أنه

زارنى مرة فى البلاغ ثم انقطع عن زيارتى لأنه قرأ لى فصلاً أشكو فيه من كثرة الزوار؛ فحسب أنى أعرض به وأشير إليه، فأقصر! فاستعذت بالله من هذا الخاطر.

والأستاذ العالم الأديب عز الدين آل علم الدين التنوخى، من أعضاء المجمع العلمى أيضًا، وهو فوق ذلك محدث ظريف، وشاعر لبق، يستطيع أن يرتجل البيت والبيتين فى المعانى القريبة يمازح بها إخوانه، وقد قال بيتين يمدحنى بهما ونحن نتصعد ونتصوب فى الجبال والأودية، أو ردهما على سبيل التسلية:

يحل ما أعضل من أمرنا — بعقله الراجح والوازن

ذاك الذى أعنيه رب الحجى — إبراهيم عبد القادر المازن

فقلت له: "يا أخى وقاك الله السوء والمسخ والتشويه! ماذا فعلت باسمى عفا الله عنك؟ أنا أحذف الألف التى بعد الراء لأنى أحس أنها تفقأ عينى حين أراها، فتجئ أنت فتثبتها وتحذف الألف الأولى!؟ سبحان الله العظيم!".

قال: "ضرورات الشعر".

قلت: "اكفنا شر ها الشعر".

وكان ظن إخوانى أنى غير سعيد بهذه الرفقه، ولكنى كنت على خلاف ما توهموا راضيًا مغتبطًا، ولو خُيرت لما اخترت غير هؤلاء السادة الأجلاء، فإن فيهم من البساطة وخفة الروح وصدق السريرة وسجاحة النفس ما يحببهم إلى كل قلب، وسرعان ما صار كل منا لصاحبه مألفة، فكنا إذا هممنا باستئناف السفر، يبحث كل واحد منا عن أصحابه وينتظرهم ولا يركب حتى يركبوا، وكان حديثنا ذا شجون كثيرة، بعضه جد ومعظمه مزح، وكان الأستاذ عز الدين لا يزال يستطرد من كل موضوع إلى ذكر الدروز – وهو منهم – ودينهم وعاداتهم وصفاتهم ومزاياهم وشعرهم فكنا نركبه بالفكاهة من أجل ذلك فصبر على هزلنا أحسن الصبر وأجمله، حتى يخجلنا بسعة صدره، وحلمه، فنرتد إلى الرفق والمساناة.

ولما صرنا إلى المعرة دعانا الحراكى بك إلى العشاء، وكانت الموائد موقرة بأكثر مما نطيق حمله، وبما لا يطمع أشره أكول مبطان أن يلتهم أقله، ولما أديرت علينا الفاكهة رأينا تينًا أخضر الواحدة منه فى حجم البرتقالة الكبيرة وطعمه أحلى من العسل، فقال الأستاذ إسعاف النشاشيبى: "آه! الآن وقفنا على سر المعرى، وعرفنا لماذا قنع بالتين! فإن ثلاث تينات من هذه وجبة كاملة ولا حاجة بأحد بعدها إلى طعام آخر".

وخرجنا من المعرة فى نحو الساعة العاشرة مساءً، فبلغنا حلب عند منتصف الليل، فأوينا إلى مخادعنا على الفور، فأصبحنا فخرجنا للفرجة، ثم دعانى إخوانى رجال الصحافة فى حلب إلى الغداء معهم، فزغت من المأدبة الرسمية، وذهبت معهم، وقضينا ساعات فى نادٍ هناك، كانت من أطيب ما مر بى فى هذه الرحلة وأحلاه، وخرجنا من هناك إلى مساحة مدرسة التجهيز، كما تسمى على ما أذكر، وكان علىّ أن ألقى كلمتى فيها فذعرت حين رأيت سعة الساحة فطمأنونى وقالوا إنهم نصبوا مكبرًا للصوت، ودعونى، أول من دعوا، إلى الكلام، فإذا مكبر الصوت لا يكبر شيئًا لأن به خللا، فلما ملت الصياح وبح صوتى، قلت لا فائدة من الاستمرار فما أظن أحدًا يسمعنى، ونزلت عن المنصة وبعد دقيقة أو نحوها قالوا - أو زعموا - أن الخلل أُصلح، فعدت إلى الكلام وفى ظنى أنهم ما قالوا إلا الحق، فلما فرغت، علمت أنى إنما كنت أحدث نفسى!

ومن الغريب أن مكبر الصوت صلح حاله واستقام أمره إلى آخر الحفلة! فتذكرت مثلنا العامى "اللى مالوش بخت يلاقى العظم فى الكرشة!".

(٨)

فى مهرجان المعرى

كيف رُددت عن فلسطين[٤٢]

كان العزم أن أرجئ حكاية منعى من دخول فلسطين إلى أوانها، ولكن جريدة المقطم الغراء – جزاها الله خيراً – تفضلت بكلمة طيبة مشكورة فى الموضوع أعربت فيها عن كريم عطفها علىّ واستنكارها لما وقع لى، فوجب أن أبسط الأمر للقراء فإن فيه لعبرة.

كانت محطة الشرق الأدنى ممثلة فى المهرجان، فخاطبنى مندوبها الفاضل فى أن أذهب إلى يافا وأذيع حديثًا أدبيًا أو حديثين، فترددت لأنى كنت معتزمًا أن أعود بالطائرة فى يوم الخميس الخامس من أكتوبر، ولكنه أقنعنى وقال إن فى وسعى أن أسجل الأحاديث فى يافا وأستقل الطائرة من اللد، فاتفقنا على أن أسافر إلى فلسطين فى الثانى من أكتوبر واتفق على مثل ذلك مع زملائى الأساتذة الأجلاء أحمد أمين بك والدكتور عبدالوهاب عزام وعبدالحميد العبادى وأحمد الشايب والدكتور أسعد طلس، غير أن موعد السفر تأخر إلى يوم الأربعاء لرغبة الأستاذ أحمد أمين بك فى الاستراحة يومين بعد المهرجان.

وخرجنا جميعًا من دمشق ضحى الأربعاء فى سيارتين، إلى القنيطرة ومنها إلى

(٤٢) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (ص٣).

الحدود بين الشام وفلسطين عند نقطة تسمى "جسر بنات يعقوب" وقد دفع إلينا الأستاذ حمدى بابيل قبل سفرنا كتاب توصية من الكولونيل مارساك إلى ضباط الحدود يعرفهم بنا، ويذكر أننا ذاهبون إلى يافا ضيوفًا على محطة الشرق الأدنى لإذاعة أحاديث أدبية منها.

وخرجنا من سورية وبلغنا نقطة البوليس على حدود فلسطين، فخرج لنا ضابط إنجليزى دفعنا إليه الجوازات وأبرزت له كتاب التوصية فقرأه وابتسم وأعاده إلىّ وقال:

"خله معك فقد ينفعكم".

وختم الجوازات بإذن الدخول بعد أن دعانى إليه وألقى علىّ بضع أسئلة – لأنى صحفى، والصحفيون على ما يظهر غير مرغوب فيهم، ولكنه لم يثقل واكتفى بالأسئلة وأجوبتها، ثم ودعنا بلطف وتمنى لنا رحلة سعيدة، فانطلقنا حتى بلغنا نقطة الجمارك، وفيها مكتب لرجال الأمن العام فأبرزت كتاب التوصية مرة أخرى للضابط فأخذه مع الجوازات وارتد إلى غرفته، وبعد دقائق أعيدت جوازات زملائى إليهم، ودعيت أنا إلى مكتب هذا الضابط، فضحكنا، وقلت:

"هذه آفة الصحافة!".

وجلست أمام الضابط فسألنى عن مسقط رأسى، وعن أبى وأمى، فقلت له مازحًا:

"إنى الآن كآدم، لا أب لى ولا أم، فقد ماتا رحمهما الله".

ونظر فى كتاب التوصية ثم فى الجواز ثم قال:

"إن اسمك فى كتاب التوصية "عبدالقادر المازنى" وفى الجواز "إبرهيم...".

فأدركت أنه يلتمس حجة يردنى بها فقلت له:

"يا سيدى، إنى غير مسئول عن كتاب التوصية ومعظم الناس يختصرون الأمر،

ويهملون اسمى الأول، على أنك تستطيع أن ترمى كتاب التوصية فى السلة أو تهمله، وتمسك الجواز وفيه اسمى كاملاً، وصورتى، وهذا وجهى أمامك".

فانتقل من ذلك إلى مناقشتى فى هجاء اسم "المازنى" بالإنجليزية فى الجواز فأدركت أنه ليس بإنجليزى وإن كان يجيد الإنجليزية وبينت له أنه مكتوب كما ينطقه الناس عادة.

ثم قلت له: "اسمع من فضلك، إنه يستوى عندى أن تأذن لى فى الدخول أو تمنعنى منه، ولكن رجائى إليك أن لا تطيل وتضيع الوقت، فإن إخوانى لا يستطيعون أن يستأنفوا السفر إلا إذا عرفوا مصيرى، فلا تجعلنى سبباً فى إتعابهم".

فقال: "إنها مسألة دقائق ليس إلا".

فانصرفت، ولكن الدقائق صارت ساعتين أو زيادة وكنا نجلس فى السيارات تارة، ونتمشى تارة أخرى ولا راحة فى الحالين، وقلت لإخوانى:

"إن أكبر ظنى أنى مردود عن فلسطين".

فقال الأستاذ أحمد أمين بك: "إذن لا إذاعة، ونسافر إلى مصر دون أن نعرج على محطة يافا".

فوافقه بقية الإخوان وقال الدكتور طلس: "وأعود أنا معك إلى الشام".

فحاولت أن أثنيهم عن الإضراب عن الإذاعة أو أثنى الدكتور طلس عن الأوبة معى فأبوا كل الإباء، واتفقنا على اقتسام السيارتين، فيأخذ إخوانى واحدة، وأعود أنا مع الدكتور طلس بالأخرى.

وأخيراً خرج علينا الضابط وقال لى إنه شديد الأسف، وإن القدس أبت أن تأذن لى فى دخول فلسطين، وأنه يأسف مرة أخرى لأنه ليس عنده ما يركبنيه فى عودتى إلى الشام!!

فطمأنته وقلت له: "لا تخف علىّ، ولا تحزن، فإن معى سيارة".

فاطمأن وأظهر السرور، وأراد أن يلقى على أسئلة أخرى فقلت له:

"أما بعد رفض الدخول فلا سؤال ولا جواب، وما شأنك بى وقد رددتنى عن البلاد؟".

وهكذا رجعت مع الصديق الكريم الدكتور أسعد طلس.

ولما بلغنا نقطة الحدود الأولى استغرب الضابط الإنجليزى لأنه كان قد أذن لى فى الدخول، وسألنى مازحًا: "أتراك ارتكبت جريمة؟".

قلت: "ليتنى فعلت. إذن لعرفت السبب!".

وصار الأمر مشكلاً، لأن تأشيرة الدخول فى سورية انتهت بخروجى منها غير أن موظفى الحدود السورية كانوا من أظرف خلق الله وأرقهم، فأعربوا عن عطفهم وأسفهم، وألغوا "تأشيرة" الخروج، وأرادوا أن يحتفوا بنا ويكرمونا فاعتذرنا بضيق الوقت وبُعد الشقة، واستأنفنا السير فدخلنا دمشق فى منتصف الساعة التاسعة ليلاً، فإذا أمامى مشكل آخر: هو أن الفنادق كلها غصت بالنواب الذين جاءوا من أرجاء الشام لحضور جلسة البرلمان فى صباح اليوم التالى، فأين أبيت؟ وعلم الأستاذ الجليل إسعاف بك بهذا المشكل، فهمس فى أذنى أن بغرفته سريراً ثانيًا لا ينام عليه أحد، وأن هذا يحل الإشكال إلى الغد، فهممت بالاعتذار لأنى أعلم أن الأستاذ إسعاف لا يطيق أن ينام معه فى غرفته مخلوق فكيف أنغض عليه رقاده؟ وأنا مثله أؤثر النوم وحدى، ولكنه لم يكن لى مفر من قبول ما تفضل به مشكوراً.

وتشهدت، وقلت آكل لقمة، فما طعمنا فى نهارنا شيئًا يذكر، وإذا بخادم الفندق يسألنى عن حقيبتى أين هى ليحملها إلى حجرة إسعاف بك، فأخبرته أنها فى السيارة، ولكن السائق كان قد ذهب بالسيارة – لا أدرى إلى أين – ونسى أن يترك لى أشيائى! ولا أحتاج أن أقول إنّا وجدناه وإنه رد الحقيبة معتذراً من سهوه.

وفى صباح اليوم التالى – الخميس – علمت أن المشكل أعقد مما كنت أظن، فقد كنت واثقًا أنى أستطيع العودة إلى مصر بالطائرة، وكل ما أحتاج إليه هو الانتظار

حتى أجد مكانًا فى طائرة عائدة، ولكن الدكتور طلس زار القنصليه ومعه جوازى ليسأل هل به حاجة إلى "تأشيرة" جديدة؟ فكان الجواب المزعج أنى ممنوع من اجتياز فلسطين براً وجواً لأن الأمن العام فى فلسطين هو الذى منه دخولى!! فكيف أعود؟ أقطع البحر الأبيض سباحة؟ وخطر لى أن الحل الوحيد - إذا أخفقت المساعى الكثيرة التى بذلتها الحكومة السورية - هو أن أذهب إلى العراق ومن ثم إلى نجد فالحجاز فمصر، فأعود على الأرجح مع الحجاج!

وقد كان القنصل الإنجليزى كريمًا غاية الكرم، فأرسل برقية إلى القدس وأردفها برسالة مستعجلة ولكنه لم يتلق جوابًا قط، وكان كل امرئ فى دمشق معنيًا بى، وبتهوين الأمر علىّ، وسرنى على الخصوص قول فخامة الرئيس حفظه الله إنه "سيكلف الحكومة أن تكتب رسمياً إلى حكومة فلسطين تشكر لها أنها ردت المازنى إلى الشام!".

وهمت صحافة دمشق بحملة على حكومة فلسطين، فرجوت منها أن تتريث حتى نرى نتيجة المساعى المبذولة من جانب الحكومة السورية وجانب القنصل البريطانى.

وحاولت الاتصال بمصر مراراً فلم أفلح، وبعثت ببرقيات شتى إلى البلاغ وإلى بيتى بتوقيع الدكتور أسعد طلس وغيره من السوريين فلم يصل منها شىء إلى اليوم، ولم أبعثها باسمى لأن جوازى كان فى القنصلية البريطانية والبرقيات لا تُقبل من الغريب إلا إذا أبرز مرسلها جوازه كما تقضى بذلك الأوامر العسكرية.

وكنت قد مرضت فلزمت غرفتى فتفضل الكولونيل مارساك وزارنى وأنبأنى أنه مسافر إلى مصر صباح السبت على طائرة إنجليزية لا تنزل فى فلسطين وتمنى أن تسمح لى صحتى بالسفر معه، وسألنى عما يستطيع أن يفعله لى فى مصر، فأكدت له أنى أستطيع السفر الآن على الرغم من المرض، ورجوت منه إذا تعذر سفرى أن يتصل بجريدة البلاغ ويخبرها الخبر.

وكان يجس يدى كل بضع دقائق، فأحسست أنه يفعل ذلك لأمر يكتمه، ولم يكذب ظنى، ففى صباح اليوم التالى زالت عنى الحمى، فارتديت ثيابى وإذا بى أُدعى إلى مكتب شركة الطيران البريطانية وهناك علمت أن مكانًا حُجز لى بفضل القنصل البريطانى والكولونيل مارساك على طائرة إنجليزية قادمة من طهران وذاهبة إلى مصر دون توقف فى فلسطين، وهكذا عدت فجأة، وعلى غير انتظار بعد أن كاد عزمى يستقر على السفر إلى بغداد فنجد فالحجاز.

(٩)

فـى مهرجـان المـعـرى(٤٣)

نوينا بعد انفضاض المهرجان أن نقضى نهاراً فى شتورة وليلة فى زحلة، وكان الدكتور بشر فارس لا يزال يلح على أن أزوره فى شتوره وأقضى معه بضعة أيام، فما استطعت أن أختلس أكثر من بضع ساعات من نهار قبل أن يبدأ المهرجان فلما انتهى قلنا نلبى دعوته وننعم بكرمه وأريحيته النهار كله، والمثل يقول "العبد فى التفكير والرب فى التدبير" وهو مثل أنقله عما أريد به لأقول إننا ركبنا السيارات فى الصباح، وانطلقنا على طريق شتوره – وهى من أعمال لبنان – فلما قطعنا نحو ثلاثين كيلو متراً انعطفت السيارات فدخلت بنا فى طريق فى الجبل فسألت صاحب السيارة عن الداعى إلى هذا الميل، فقال إنك مدعو إلى الغداء عند السيد عبدالحميد دياب من التجار وأعيان بقين، وما كنت رأيت فلاناً هذا إلا مرة واحدة فألح أن نتغدى معه فاعتذرنا بأنّا على موعد، لم يخل سبيلنا إلا بمشقة، ثم أبى له كرمه إلا أن يولم لنا فكان أن حملونى إليه وأنا لا أدرى، وإنما ذكرت هذا ليقف القراء على مثال من كرم القوم، ولا بأس من مثل آخر أسوقه، فقد خرجت مرة أتعشى وحدى فى مطعم سورى، فلما دعوت الخادم لأحاسبه، قال "مدفوع يا سيدى" وأعيانى أن أعرف من الذى تفضل فأدى عنى الحساب.

وفى شتورة وجدنا الدكتور بشر قد أعد لنا "الشاى" ودعا إليه معنا طائفة متخيرة من كرام اللبنانيين، وكل "شاى" ككل شاى، فلا حاجة إلى كلام فيه، غير أن الدكتور

---

(٤٣) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (ص ٣) .

بشر يأبى إلا أن يبتكر، أو ليس من الجديد فى حفلات الشاى أن يكون فيها "فول مدمس" وقد أنضجه الدكتور بشر بيديه الكريمتين زيادة فى العناية والتحفى،

وخرجنا إلى "زحلة" وهى أشهر بلاد لبنان "بالعرقى" المشهور، فجلسنا فى مقهى فسيح على نهر البردون، وكان مضيفنا هناك الشاعر المشهور الأستاذ عمر أبو ريشه، وكانت قصيدته فى مهرجان المعرى من خير ما سمعت من الشعر، وقد آنست من قصيدته نزعة صوفية، فسألته عن ذلك وكنا فى حلب على ما أذكر - فقال: "إن ظنى فى محله".

وكان من خير ما أكلنا فى ليلتنا تلك على النهر "العصافير" وهى سمينة، يقلونها أو يصنعون بها ما لا أدرى، ويدسونها فى قلب الرغيف حتى لا تبرد، ثم تؤكل بعظمها.

وكان معظم من معنا لبنانيين وكنا نستطرد فى الحديث من موضوع إلى موضوع فتناولنا كل شىء جادين وهازلين، فأحسست بعد هذه الجلسة وأمثالها مع إخواننا اللبنانيين أنهم قلقون يرغبون فى إيجاد رابطة بين بلادهم والبلاد العربية الأخرى، ولكنهم يحبون أن يحتفظوا باستقلالهم وحدودهم الحالية أدق احتفاظ، ويخشون أن تؤدى المشاورات العربية إلى ما يمكن أن يتحيف من استقلالهم، أو يرد حدودهم عما دخل فيها، ومن أجل هذا أرضاهم وسرهم أن الذين اشتركوا فى مباحثات اللجنة التحضيرية آثروا أن يسموا ما اتفقوا عليه "جماعة" من "الدول" العربية، لأن كلمة "الدول" تفيد معنى الاستقلال، وكلمة "الجماعة" تقصى فكرة "الوحدة" التى يخشون أن يكون المقصود بها آخر الأمر إدماج بعض البلاد فى بعض وما أظن بهم إلا أنهم قد سرهم على الخصوص النص الذى انفرد به لبنان تأكيداً لاحترام استقلاله وحدوده.

وقد يحب القارئ أن يقف على السر فى كل هذا الحرص على النص على احترام الحدود الحالية، والسر فيما أعلم هو أن لبنان ألحقت به فى عهد الانتداب الفرنسى بلدان كانت فى الأصل داخلة فى سوريا مثل بعلبك وطرابلس وصيدا .. إلخ، فلبنان يجب أن يبقى له ما أضيف إليه وألحق به، ولم تر سورية بأساً من هذا فاعترفت بالحدود القائمة.

أما فيما عدا ذلك فالأمر بين سوريا ولبنان يجرى كأنهما بلد واحد، فلا جوازات سفر بين القطرين، ولا عملة منفصلة وأمر الجمارك مشترك، والتعاون قائم على خير وجه، ولا فرق بين لبنانى وسورى، فمعظم موظفى البنك السورى اللبنانى وموظفاته فى دمشق وغيرها من بلاد سورية من اللبنانيين واللبنانيات، وكثير من البنى التى فى بيروت يملكها سوريون، وأهل سورية يصطافون فى جبال لبنان الجميلة، وإن كانوا قد بدأوا يعنون بمصايفهم الخاصة، وقمح سورية وسمنها تمد بهما لبنان، كما يمد لبنان سورية بما فيه من فاكهة وزيت وعرق إلى آخر ذلك.

وقد كنت وأنا فى الشام أتوقع أن تنتهى المشاورات بما يزيل مخاوف إخواننا، وكنت أؤكد لهم أن الأمر لا يمكن أن يكون إلا على ما يحبون وأبين لهم أن مصر نفسها حريصة كحرصهم على كيانها الخاص واستقلالها بأمورها واحترام حدودها وكذلك الدولة السعودية والعراق، وليس ثم طمع من دولة فى أخرى، وإنما المراد إيجاد وسيلة أو أداة يتسنى بها التعاون والتكافل، وحسبنا جميعا ذاك.

وقد صدق ظنى ولله الحمد.

(١٠)

فى مهرجان المعرى[٤٤]

ليس أعجب من أن يطالب صحفى بالإدلاء بحديث إلى صحفى آخر، غير أن هذا الذى أراه عجيباً كان يبدو غير عجيب لبعض الصحفيين الشبان فى دمشق، وقد ألحف أحدهم فى المسألة وأنا أحاول أن أصرفه بلطف، فلما أعيانى أمره قلت: "سل ما بدالك".

فرمانى بطائفة من الأسئلة تتطلب بحثًا طويلاً ونظرًا ومراجعة، مثل: كيف تركت الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى مصر؟ وما رأيك فى حل قضية فلسطين؟ إلى نظائر كثيرة لهذه الأسئلة المحرجة، وقد هربت من كل جواب بكلام يضحك حمله هو على محمل الجد فذهب به فرحًا إلى مدير شركة الأنباء التى يعمل فيها، ثم عاد إلىّ من غده يعاتبنى ويقول إنى جعلته غرض استهزاء، فقلت له:

"يا أخى وما ذنبى إذا كنت تأبى إلا إحراجى بأسئلة لا أستطيع الجواب عنها هنا".

وصرنا بعد ذلك صديقين وغفر لى إساءتى إليه، وزاد فتفضل بتعريفى بزعم الحزب الشيوعى هناك، وزعيم الشيوعية هذا شاب مديد القامة عريض الألواح واسع العينين براقهما حديد الفؤاد فصيح، وقد سألنى عن الشيوعية ما رأيى فيها، فقلت له:

---

(٤٤) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٥ أكتوبر ١٩٤٤، (ص٢).

"منك نستفيد، فما أعرف عنها شيئًا".

فشرع يعرفنى بها فقلت له: "اسمع إن كنت تطمع فى إلحاقى بحزبك فخير لك أن تقصر فقد جريت فى حياتى على قاعدة لم أتحول عنها قط، هى أن لا أتقيد بحزب أو مذهب، وإنما آخذ من كل مذهب أطيبه وأنفعه".

فكف، وصرت بعد ذلك كلما دخلت غرفتى وجدت فيها كومًا من النشرات والمطبوعات والرسائل عن روسيا والشيوعية، وقد احتفظت منها برسالة واحدة رأيتها نافعة لما فيها من البيان، وأهملت ما عداها.

ومن طريف ما يحكى أنى كنت فى غرفتى مرة فأستأذن علىّ أحد الخدم، ودخل وفى يده نشرة قال إنه استعارها منى فى غيابى، لأنه وجد فيها كلامًا عن أجور العمال وإجازاتهم وما يجرى هذا المجرى، وهذا شىء يعنيه ويعنى إخوانه، فقلت له:

"لا عليك، استعر ما شئت من هذه المطبوعات، فما أعبأ بها شيئًا، وإذا شئت فخذها كلها ولا تبقى منها واحداً، فسأتركها هنا على كل حال".

فصار خدم الفندق بعد ذلك أصدقائى، وتعهدونى، وبرونى، وسهروا على راحتى، ومنحونى ودهم وعطفهم، فلم يسعنى إلا أن أقابل لطفهم وكرمهم بمثلهما، فكلفنى ذلك غير قليل، ولكنى كنت سعيداً بمودتهم، والحقيقة أنى أجدنى أميَل إلى هذه الطبقة – طبقة العمال – منى إلى سواها، وأكثر حبًا لها، وآنس بها، وما ندمت قط على ذلك، ولا جربت من هؤلاء الناس إلا المروءة وكرم النفس والإخلاص والوفاء وحفظ الجميل، ولا عرفتهم يحتاجون إلا إلى الفهم، ومتى فهموا الأمور على وجهها، وأدركوا الحقائق صاروا كما تحب وترضى، ولى منهم إخوان كثر أعتمد عليهم، وأعتز بصداقتهم، وأزهو، وإذا فخر غيرى بأن من إخوانه أو معارفه فلانًا الباشا أو البك، فخرت أنا بأن من أحب إخوانى إلىّ فلانًا وفلانًا من العمال بارك الله فيهم وأدام لى ودهم ولا حرمنى ما أطيب به نفسًا من صفاء قلوبهم وصدق سرائرهم.

وعمال الفندق هم الذين كان لهم الفضل فى إيجاد غرفة خاصة لى بعد أوبتى من

حدود فلسطين، فقد بادروا إلى نقل أمتعتى إليها قبل أن يبرحها نزيلها، وأبلغوا الفندق أنى استوليت عليها واحتللتها.

ومما يستحق الذكر أنى لما عدت إلى الفندق فى تلك الليلة المنحوسة، من فلسطين قال لى أحدهم بعد أن أظهر السرور برجوعى:

"والله إنى ما توقعت خيراً مذ رأيت السيارة التى ركبتها إلى فلسطين".

فسألته عن السبب فقال: "رأيت كلمة "يا ساتر" مكتوبة على زجاجها فانقبض صدرى وقلت فى سرى يا ساتر استر".

ومن الغريب أن هذا هو الذى شعرت به حين رأيت هذه الكلمة، وقد حدثت بهذا الدكتور أسعد طلس، فضحك، ولكن انظر ما حدث:

على مسافة عشرين كيلو متراً من دمشق – فى الطريق إلى القنيطرة – انكسرت حوامل السيارة ويسمونها "السوستة" فوقفت السيارتان طويلاً حتى ربطت بالحبال واضطررنا بعد ذلك إلى السير على مهل مخافة أن تتعطل السيارة.

وسقطت منى ورقة بخمسة جنيهات مصرية فى القنيطرة على الأرجح، وكنا قد وقفنا بها قليلاً لنشترى بها طعامًا فلم نجد خيراً أو أنظف من "الطعمية" والعنب، ويظهر أنى أردت أن أعيدها إلى جيبى – بعد أن أعيانى صرفها – فوضعتها خارجه وأنا أظن أنى دسستها فيه، ولما رددت عن فلسطين طلب السائق الذى كان مع إخوانى، خمسة جنيهات من زميله يستعين بها حتى يقبض أجرته، فاعتذر له زميله بأن ما معه لا يبلغ هذا القدر، فقلت له: "أنا أعطيه ما يطلب على الحساب"، وبحثت عن الورقة فلم أجدها، وكانت هذه هى الخسارة الأولى التى تكبدتها فى هذه الرحلة المحققة، وقد تلتها خسارة أفدح لا داعى لذكرها.

وأصبت ببرد من طول الوقفة والتعرض عند جسر بنات يعقوب، وكانت ثيابى أخف ما يلبس، وأهملت التوقى، ولما عادت بنا السيارة، ضل السائق الطريق، فظل يحملنا – أنا وصديقى الدكتور طلس – هنا وهناك ثم يرتد وهو لا يهتدى، نصف

ساعة، حتى خفنا أن يدركنا الليل قبل أن نصل إلى نقطة الحدود السورية.

ولست ممن يتطيرون، ولكنى أعترف بأن كلمة "يا ساتر" حين رأيتها مخطوطة بالدهان الأحمر على زجاج السيارة أمام السائق، لم تقع من نفسى موقعًا حسنًا، وكانت عينى تتجه إليها كلما حدث شىء.

وشبيه بهذا ما وقع لى مرة منذ ربع قرن تقريبًا، وكنت يومئذ أسكن بيتًا "على تخوم العالمين" وأنى لعائد إليه عصر يوم وإذا بفقيرة عمياء مستندة إلى جدار تتنهد وتقول "استرحنا والحمد لله" وليس فى هذه العبارة ما يسوء، ولكن صدرى انقبض لها، وسمعت نفسى أقول "أعوذ بالله!"، وفى منتصف تلك الليلة توفيت زوجتى، جاءها المخاض، فجاءها الطبيب فنزفت وماتت! وقد سمع منى غير واحد وصف مصرعها – فقد كنت مشاهداً للأمر كله – فدهشوا.

وما شمت بإنسان قط، ولا شماتة بميت على الخصوص، فإن الموت يدركنا جميعًا، ولكن هذا الطبيب مرض فمات بعد ذلك بعامين، وأشهد الله العالم بالسرائر أنى شمت، وفرحت وأحسست أن الله الرحيم قد مسح على قلبى القروح.

(١١)

فـى مـهـرجـان المعـرى[٤٥]

كان الأمير مصطفى الشهابى محافظ اللاذقية، قد أنبأنا قبل أن يغادر دمشق بعد أن حضر افتتاح المهرجان وأكل "هنيئًا" من الغداء العلائى الذى اجتويناه وأبيناه – أنه سيعد لنا الغداء فى حرش جميل قريب من اللاذقية.

والأمير مصطفى أديب عالم، وعضو فى المجمع العلمى العربى بدمشق، وكان فى طليعة المرشحين لعضوية مجمعنا اللغوى، ولكن لأمر ما عدل عنه، ومن تواليفه العلمية "الرسالة النباتية" وقد نشرها مجمع دمشق، و"معجم الألفاظ الزراعية" بالفرنسية والعربية، فى مصطلحات العلوم الزراعية الحديثة من عامة وخاصة وزراعة البساتين، وعلم الحِراج [٤٦] وتربية الخيل والأنعام والنحل والأسماك والطيور الأهلية وما له صلة بالزراعة من نبات وحيوان وحشرات وآلات وصناعات ... إلخ، وقد أخرجته مطبعة الجمهورية السورية.

وقد تولى من مناصب الدولة، وزارة المعارف، ومحافظة حلب، ثم محافظة اللاذقية، وله فى كل ما تولى آثار باقية، فإنه قوى حازم، وعالم مصلح.

وكانت منطقة اللاذقية تسمى فى عهد الانتداب "جبل العلويين" وكانت ذات

(٤٥) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (ص٣).

(٤٦) الحِراج جمع حَرَجَة وهى كما فى المعجم الوسيط "غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحدٌ أن ينفذَ فيها" (المحرر).

استقلال إدارى ومالى، ولكن الأمير مصطفى غيّر الاسم، وتبلغ مساحتها ستة آلاف كيلو متر مربع، وسكانها قرابة نصف مليون نسمة، منها اثنان وستون فى المائة من المسلمين العلويين، وعشرون فى المائة من المسلمين السنيين، وثمانية عشر فى المائة من المسيحيين، وأسرة درزية واحدة، وكانت فيها أسرة يهودية واحدة نزحت فأصبحت المحافظة خلواً من اليهود.

ومما يستحق الذكر عن اللاذقية أن كانت بها مدينة عربية شامية منذ ألفى سنة إلى ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح عليه السلام، وكانت فى العهد الذى انتهى وجاء الاستقلال الحالى على أثره، فتنة بين أحمد والمسيح، فقلبها الأمير مصطفى بحكمته وعقله أُلفة صافية، وكان العلويون يشجعون على اعتقاد أنهم "نصيريون" فتغير كل هذا، بل لقد شجع بعض المشايخ على أن يكون "ربًا" أى إلهًا فى الأرض ولا يزال هذا "الرب" على قيد الحياة، ولكنه فى حكم المعتقل! وما زال فيما يرى ربًا ولكنه بغير عُباد! فتأمل كيف كان القوم يخلقون حتى الأرباب!

ومما يشهد للأمير مصطفى بالسرعة فى الإصلاح أن فى محافظة اللاذقية الآن أربع مدارس ثانوية، وعدد كبير من المدارس الابتدائية وما يسمى المدارس "الإكمالية" ودار كتب جديدة وردهة للمحاضرات لم يكمل بناؤها، وكان فيها خمسون كشافًا فصاروا ألف وخمسمائة، يهتفون بالعروبة والوحدة، وهذا يريك من أى معدن صيغ الأمير مصطفى.

خرجنا من حلب إلى اللاذقية ضحى، فى طرق تتلوى التواء شديداً، ثم ذهبنا نصعد فى طرق ممهدة "مزفتة" على قولهم على رءوس الجبال والآكام والربى، أكثرها مراقى غاية فى الوعورة، فلما كدنا نخرج إلى طريق الساحل وجدنا من ينتظرنا ليميل بنا إلى الطريق المفضى إلى الحرش وفيه المأدبة الموعودة، وكان الأمير قد حدثنا أنه غير مرصوف، ولكنه أمر بتسويته، وأنه أقل من خمسة عشر كيلو متراً، فإذا به يطول حتى يجاوز الثلاثين، وقد سرت فى طرق شتى فى الجبال – فى فلسطين ولبنان وسورية ولكنى لم أر أوعر ولا أكثر ترابًا، من هذا الجبل الشاهق ولا أجمل مناظر،

ولكنا لصعوبة المرتقى وضيق الشعاب، وحِدة الانعطاف، وكثرة التراب، كنا نغمض أعيننا فلا نكاد نرى ما حولنا - أو تحتنا على الأصح، وكان أكبر إشفاقنا أننا سنعود من هذا الطريق بعد الغداء، وقد احترقت فى بعض الطريق السيارة التى جاءت لتقودنا، فوقفنا قليلاً نتنفس، ونسخط على هذه الرحلة، ونعرب عن زهدنا فى أكلة تكلفنا هذه المشقة، ونلوم الأمير مصطفى، ونستعيذ بالله من هول الإياب.

وأخيراً وصلنا إلى البقعة التى تخيرها الأمير، فإذا هو على حق، وإذا هى صعيد فسيح فيه منبع ماء تحيط به وتظلله أشجار عظيمة التفت أفنانها والتبس بعضها ببعض، وورف ظلها، وكأنما نسقتها وصفتها يد الإنسان، وقد مدت الموائد فى هذه الرقعة البديعة، ولكن الأمير حدثنا أن إحدى سيارات النقل التى حملت الطعام من اللاذقية انقلبت وتبعثر ما فيها واختلط بتراب الأرض! فقلت:

"يا أمير! وبعد هذا التعب الذى تجشمناه!".

قال: "لا تخف، فقد بقى ما يكفى".

وقد صدق، فقد كان الباقى من الخراف، وغير ذلك فوق الكفاية، وسألته:

"ومن أى طريق أقبلتم؟".

قال: "من طريق البحر".

فقلت: "ولماذا لم تجيئوا بنا من حيث جئتم؟".

قال: "لتروا الأحراش الطبيعية".

قلت: "يا أخى! والله لقد كدنا لا نرى شيئًا! ولقد كنا كالأطفال الخائفين نغطى وجوهنا بأيدينا وننظر أحيانًا من بين أصابعنا، هات الأكل والسلام!".

---

(١) أذيع هذا الحديث بالراديو (المازنى).

وجاءونا براقصين من البدو يدق أحدهم طبلته دقًا عنيفًا ويرقص الآخر رقصة الدبكة المشهورة فى لبنان، ثم انضم إليه آخرون فصاروا حلقة كبيرة، وأسر إلىّ أحد أعوان الأمير أنه كان يبغى أن يجيئنا براقصات، ولكنهم لم يجدوا ولا واحدة!

وقبل أن يبدأ الرقص كان أحد الرجلين يصيح بكلام لا أتبينه ثم يذكر اسمًا يهمس به بعضهم فى أذنه، فذكر أسماء طه حسين وأحمد أمين وعزام والشايب والعبادى "وسماه العبدى" والمازنى "ونطقه المزنى" ثم أبى العلاء المعرى فقال "أبو على – إيه؟" فأسروا إليه أنه المعرى، فلم أسمع كيف نطقه بين أصوات الضحك.

ثم خرجنا على طريق بديع فسيح إلى اللاذقية فبلغناها قرب المغرب، وذهبوا بنا على فندق كبير علمنا أن الحكومة هى التى بنته، ودعانى الأمير إلى بيته لأستريح حتى يحين موعد الحفلة العلائية، فقلت إنى أريد أن أطمئن أولاً وأعرف غرفتى بين هذه الغرف، فإنى أخشى أن لا أكون فى إحداها وحدى، فطمأننى وحملنى معه، فلما عدت وجدت حقيبتى حيث تركتها، ولا غرفة لى أعرفها وآوى إليها، فجعلت أصيح بكل من أراه، ولم أكف عن الصياح وإظهار الغضب حتى دلونى على غرفة رضيت بها.

(١٢)

فى مهرجان المعرى[٤٧]

ذاكرتى ضعيفة ومع ذلك أعتمد عليها وأركن إليها، وليس بعد ذلك فساد رأى وقلة عقل، وأحسب أن الذى يحملنى على هذا التعويل عليها أنى أعرفها تحفظ الصور وإن كانت تنسى ما عداها، فكل ما أراه يبقى، وكل ما أسمعه أو أقرأه يذهب، وما أكثر من ألقاهم فى الطريق، وأكون قد رأيتهم من قبل، فأتوهم أن لى بهم معرفة فألقى إليهم السلام، على سبيل الاحتياط، وأقرأ الكتاب وأرى نسخة منه فى مكتبة فأشتريها، وقد صار عندى من بعض الكتب عدة نسخ، وبدا لى أن خير ما أصنع، إذا خايلنى كتاب فى إحدى المكتبات، أن أدون اسمه حتى أرجع إلى البيت فانظر لعله عندى فأنسى الرقعة وما سطرت فيها، وينفق بعد أيام أو أسابيع أو شهور أن تقع عينى على هذه الرقعة فأتعجب، وأتساءل لماذا كتبت اسم هذا الكتاب؟ لأراجعه؟ أو لأشتريه؟ وأفعل ما يغلب على الظن.

وقد سرنى أن وجدت فى دمشق ندًا لى فى هذا الباب، وهو الدكتور الجابرى مدير الرقابة هناك، وكنا عند الدكتور أسعد طلس، فذهبنا نتبارى، هو يقول إنه أسرع منى نسيانًا، وأنا أزعم أنى السباق فى هذا المضمار، فراح يروى قصصًا عجيبة، ولكنه كان يذكر تفاصيلها بدقة، فلاحظت ذلك وأنكرت أن يكون هذا حال من تخونه الذاكرة، فطالبنى بأمثلة لما يقع لى، فقلت:

"وكيف يسعنى هذا وأنا أمسى عاشقًا وأصبح ساليًا؟ وأرتدى ثيابى لأخرج حتى

---

(٤٧) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (ص٣) .

إذا هبطت بضع درجات من السلم وقفت أتساءل: إلى أين؟ وفيم الخروج؟ ويعيينني أن أهتدى، فأعود أدراجي وأقعد وتحدثني زوجتي في أمر ثم أنصرف، فإذا عدت لقيتني بالسؤال عما صنعت، فأستغرب وأسألها: "صنعت ماذا؟" فتقول محتجة: "ألم نتفق على كيت وكيت؟" فأقول: "والله نسيت" وكانت في بداية الأمر تظن أني أدعي النسيان ثم اقتنعت على الأيام، وكفت عن الاعتماد عليّ، أو تكليفي شيئًا، أو عقد أطراف المناديل أو دس رقع في جيبي، فما وجدت لشيء من هذا جدوى، وأسلمت أمرها لله ولسوء حظها معي".

وقد اعترف شهود تلك الجلسة – كما اعترف الدكتور الجابري – بأني أنا محرز قصب السبق ولا جدال، وكان هذا فوزًا لي، ولكنه فوز مقلوب أو كما يقول ابن الرومي "يرفعه الله إلى أسفل"!

على أن للنسيان مزاياه فإني أنسى المساءات والأحقاد والهجوم والمتاعب وأنام ملء جفوني، وكفى بهذا ربحًا.

أسلفت كل هذا لأقول إن الأمير مصطفى الشهابي دعانا في اللاذقية إلى العشاء في داره، أو في حديقتها على الأصح ولما كدنا نفرغ من الطعام أقبلت فرق الكشافة بالمشاعل وازدحم في الباب منها جماعة، ثم تقدم غلام صغير فغنى وطرب ورجع بصوت لم أسمع أحلى منه، وكان واقفًا أمام شجرة ووراءها من لا أرى وهو يشيع في يراع معه، وتكرر هذا وكان صاحب اليراع يضرب معازف شتى أيضًا، وسمعنا غير ذلك أناشيد شتى، وأعجبت بالعازف وحذقه، فاقترحت على الأستاذ عزمي النشاشيبي مدير محطة الإذاعة بالقدس، وكان قريبًا مني، أن يدعوه إلى الإذاعة منها، فقبل، فقمت إلى حيث كان هؤلاء الفتيان واقفين وقلت لنفسي إنه يحسن أن أقيد أسماءهم لأذكرهم بما هم أهله بعد أوبتي إلى مصر، ففعلت وأوصيت العازف أن يقابل الأستاذ عزمي النشاشيبي فسُر بذلك، وقد كان، واتفق معه عزمي على السفر إلى فلسطين للإذاعة وقد علمت أن هذا العازف أستاذ للموسيقى في مدرسة خيرية هناك، وكنت أود أن يتفق عزمي مع الغلام المغني أيضًا ولكنه قال: "إن هذا عسير لأنه قاصر"، فتأسفت.

وقد أعيانى أن أجد الرقعة التى دونت فيها أسماء هؤلاء، فجعلت أرجئ ذكرهم والقول فيهم، لعلى أهتدى إلى مكان الرقعة حتى يئست، وكففت، وقد كانوا ينتظرون كلمتى فيهم، فقد وعدتهم أن أبعث إليهم بما أكتب، فالآن سيخيب ظنهم، ويتهموننى بإخلاف الوعد، ولست أرى لى حيلة، فإن آفتى هذا النسيان وإنى لأخشى أن أنسى اسمى يومًا ما، ومما قوى هذا الوهم أو الخوف أنى قرأت قصة منذ سنوات كل ما أذكره منها أن بطلها أصيب بصدمة، فلما أبل كان قد نسى نفسه ولم يعد يدرى من هو؟ ومسح اللوح كله فلم يبق فيه سطر واحد من الماضى، فلما قابل خطيبته بعد ذلك لم يعرفها، وقد عشقها مرة أخرى وخطبها من جديد، ولكنها هى كانت ضنينة بحبهما القديم، فظلت تطاوله وتحاول أن تنشر ما انطوى وتبعث ما مات، حتى عادت إليه ذاكرته لا أدرى كيف.

وإنما بقيت هذه الخلاصة ولم تغب كما يغيب غيرها مما أقرأ لأنها أزعجتنى وخوفتنى، وزادت أعصابى تلفًا على تلف، فأنا لهذا أحرص على وضع بطاقة باسمى وعنوانى فى جيبى، وإنى لأعلم أن هذه سخافة، فلن يبلغ النسيان بى هذا المبلغ، فيما أرجو على الأقل، وإذا كُتب علىّ أن يصيبنى ما أصاب بطل تلك القصة فما أظن أن البطاقة تجدينى، ولأخلق بى أن أتساءل: اسم من هذا؟ ولماذا احتفظ ببطاقته؟ أترانى أعرفه؟

ولست أبالى هذا النسيان، فإنه يريحنى، وإن كان يتعب غيرى ويشق على أهلى خاصة، ثم أنه لا ضير من نسيان ما أقرأ، لأن الفائدة من القراءة تحصل سواء أنسيت ما قرأت أم ذكرته، وشبيه بذلك أن تأكل ثم تنسى أى طعام أكلته، فلا يمنع ذلك أن الفائدة من الطعام قد حصلت، ولكن النسيان يتعب إذا وجبت المراجعة، وليس البلاء أنى أنسى، وإنما هو أنى لا أضع علامة على كتاب أقرؤه ولا أدون شيئًا فى مذكرة، فإذا أردت الرجوع إلى شىء مما قرأت حرت أين أطلبه، وقد حاول بعض إخوانى المشفقين أن يعودونى النظام وتدوين المذكرات فقلت أفعل كما أشاروا، وشرعت فى ذلك ولكنى مللت بسرعة، ورأيت فى هذا تعطيلاً لى، وتضييعًا للوقت،

والحقيقة أني اعتدت هذه الفوضى طول عمرى، فمن العسير بعد هذا الزمن المديد أن يجيء أحد فيحاول تعويدى خلاف ذلك والجرى على العادة أسهل، وأنا سريع الملل، وكلما ثقل عليّ أمر قلت لنفسى: "وفيم كل هذا العناء؟ كل شىء باطل وقبض الريح! فليكن ما يكون!".

(١٣)

فى مهرجان المعرى[٤٨]

حلب مدينة الموسيقى، وقد قال لى بعضهم إن فى كل بيت كمانًا أو عودًا أو غير ذلك من المعازف، حتى بيوت النصارى واليهود والأرمن، فأضحكنى هذا وقلت له: "ما كنت أعرف قبل اليوم أن كون المرء نصرانيًا أو يهوديًا أو أرمنيًا يمنع أن يكون موسيقيًا!!".

وكانت شهرة حلب أنها تحافظ على القديم وتحرص عليه وتأبى أن تخرج بفنها إلى هذا الذى يسمونه تجديدًا، ولست من أهل هذا الفن ولا دراية لى به، وإن كنت فى صدر حياتى قد أضعت عامًا ونصف عام وأنا أحاول أن أتعلم العزف على الكمان، وكان أستاذى هو الخواجه تلماك، وكان دكانه على مقربة من سراى البارودى التى كانت فيها "الجريدة"، وليس ذنبه أنى أخفقت، أو انقطعت عن الطلب، فقد كنت قليل الصبر، وشق علىّ أن لا أبلغ مبلغ سامى الشوا فى أسبوع! وكنت أستحى أن يسمع أحد ما كنت أخرجه من الأصوات المنكرة التى تشبه الحشرجة، فكنت أضع على "الفرس" ما يكتم أنفاس الأوتار ويحيلها خافتة - أخفقت والسلام، ولا داعى لنشر هذه الذكرى المطوية التى لا يعلم من أمرها شيئا سوى القدامى من إخوان ذلك الزمان، وكان الذى أغرانى بالموسيقى أنى شكوت إلى طبيب حاذق ما أتوهمه من اصطلاح العلل والأمراض علىّ، فأراد أن يصرفنى قليلاً عن القراءة، ويشغلنى عن هذه الأوهام فأشار علىّ أن أدرس الموسيقى.

---

(٤٨) نشرت فى "البلاغ" فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٤ (ص٣).

ولم أسمع فى حلب شيئًا من الموسيقى على شدة حب أهلها لها وكثرة المعازف فيها، ولكنى التقيت بحلبى عند الصديق فخرى البارودى بعد ارتدادى عن فلسطين وهو ضخم جداً وعرضه كطوله - تقريبًا - وثيابه أكسية عجيبة من نسج القفاطين اتخذ منها سراويل ودراعة وفوق هاتيك معطف من صوف يصل إلى القدمين، وعلى رأسه عمامة أو ما يشبهها، ولم أشك حين رأيته فى أنه من أهل العلم بالموسيقى والتبحر فيها، فما يختلف إلى مكتب فخرى إلا الراسخون فى هذا العلم، وتربع فخرى على عرشه، ومال فتناول الطبلة وجعلها فى حجره، ومسح عليها بكفه ونقر نقرتين ثم أمر بتوشيح قديم لا أعرفه ولم أسمع به، فنضا الرجل معطفه وبدا فى ثيابه المخططة الزاهية، وأنشأ يغنى بصوت لا حلو ولا مطرب ولكن الإيقاع فيه جيد، وكان يضرب بجمع إحدى يديه فى كف الأخرى ليضبط التوقيت أو "الوحدة" كما يسمونها، ثم حمس وأخذته خفة فانتفض واقفًا وجعل يرقص رقصًا توقيعيًا على نغمات الصوت الذى يغنيه، فكدنا من فرط الطرب ننهض مثله ونفعل كما يفعل.

وهذا "توشيح" أو موشح عتيق جداً على ما قالوا لى، وقل من يحفظه، ولكنه هزنى فتمشى فى مفاصلى مثل نشوة الخمر، وقلما يحدث لى ذلك فإنى رزين، ولا فخر، وما أكثر ما أسمع من الغناء الذى يقولون أن فيه تجديداً فلا أطرب ولا تتحرك - كما يقول العامة - شعرة واحدة فى رأسى، وأنا أحب الموسيقى الغربية وأفهم بعضها وأطرب له ولكن هذا التلفيق الذى يزعمونه تجديداً يسلب موسيقانا لونها وطعمها وصبغتها، ويفقدها خير ما كان لها من مزية - أى موافقة طباعنا وفطرتنا.

وأذكر أنَّا سهرنا ليلة عند سليمى باشى فى بغداد، فأسمعتنا غناءً مصريًا حديثًا، فقلت لها:

"يا ستى! هذا شىء شبعنا منه فهاتى غناء عراقيًا أصيلاً، والأفضل أن يكون بدويًا".

فأسمعتنا أصواتًا قوية لم نستطع معها أن نحتفظ بوقارنا واستحال علينا الجلوس أو السكون.

وليست لى، كما أسلفت، دراية بالموسيقى، وإنما الذى أدريه أن نفسى تستجيب للضرب القديم ولا تستجيب لهذا الضرب الذى يقولون إنه جديد، وقد يكون غيرى مثلى أو لا يكون، ولكنى أنا كنت هكذا طول عمرى، وكنت وأنا طالب فى مدرسة المعلمين، أسكن بيتًا فى حارة أزبك بحى الصليبة، وكان رهط من العمال يمرون به فى بكرة الصباح المطولة، أو المقرورة ولا سيما فى الشتاء، ومعهم غلام يغنى، بأحلى صوت سمعته فى حياتى - وهذا ما يخيل إلىّ - والكبار خلفه يرددون كلمة أو كلمتين فى نهاية كل مقطع، فكنت أرمى اللحاف وأثب من السرير أو عنه، وأفتح مصراعى النافذة، ولا أبالى أن أتعرض للبرد بعد الدفء، وأطل لأسمع، حتى يغيب الصوت وصارت هذه عادة حتى كنت أستيقظ وحدى قبل أن يقبل العمال، ولا أكاد أفتح النافذة حتى يبدأ الصوت الحلو يهفو إلى من بعيد.

ولا بد من كلمة على قلعة حلب، لا لأن لها علاقة بالموسيقى بل لأنها كانت أشفى لنفسى من كل دواء وأجدى علىّ من ألف طبيب، ذلك أن أعصابى فى منتهى التلف فأنا لا أزال أتوهم أن قلبى ضعيف لا يتحمل أيسر جهد، وقد أتعبت الأطباء وأعياهم أن يقنعونى أنّى سليم القلب، وإن لم يكن قلب مصارع، وأنه فوق الكفاية لجسمى الضئيل، فلما كنت فى حلب دعونى إلى زيارة القلعة فذهبت معهم، وأردت الاكتفاء بالنظر إليها من الطريق، فإنها شىء عظيم شامخ جداً، وقد بُنيت فوق تل أو ربوة، وحولها خندق واسع، فألحوا أن أصعد فلم أشأ أن أقول لهم إنىّ أخشى أن أجهد هذا القلب المظلوم، وزعمت أن ركبتىّ ستخذلانى ولا شك، فأبوا إلا مصاحبتهم وهونوا الأمر فخجلت، ومضيت معهم، وذهبنا نصعد ونصعد حتى خلت إننا قد بلغنا السماء، وما ظنك بأكثر من مائتى درجة؟ زد على ذلك ظلمة هذه المنقبة وضيقها وعدم استواء الدرجات الملساء التى يسهل جداً أن تزل عنها القدم، ولكل شىء آخر حتى الصعود فى هذه القلعة، فتشهدت ورحت أتفرج مع القوم، ثم انحدرنا، ومضينا إلى أثر آخر، ثم زرنا السوق

المشـهورة، وخـرجنا منهـا إلى دار المحـافظة، فـصـعـدت درجـاتهـا وقـعـدت قـريبًـا من المحافظ، فـأقبل عليّ يكلمنى ويحدثنى عن حلب، وأخيرًا تذكرت أنى نسيت هذا القلب طول الوقت، وأنى لم أشـعـر من جانبـه بشىء، لا خـفـقـان ولا سـرعـة، ولا اضـطراب ولا شىء على الإطلاق كـأنما كنت نائمًـا ولـم أكـابد كل هذه المئـات من الدرجـات!! فكدت أرقص، وسمعنى بعض إخوانى أقول بلا مناسبة (بارك الله فى قلعة حلب!) فسـألونى عن السبب فغمزت بعينى ولم أجب، وتركتهم يظنون ما شاءوا.

وماذا أبالى، وقد اطمأنت نفسى، وسكن روعى؟

نعم، بارك الله فى قلعة حلب!

(١٤)

فـى مهرجـان المعـرى[٤٩]

زارنا فى دمشق وفد من شبابها، وكان ذلك قبل المهرجان على ما أذكر، وكنا نتعشى، فأشفقت أن نقضى الليل فى الإصغاء إلى خطب لا طائل تحتها، والرد عليها، وحاولت أن أزوغ، ولكن رسولهم إلينا كان كأنه موكل بى، فسدت يقظته الشيطانية كل فج.

وكانوا عشرين أو نحو ذلك، فجلسنا معهم فى حلقة وقلنا تفضلوا فقد أعرناكم آذاننا، فإذا هم لا يريدون خطبًا ولا يبغون كلامًا فارغًا، وإنما يريدون أن يسألونا عن الوسيلة العملية لتيسير الاطلاع والحصول على الكتب والمجلات العلمية.

وقد ذكروا لنا أمورًا أدهشتنا، ذلك أن المجلة المصرية التى تباع هنا بقرشين تباع فى الشام بخمسة وعشرين قرشًا سوريا أو خمسة وثلاثين، والكتاب الذى ثمنه فى مصر عشرون قرشًا يرتفع ثمنه هناك إلى ثلاثمائة قرش أو أربعمائة، وغير منكور أو مردود أن هذه أثمان تعجز الطالب المتوسط الحال عن اقتناء الكتب أو المجلات المصرية وتضطره إلى الاكتفاء بالأقل أو الأرخص، وتلك خسارة عليه وعلى الكتَّاب المصريين والصحافة المصرية فما حل هذا المشكل؟

وقد عرفت فيما بعد أن بعض كتبنا - وثمنه فى مصر قروش عشرون أو خمسة وعشرون - قد بيع بما يعادل دينارًا من ذهب، ولعل هذا إنما كان لقلة ما ذهب من نسخة إلى الشام، أو لعظم قيمة الكتاب أو للسببين معًا.

---

(٤٩) نشرت فى "البلاغ" فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٤، (ص٣).

ولم أر صحفًا مصرية وأنا هناك إلا فى الندرة القليلة، وكنت لا أعرف مواعيد وصولها، وكان الذى يصل يُخطف خطفًا فلا يبقى منه شىء بعد دقائق، فاكتفيت بالصحف المحلية، وفيها الكفاية للمقيم هناك، ولكنها لا تكفى من يريد الوقوف على أخبار مصر كما اعتاد أن يقرأها كل صباح ومساء بالتفصيل الوافى.

ومثل هذا يشكو منه السوريون - واللبنانيون أيضًا - فإن كتبهم وصحفهم ومجلاتهم لا تباع فى مصر ولا تعرض فى مكتباتها ولا يطلع عليها إلا من يتلقونها بالبريد على سبيل الهدية.

وقد قلت لمن حادثتهم فى ذلك إنى أستغرب أن يعجز السوريون واللبنانيون عن تنظيم النشر لكتبهم وصحفهم فى مصر وهم من أنشط الشعوب وأحذقهم وأقدرهم على تولى مثل هذه الأمور، وجاليتهم فى مصر كبيرة قوية، وإن كان كثيرون من أفرادها قد تمصروا وانتهى الأمر.

وأحسب أن هذا حال لا يرضى أحداً لا من المصريين ولا من السوريين واللبنانيين فإن بنا جميعًا حاجة إلى تنظيم التبادل وتوسيع نطاقه.

وقد كنت أشرت قبل هذه الحرب على بعض ذوى النفوذ والجاه فى مصر أن يسعى لتأليف شركة قوية للنشر برأس مال كبير تجرى فى أعمالها على النهج المألوف فى شركات النشر الإنجليزية، وأكدت له أنها تجارة رابحة على التحقيق وأن كل ما تتطلبه هو تنظيم الأسواق فى البلدان العربية، فلم يصنع شيئًا لأنه شغل عن هذا الأمر بما كان يومئذ أولى بعنايته.

والحاجة إلى هذا التنظيم فى مصر ذاتها عظيمة، وأذكر أنى طبعت فى سنة ١٩٣٠ كتابًا على نفقتى، وكنت أخشى يومئذ أن أكون قد أسرفت فقد طبعت منه أربعة آلاف نسخة، ولكن التكاليف كانت هينة، فلا محل للخوف من خسارة تصيبنى، على أن الكتاب نفد فى وقت وجيز، وكان أغرب ما حدث بعد ذلك أن جاءنى كتاب من الإسكندرية يقول فيه صاحبه إنه سمع أنى أخرجت كتابًا اسمه كذا، ومعنى هذا أن

الكتـاب الذى بيع فى القـاهرة والحـجـاز وجـاوه لم يسـمع به أحـد فى الإسكندرية العاصمة الثانية لمصر!!

والحقيقة أن تنظيم أسواق الكتب فى مصر والبلاد العربية يفسح المجال لتنشيط التأليف، فإن الذين لغتهم العربية لا يقلون عن [سبعين مليون]، فإذا قلنا إن عشرة فى المائة ليس إلا من هذه الملايين السـبعين يقرأون بالعربيـة، فإن المجال يكون ذا سـعة عظيمة أمام المؤلفين والمترجمين فى كل علم وفن.

والتنظيم هو كل شىء، وسبيله أن تقوم شركة كما أسلفت، وتوفد مندوبين إلى البلاد العربية يعقدون اتفاقات مع المكتبات المختلفة ودور النشر الأخرى والصحف للإعلان والنقد، حتى إذا تم ذلك وصار قائمًا على قاعدة عملية وطيدة اتفقت الشركة مع المؤلفين والمترجمين على اختلافهم فى مصر وفى الأقطار الأخرى، ثم لا تترك أمر النقد وما إليه للمصادفة، بل تدفع الكتب المختلفة إلى النقاد وتستكتبهم آراءهم النزيهة فيها وتجزيهم على تعبهم فى ذلك تجزية كافية وتأخذ هى ما يكتبون فتبعث به إلى الصحف لنشره بأجرة فى أيام معينة، وتكون قبل ذلك قد وزعت الكتب على المكتبات جميعًا فى مصر وغيرها، حتى إذا ظهر الإعلان والنقد وجد الجمهور الكتب معروضة فأقبل عليها يقتنيها، وهذه الطريقة هى التى تسنى بفضلها أن ينفد بعض الكتب الإنجليزية فى أيام معدودات، وأن يعاد طبعها مرات، فيربح المؤلف ما يكفيه ويشجعه على التفرغ لفنه أو علمه أو بابه على العموم، وينتفع الجمهور، ولا نحتاج أن نقول إن الشركة تربح ربحًا وفيرًا.

وقد جربت طائفة من المكتبات المصرية هذه الطريقة فأصابت نجاحًا غير قليل، وأصبحت تسمى نفسها دورًا للنشر، ووسعها أن تتوسع فتخرج من بعض الكتب خمس عشرة ألف نسخة، وليس ثم ما يمنع أن يرتفع الرقم إلى ثلاثين ألفًا أو أربعين، فإن القراء موجودون، وكل ما يحتاجون إليه هو أن يسمعوا بالكتب ويعرفوا أين يجدونها فى غير عناء.

ومعظم القراء يحتاجون إلى ما يغريهم باقتناء الكتب ويحضهم على طلبها ويسهل

عليهم الحصول عليها، ومعنور من يزهد فى ذلك أو ينصرف عنه إذا كان لا يعرف أن كتاباً من الكتب صدر، أو أين يجده فى غير مشقة، أو ماذا فيه مما يدعوه إلى الحرص على اقتنائه، فالتيسير واجب، وإذا قلنا التيسير فقد قلنا التنظيم، وبه يتسنى النشر فى أوسع نطاق فى البلاد العربية كلها، ويسهل التبادل بينها ويتفرغ حملة الأقلام لما يحسنون، ويتاح للنقد أن يرتقى، وتنتفع الصحافة بما ينشر فيها إعلاناً ونقداً.

(١٥)

فـى مـهـرجـان المعـرى[٥٠]

كانت مأدبة العشاء التى أقامها فخامة السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية فى ختام ليالى المهرجان، مظهراً لروح سورية حقيقية، وهو جمهورى صميم، وإن كانت سورية قد عرفت – وعانت – الملك العضود فى تاريخها الطويل الحافل، وقد حملنا إلى قصر الرياسة فى سيارات لا ندرى من أين جيئ بها، ولا من هو الذى كان يتولى أمر إعدادها، وقد فاتنى أن أكون فى السيارة التى أقلتنى إلى القصر وعادت بى منه [مع] زملائى فى الرحلة الطويلة إلى شمال سورية – ساطع الحصرى بك، والشيخ المغربى، والأستاذ عز الدين التنوخى، وكنت ضنيناً بهم، وحريصاً على صحبتهم، معتزاً برفقتهم – ولكن العوض كان جزيلاً، فرافقت فى الذهاب والإياب الأستاذ إسعاف النشاشيبى والأستاذ أحمد الشايب.

والقصر الجمهورى دار صغيرة فيها من البساطة أكثر مما فيها من الأبهة، وعلى أبوابها، وفى مداخلها، حراس وشرط، ولكنك تحس وأنت داخل أن هؤلاء إنما يقفون لتحيتك والترحيب بك لا لحراسة أحد، فكأنهم بعض ما تزان به المآدب والحفلات مبالغة فى التخفى، ومن يحرسون؟ وممن يتحرزون! إن رئيس الجمهورية من الشعب، والشعب منه، وما كان راغباً فى هذا المنصب، ولا طالباً أو ساعياً، وإنما كانت رغبته وسعيه أن يكون الرئيس الأسبق هاشم بك الأتاسى على رأس الجمهورية، ولكن هاشم بك أبى كل الإباء وأصر على أن هذا الأمر ليس له سوى شكرى بك، ولو بقى الأمر لاختيار شكرى بك لما تولى شيئاً لا من الرياسة ولا من الوزارة.

---

(٥٠) نشرت فى "البلاغ" فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٤، (ص٣).

والواقع أن مناصب الحكم لا تعد شيئًا فى سورية، فليس عليها تنافس، ولا فى سبيلها ومن أجلها تثور الخصومة وتضطرم العداوة وتنشق الصفوف وتفترق الكلمة، وقد زرنا حمص فى أوبتنا من رحلة الشمال، وقصدنا إلى دار السيد هاشم الأتاسى الرئيس الأسبق لتحيته، ثم تغدينا فى بستان البلدية فعرفت أتاسيًا آخر هو أخو الأول، تقلد منصب الوزارة مرة من قبل، ولو شاء لتقلد رياستها الآن وبعد الآن، فإن منزلته وأسرته وثقافته وهمته تؤهله لما يحب، ولكنه يشيح عن ذلك كله إشاحة المستخف، ويؤثر أن يكون رئيس بلدية حمص! وعلى هذا فقس.

واستقبلنا فخامة الرئيس فى القاعة الكبرى – وإنما توصف بالكبرى بالقياس إلى غيرها – وكان يتنقل بين هذا الرهط العظيم المحشود ويقف مع كل فريق لحظات يتحدث ويلاطف ويجامل، ثم قيل اهبطوا فهبطنا إلى الحديقة – وهى واسعة – حيث صفت الموائد فقعدنا حيث طاب لنا أن نقعد، ولكن الرئيس أبى إلا أن يحف به المصريون فأدنانا منه وجعلنا على جانبيه وأمامه، فى غير كلفة، واختص الأستاذ إسعاف بك النشاشيبى بتكريمه فألح عليه أن يكون أمامه، وجعل يقول إن إسعاف بك أستاذه، وإنه قضى فى القدس عام كذا نحو عامين فكان يزور الأستاذ إسعاف كل ليلة فى داره فيستفيد منه أدبًا وعلمًا.

وخُيل إلىّ، وأنا أراعى الأستاذ إسعاف، أنه يقول فى سره "يا أرض ابلعينى" من فرط الحياء، فقد اضطرم وجهه فصار كالطماطم الناضج، وراح رأسه يهتز يمنة ويسرة، فضحكت فى سرى – أنا أيضًا – إذ تذكرت واحداً من أصدقائنا القدماء، عليه السلام، كان لا ينفك كلما تعجب أو أنكر شيئًا يهز رأسه على هذا النحو، وكان المرحوم السباعى يشبه رأسه فى اهتزازه هذا برأس الأرنب المصنوع من "الجبس"!

وأكبرت فى فخامة السيد شكرى هذا التواضع، وذلك الإقرار العلنى بفضل لا يلزمه شكره، وأكبرت من إسعاف بك تطامنه واستحياءه على فضله وغزارة علمه، فما فيمن لا يستحى خير.

ولكن الأستاذ إسعاف ذرب اللسان حاضر البديهة، سريع الخاطر، يتكلم فكأنه يقرأ فى كتاب، فما لبث أن تغلب على حيائه فانطلق يسح سحًا بوصف فضائل الرئيس ومزاياه، والرئيس يستوقفه ويستغفر الله، ولكن من ذا يصد السيل المنهمر؟ وانقلب الوضع، وانعكست الآية، وصار الرئيس هو المطرق حياءً، وهو الذى يحاول أن يبدو للناظرين كأنه غيره هو المعنى بهذا المديح، فيعبث بالشوكة تارة، ويفرك لباب الخبز طورًا ويلتفت وراءه حينًا، ويتناول سيجارة ليشعلها ثم يردها.

وما كدنا نفرغ من الطعام، ونتهيأ للقيام - فقد كان المقرر أن نُعفى من الخطب - حتى رأينا شيخًا يغادر مكانه ويقبل فيقف قبالة الرئيس كأنه ينتظر الإذن، فينظر إليه الرئيس مليًا ثم يأبى له الأدب أن يرده، فيقول "تفضل".

وقد استغربت ما سمعت، فما كان هذا مقامه، ورأيت الرئيس يلتفت إلى الأستاذ أحمد أمين بك وسمعته يقول: "ما رأيك" فلم يجب الأستاذ، ولكنه نهض بعد أن فرغ صاحبنا، فقال كلامًا حسنًا يعد ردًا على ما سمعنا وتعجبنا له، فانقذ الموقف.

وصار الواجب بعد ذلك أن يقول أحدنا كلمة شكر، فقالها الدكتور طه، جزاه الله خيرًا، وأحسن كل الإحسان، وأثنى أطيب الثناء على وزير المعارف نصوح بك البخارى الذى لم يفارقنا لحظة واحدة فى أسبوع المهرجان، وكان لا يفتر فى رعايته لنا، ولا يقصر فى تعهدنا وبرنا.

وقد جاءنى معاليه بعد أن نهضنا عن الموائد وتفرقنا فى الحديقة وشكا إلى أن الدكتور طه بالغ وأسرف، فقلت له:

"يا سيدى إن الدكتور طه إنما عبر عما نطوى جميعًا لك من الحب والإجلال والشكران، ولو لم يشكرك طه، لشكرتك أنا ولكنت أشد منه إسرافًا، وما أراه إلا قصر فى حقك".

فقال: "أنت شر منه".

ومضى عنى، وهو أشد ما يكون استحياء!

وكان الأستاذ نجيب الرئيس – الأديب الشاعر وصاحب جريدة القبس – قد كتب مقالاً عنيفًا ينتقد فيه محافظ دمشق واتفق أن جلس المحافظ فى مأدبة الرئيس وبجانبه الأستاذ نصوح بابيل نقيب الصحفيين وصاحب جريدة الأيام، فشكا إليه المحافظ ما قال فيه نجيب، فما كان من نصوح إلا أن قال إنه يوافق زميله على كل حرف خطه. فسرنى هذا التضامن بين الزملاء، وتمنيت أن يكون هذا حالنا فى مصر.

وسمعت أعجب حوار وأمتعه ونحن نعود إلى الفندق، وكان السائق يهب الأرض والأستاذ إسعاف يكره السرعة فاستمهل السائق، فقال هذا:

"أولسنا على الأرض؟ فماذا نخاف؟"

فقال الأستاذ إسعاف: "ولكن الله يأمرنا أن لا نلقى بأنفسنا فى التهلكة".

فرد عليه السائق بأن "المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين"، فصاح به الأستاذ: "ويحك! أقول لك القرآن ينهى عن هذا فتحتج علىّ بعبد الوهاب؟".

فأصر السائق على الاحتجاج بمواويل عبدالوهاب، ولج الأستاذ فى الاحتجاج عليه بالقرآن والحديث، ثم رأى السائق يزيد على السرعة أنه يتلفت يمنة ويسرة فخاف العاقبة، ولكنه آثر المزح فارتجل حكمة تقول – أو يقول هو فيها – "إذا ركبتم الخيل فلا تتلفتوا ذات اليمين وذات الشمال". فكان جواب السائق "أن العرب لم يعرفوا السيارة"، وظللنا نستمع إلى هذا الحوار اللذيذ حتى بلغنا الفندق بسلام، فكان الختام مسكًا.

(١٦)

فى مهرجان المعرى[٥١]

عرفت فى الشام "بدوى الجبل" وهو شاعر أديب، ونائب من اللاذقية، وكان الترتيب أن ينشد قصيدته فى احتفال اللاذقية، ولكنه دُعى إلى الإلقاء فى حفلة دمشق الأولى.

و"بدوى الجبل" ليس اسمه، بل وصفه، وقد غلب عليه الوصف حتى لا يكاد يعرفه بغيره أحد، وحتى صار ينادى به فى مجلس النواب، وقد سمعت رئيس المجلس - وكان يومئذ فارس بك الخورى - فى الجلسة التى شهدتها بعد ارتدادى عن فلسطين، يقول "سيتلو عليكم بدوى الجبل المراسيم ... إلخ"، فقلت لنفسى، هى بساطة القوم تسهل عليهم الأمر، ولولا ذلك لعانوا ما عانيت من الحيرة والارتباك، إذ كيف أناديه من بعيد مثلاً؟ وكيف أدعوه حين أخاطبه؟ أأقول له "يا سيد بدوى؟" أو "يا حضرة البدوى؟" أم أهمل ألفاظ المجاملة كلها وأمرى وأمره إلى الله؟ وكيف يليق ذلك وما سبقت لى به معرفة، وإن كنا قد ائتلفنا بسرعة؟ وأنا رجل أحرص فى صداقاتى على إبقاء بعض الحدود، ولا أرفع الكلفة كل الرفع وإن كنت أرسل نفسى على السجية، لأنى وجدت ذلك أبقى للصداقة وأدوم للمودة، حتى زوجتى وأخى وأبنائى أتوخى معهم الاحترام والأدب رغبة فى طيب المعاشرة وحسن المخالطة، واجتناباً لتغير النفوس من جراء سوء الأدب والتطاول.

وقد وجدت فى "يا أستاذ" مخرجًا غير مريح، فقد شاع هذا اللفظ حتى فقد

---

(٥١) نشرت فى "البلاغ" فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٤ (ص ٣) .

قيمته، فكل امرئ يقول لكل امرئ آخر "يا أستاذ" وقد سمعت "كمسارياً" يقول لصبى حافى القدمين عارى الرأس وعليه مرقعه تبدى من بدنه أكثر مما تستر "تذكرة يا أستاذ" ولعله كان يتهكم أو يتفكه، ولكنى امتعضت، واستثقلت هذا الابتذال، وعزيت نفسى بأن "أستاذيتى" أنا، خاصة، لم يمتد إليها الامتهان، وإن كنت أرى خصوصها قد صار كالعموم.

وسألت غير واحد عن اسم "بدوى الجبل" فكان يطول تفكيرهم ويترددون ويتلعثمون، فقلت أسأله هو نفسه، ومهدت لذلك بقولى له "إنى أرى الناس كلهم يسميهم آباؤهم، فلا خيار لهم فى الأمر وإن كان الاسم بغيضاً، ولا أعرف سواك رجلاً أوتى الشجاعة اللازمة لإطراح ما سماه به أبوه والاعتياض منه الاسم الذى يروقه، فماذا كان الاسم الذى تلقيته من أبويك؟ ولماذا آثرت تغيره؟ أعنى ماذا كرهت منه؟".

فقصّ على هذه القصة. قال إنه لم يغير اسمه، ولا اعتاض منه سواه، ولكنه فى أول عهده بقرض الشعر، بعث بقصيدة إلى صحيفة الأستاذ يوسف العيسى - ألف باء - وذيلها باسمه الصريح - محمد سليمان أحمد - فنشر الأستاذ العيسى القصيدة وجعل التوقيع تحتها "بدوى الجبل" فاستغرب هذا وزاره وسأله عن سبب ما صنع، فقال له إن القصيدة جيدة، واسمك غير معروف، فإذا رأى الناس اسمك الذى لم يسمعوا به من قبل، ساء رأيهم فى القصيدة، أو قرأوها وهم أميل إلى استضعاف الشعر، سلفاً، ولكنهم حين يرون كلمتى "بدوى الجبل" خليقون أن يستغربوا ويتوهموا أن هذا الشاعر مجيد مشهور يؤثر - لسبب خاص - أن يتنكر، فيكون هذا باعثاً لهم على إحسان الظن سلفاً، أو على الأقل وزن الشعر بغير هوى.

وقد صدق ظنه، فأعجب الناس بالقصيدة وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون "من ترى يكون بدوى الجبل هذا؟ ولماذا يتنكر؟" وقال قوم إنه خليل مردم، وذهب آخرون إلى أنه شفيق جبرى، وكلاهما من شعراء الشام المعدودين واختلفوا فى ذلك اختلافاً عظيماً.

واقتنع السيد محمد سليمان بصواب الرأى، فلج فى الشكر حتى اشتهر بأنه "بدوى الجبل".

ولم أستغرب هذا لأنه عين ما وقع لى فقد كان زملائى فى المدارس لا يعرفوننى إلا باسم "عبدالقادر" لأنى فى حداثتى لم أكن أحفل بلقب "المازنى" حتى ملت إلى الأدب، وعكفت على كتبه القديمة أقرؤها، فعرفت قيمة لقبى الذى كنت أستخف به وأهمله، فلما أردت أن أنشر فى الصحف بعض ما كنت أنظم وأكتب، عكست القضية، فكنت أذيل القصيدة أو المقال بهذا التوقيع "ع.ا.المازنى" فأبرز ما كان خافيًا، وأحجب ما كان ظاهرًا معروفًا، وواظبت على هذا إلى سنة ١٩١١ أو ١٩١٢، وكنت يومئذ أتحذلق وأتقعر، ولا سيما فيما أنشره فى مجلة (البيان) لصاحبها المرحوم الأستاذ البرقوقى، فكتب الدكتور هيكل (وكان يومئذ مثلنا لا بك ولا باشا) فى صحيفة (الجريدة) مقالاً فى (كُتاب البيان) يقول فيه ما معناه إن لعل اسم المازنى هو الذى يرجع إليه السبب فى تقعره، فكان من أثر هذه الغمزة أن نبذت التكلف، ونزعت إلى البساطة.

واتفق يومًا أن كنا بمجلس المرحوم البرقوقى، وكان "اللواء" أو "العلم" – لا أدرى أيهما – قد نشر لى قصيدة طويلة، وكان معنا السيد القاياتى، فجعل يسأل (يسأل من هذا المازنى؟) وأنا معه، فنضحك، واشتد إلحاحه فى السؤال لما نقدته فى (الجريدة) وقد عرف السر بعد ذلك وصرنا صديقين.

ثم صرحت باسمى كاملاً بعد أن اطمأنت نفسى، واستغنيت عن التستر أو اتقاء الظهور جهرة، فقد كنت أخشى الخيبة، وأشك شكًا كبيرًا فى قيمة ما أكتب أو أنظم، ولكنى وجدت من تشجيع الإخوان وعطفهم ومروءتهم ما قوى قلبى وجرأنى.

وأذكر لبدوى الجبل – كما أذكر للدكتور أسعد طلس – أنهما لم يفارقانى قط بعد أوبتى من فلسطين مطرودًا عنها، وقد أبى الدكتور طلس إلا أن يعود معى، وإن كان

القوم قد أذنوا له فى الدخول وتلك منة كبرى له، ويد لا أنساها أبد الدهر فقد يسر لى كثيراً مما كان خليقًا أن يتعسر، وظلا كلاهما معى بعد ذلك حتى ركبت الطائرة إلى مصر، وكانا يسعيان هنا وهنا، ويحاولان تذليل كل عقبة، وتسهيل كل صعب، ولا ينفكان ينبآنى بكل خطوة ولا يكفان عن تبشيرى وتطمينى، ولا أدرى كيف أشكر لهما هذا، ولا أرى العجز يصلح عذراً ولكنى مع ذلك أطمع منهما أن يغتفرا لى تقصيرى، فإنهما هما وقومهما جميعًا أنبل من أن يتقاضونى شكراً على مروءة.

(١٧)

فى مهرجان المعرى[٥٢]

سورية الحاضرة وليدة الحركة العربية التى قامت، جهراً وسراً، فى أخريات العهد العثمانى، وقد كان لكثيرين من أقطاب سورية الآن، مشاركة فى تلك الحركة، وهذا رئيس الدولة السورية الحالية، السيد شكرى القوتلى، ما نجا من الموت إلا بأعجوبة، وبفضل من الله فقد كان الأتراك فى أثناء الحرب العظمى الماضية يطاردون أحرار العرب ويشنقونهم وكان السيد شكرى ممن قبض عليهم، وأذن فى الحال بأن يلحق بسواه من الأحرار، وسألوه عن زملائه الأحرار، فأبى أن يقول شيئًا، وأصر على الكتمان وآثر أن يدركه الموت على أن ينكب أحداً.

وكان هناك كثيرون قد قبض عليهم وسئلوا كما سئل السيد شكرى، فلم يقولوا شيئًا، ولكن واحداً منهم أراد أن يضلل القوم فراح يذكر لهم أسماء كثيرة ما نزل الله بها من سلطان، أو لا علاقة لأصحابها بحركة عربية أو غير عربية، فكان التحقيق يدور مع هؤلاء الأبرياء أياماً، ثم يطلق سراحهم.

وكان القائمون بالتحقيق يدعون زوراً وبهتانا أن فلانًا قد [أقر]، وعلانًا قد أفشى السر، ليحملوا الآخرين على الاعتراف، وليوقعوا بين المقبوض عليهم ويوغروا الصدور فتجرى الألسنة بالحقيقة.

ولم يكفهم هذا فجعلوا التعذيب إحدى وسائلهم، فكانوا يجلدون المعتقلين، ويدسون لهم الشوك بين الظفر واللحم، ويفعلون غير ذلك.

---

(٥٢) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٤، (ص٣).

وكانوا كثيراً ما يعذبون المقبوض عليهم وعلى مرأى ومسمع من السيد شكرى، ليرى ما سيحل به إذا لج فى الإنكار، وأبى إلا الكتمان، فأشفق السيد شكرى أن يضعف إذا أصابه مثل هذا التعذيب المنكر، وخشى إذا حاق به شىء من هذا أن تخنه الإرادة، فإن الطاقة البشرية محدودة، والمرء يصبر ويتشدد على الألم، ولكن لا إلى غير نهاية، فاعتزم أمراً، وتوكل على الله.

وكان كثير التعبد أمام الحراس، فكان الحراس يكبرونه ويوقرونه فقال لأحدهم يوماً، إن هذا السجن قد طال، وطال شعر بدنه، وفيه حاجة إلى موسى للحلاقة فإن النظافة من الإيمان فغاب الحارس ساعة ثم جاءه بالموسى فى الخبز، فإن تزويد السجناء بمثل هذه الآلات محظور فكيف إذا حملها الحارس نفسه إلى السجين.

وأوصد السيد شكرى الباب وعمد إلى رسغه فقطع بالشفرة شرياناً فيه فتدفق الدم وكان قد أعد ورقة وعوداً من القش، فجعل يغمس العود فى الدم ويكتب فى الصحيفة، وقد أنحى فى هذه الرقعة على الظلم والظالمين ولعنهم واستنزل عليهم غضب الله والملائكة والناس أجمعين.

وألح عليه النزف فضعف فانطرح على الفراش، وترك يده مدلاة يسيل منها الدم حتى بلغ الباب وخرج من تحته.

واتفق فى ذلك أن كان الدكتور قدرى بك ماراً فرأى الدم، وكان أحد المقبوض عليهم، وهو طبيب والأطباء غير كثير، فالحاجة إليهم شديدة، فهو لا يزال يستعان [به] داخل المعتقل، وكان قد قيل له كذباً أن السيد شكرى وشى به، أو أقر عليه، فسخط ونقم، فلما رأى الدم، حدث نفسه أن السيد شكرى لا بد أن يكون قد أدركه الندم، وأناب إلى الله وتشفع إليه تعالى بدمه فانتحر.

وقال لنفسه حسناً صنع، ومضى فى طريقه، ولكنه ما لبث أن وقف متردداً وقال إن هذا الرجل قد كفر عن ذنبه [بتوبته] وبما حاول من الانتحار، والتوبة تغسل الذنب وتمحو الخطيئة وعلى الله لا على الناس، حساب المسئ، ثم من يدرى، فقد يكون الرجل

مظلومـًا، لعله ما اعترف ولا أقر بشيء وعسى أن يكون ما بلغنى عنه مزورًا ملفقًا وهو برىء العهد أتراهم كانوا يتركوننى على قيد الحياة [...] وكر راجعًا إلى الباب، وأهوى عليه بكتفه فحطمه ودخل على السيد شكرى، فإذا هو فى غيبوبة من كثرة النزف، فعصب له يده عصبًا قويًا ليرقأ العرق وينقطع الدم، وحمله مستعينًا بالحراس، فذهبوا به إلى مستشفى فظل فيه حتى أقبل إلى البرء، ورجعت إليه قوته على الأيام.

وأثار الكتاب الذى كتبه بدمه ضجة عظيمة، فإنه كتاب رجل مشف على الموت، وتلك ساعة لا يهون فيها الكذب والتضليل، وكيف يكذب وهو يوشك بعد ثوان أن يلقى ربه، والدم، بدلاً من المداد، شيء مروع، فكان لهذا كله أثره ونجا من القتل غير واحد بفضله.

وإنما أقدم السيد شكرى على هذه التضحية الكبرى إشفاقًا من عواقب الضعف الإنسانى، فآثر أن يموت هو وينجو غيره.

وهذا خبر صحيح لا يرتقى إليه شك، يريك من أى معدن صيغ السيد شكرى القوتلى، فهو يتقلد اليوم منصب الرياسة فى الجمهورية السورية بفضائله وحقه، والسوريون جميعًا يعرفون له هذه المزية ويقرون له بها، وقد يختلفون على غيره ولكنهم لا يختلفون فيه، وإجماعهم على توقيره والثقة به تام، فما أخذوه بشيء فى حياته كلها، فظل رجل سوريا الذى تتطلع إليه الأبصار فى كل حادث، وظل هو الرجل الذى لا يطمع فى شيء، ولا يشتهى شيئًا، ولا يطلب هذه الدنيا وجاهها، حتى حملوه حملاً إلى دار الرياسة وهو فضلاً عن ذلك يقرأ ويدرس، ولا يترك عقله يصدأ، ولا يغتر بمنصب، ولا يرى أنه زاد به شيئًا، أو أنه صار وقفًا عليه.

وقد سئل السيد سعد الله الجابرى عن استقالته من الوزارة ما سببها، فكان جوابه: "وهل مناصب الحكم وقفًا علينا؟ إنها للأمة لا لنا"، وخوطب السيد فارس الخورى، بعد توليه الوزارة، فى أمر، فقال: "إنما نحن هنا على حين فقط".

وهكذا يقول السيد شكرى القوتلى ورجال سوريا جميعًا، بارك الله فيهم.

(١٨)
فـى مـهـرجـان المـعـرى[٥٢]

أظن أن القراء ينتظرون منى كلمة فى صحافة الشام فقلما يراها المصريون فى غير إدارات الصحف أو عند من يتلقونها بالبريد.

وأول ما ينبغى أن يكون المصريون منه على بينة ويقين، هو أن صحافة الشام ليست دون صحافة مصر، فى الجوهر، وإن فرق ما بينهما لا يعدو المظهر.

والقراء فى الشام أقل منهم فى مصر لا لأن الأمية هناك أشيع، فإن الأمر على نقيض ذلك، بل لأن عدة النفوس أصغر، والمواصلات أبطأ، والأبعاد بين البلدان أطول، وقد جاءت الحرب بمصاعب أخرى شتى، فالورق قليل، والغلاء شديد، والتليفون لا يسعف، والسيارات لا تظفر بالكفاية من العجلات الصالحة، والسكة الحديدية سلحفاة فلا غناء لها، وتكاليف إخراج الصحيفة غير يسيرة، وعلى الرغم من ذلك كله احتفظت الصحافة فى سوريا بمستواها، واجتذبت إليها طائفة صالحة من صفوف الشبان المثقفين.

ولم أر أنشط ولا أشد إخلاصًا من الصحفيين السوريين لعملهم، فهم ينتشرون فى الأرض، ويظهرون فى كل مكان، ويستقون كل خبر، ويحيكون بكل دقيق وجليل من

---

(٥٢) نشرت فى "البلاغ"، فى ٢١ نوفمبر ١٩٤٤ (ص٣) .

الأمور، ويقفون على كل خافية، ولا تبدو عليهم مع ذلك عجلة، حتى ليخيل إليك إذ تراهم أنهم لا يزالون عملاً وإنما يزجون فراغًا.

وقد طفت بإدارات الصحف فى دمشق لا لأن هذا ما تقتضيه الزمالة، بل لأن فيها إخوانى وأصدقائى، فكان يدهشنى أن أرى المكاتب خالية، ولا يكاد بعضهم يدخل حتى ينكفئ خارجًا فجعلت أتساءل فى سرى:

"أين إذن المحررون والمخبرون والمترجمون؟ ومن ترى يتولى ترتيب المواد المختلفة، والإشراف على الطبع وما إلى ذلك؟".

وقد تبينت بعد ذلك أن السر فى هذا "الفراغ" الذى تعجبت له هو أن الحركة دائمة، والسرعة عظيمة، فالجلوس إلى المكاتب قليل، وكل امرئ يؤدى عمله ويدفع به إلى صاحب الجريدة أو الموكل بالإشراف، أو إلى المطبعة ريثما يؤوب الغائب، ثم ينطلق خارجًا عسى أن يقع على جديد أو مفيد.

ولقلة الورق وضيق الصحف وصغرها اقتصرت على الجد، وأغفلت ما يراد به التسلية وتركت ذلك للمجلات والصحف الأسبوعية، والسوريون على العموم أميل إلى الجد فى صحافتهم وأشد عناية باللغة والأسلوب، والقراء ينتظرون من الصحافة اليومية على الخصوص أن تفيدهم لا أن تسليهم.

وقد تكون اللغة العربية فى مصر أرقى، وأساليب الكتابة أجود، وأحسب أن السوريين لا ينكرون على مصر هذا السبق والتقدم، ولكن الروح العربية هناك أعمق وأعم وأشمل، وما من سورى، متعلم أو أمى، إلا وهو يعد نفسه معرقًا فى العروبة، فلا فينيقية ولا فرعونية، ولا حيرة بين أصول شتى، متقاربة أو متباعدة، وإنما هى العروبة صرفًا.

وأسماء الصحف نفسها تشهد بذلك وتعلنه بأقوى لسان وأعلى بيان، ومن هذه الأسماء "ألف باء" و"فتى العرب" و"القبس" و"الوعى القومى" وما يجرى هذا المجرى، وليس فى سورية من يستغرب أو ينكر اسمًا من هذه الأسماء، أو يحس أنها ثقيلة على

اللسان حتى باعة الصحف ينادون بها كأنها أحلى الأسماء وأخف الكلمات وأعذبها.

والأمر في مصر على نقيض هذا، فإن اختيار اسم سهل الدوران على اللسان من أشق المتعبات المضنيات التي يعانيها من يهم بإصدار صحيفة ما يومية أو أسبوعية أو شهرية، والمصري يعني عند اختيار الاسم، بسرعة ذيوعه وخفته على لسان البائع حين يرفع به عقيرته ويدهوره في شدقيه، وأذكر أن مجلة (ريدرزدايجست) حين أرادت أن تصدر طبعة عربية في مصر رأت أن تعقد مسابقة كلفتها مالاً وجهداً للاهتداء إلى الاسم الموافق فكان "المختار".

ومن الخطأ أن يتوهم أحد أن المسألة مسألة ذوق، وأن الذوق الشامي غير الذوق المصري، فالذي يتقبله هذا لا يتقبله ذاك ولا يخف على قلبه، فإن السوريين لا يستثقلون أو يستهجنون اسمًا من أسماء الصحف والمجلات المصرية، ولا يرون أنها بدع أو غير موافقة إلى آخر ذلك، وإنما الأمر مرجعه إلى روح العروبة كما قلت، فالسوري الذي يريد إصدار صحيفة لا يعنيه إلا أن يكون الاسم عربيًا صحيحًا مقبولاً، يؤدي المعنى المنشود ويحرك النفس لما يريد، وقد يؤثر التواضع والتطامن فيسمي جريدته (القبس) أو (الف باء) أو يرى أن يجهر بغايته ولا يخافت بها فيطلق عليها اسم (فتى العرب) أو (الوعي القومي) – وهي صحيفة اللاذقية – وهمه في الحالين المعنى العربي وباله إليه لا يحوله عنه.

وتلك مزية للشام لا تستغرب، فقد كانت وما زالت موئل العروبة وأبناؤها هم الذين يرجع إليهم الفضل في إزخار تيار الحركة العربية في هذا القرن، أما مصر فإنها على أصالتها في العروبة، لا تعد بالقياس إلى سورية إلا إحدى الروافد، وإن كان لا شك أنه رافد عظيم غمر الماء جم الحدود.

(١٩)

فـى مهرجـان المعـرى[٥٤]

أقيمت حفلتا المهرجان الأولى والثانية فى قاعة المحاضرات بالجامعة السورية.

وأكبر ظنى أن من القراء من يضحكون الآن، إذ يقرأون هذا، ويقولون إن المازنى قد عاد فبدأ من البداية، فإذا كان كل بضع عشر مقالات سينكفئ بنا راجعًا إلى الفاتحة، فمتى يا ترى نرجو أن تختم هذا الحديث؟

وأنا أكره أن يزعج القارئ شىء، ولهذا أبادر فأطمئنه، فما ذكرت الحفلتين الأوليين إلا لأذكر القاعة، وحتى القاعة ليست مبتغاى، وإن كانت رحيبة وطويلة عريضة، وصدرها مُحلى بأعلام الأمم العربية جميعًا، ولكن هذا الصدر كان إلى ظهورنا على المنصة، فكنا لا نراه إلا إذا لوينا أعناقنا ليًا شديدًا.

وكانت القاعة غاصة بالرجال، ومجهزة بما يحمل صوت المتكلم، ولو كان خفيضًا كصوتى، إلى آخر من فيها، بل يجعله يجلجل كالرعد، وإذا كان معدنه قويًا كأصوات فخامة السيد القوتلى، أو السيد عارف النكدى أو السيد شفيق جبرى الشاعر، وهذه لا حاجة بها إلى معين فإنها تسمع الصم.

وللقاعة شرفات ثلاث ممتدة على الجوانب الثلاثة – من فوق – كانت هى أيضًا غاصة، ولكن بأندر زهرات دمشق، وكن جميعًا "يجلسن" سافرات لا يرحمن ضعفنا،

---

(٥٤) نشرت فى "البلاغ"، فى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٤ (ص٣) .

ولا يترفقن بطيننا الواهى الجزع، على أن قلبى مات من زمان فلا خوف عليه أن يصاب بسهم من هذه العيون التى لا أمان لها، فكنت أغافل جيرانى وأصعد طرفى وأختلس النظرات من حين إلى حين، ولم يكن هذا منى من قبيل العبث أو على سبيل الشيطنة وإنما كان لأنى أفكر وأتعجب.

وملت على جار لى وقلت مازحًا: "هل نساء الشام دميمات؟".

فجاهد أن يخفض صوته وهو يقول هامسًا، ويوده لو تسنى له أن يصيح: "العمى! ألا تراهن؟".

فلم أرحمه وسألته: "إذن لماذا يتحجبن؟".

فرمانى بنظرة ولم يجب.

وأدرت عينى فى مقاعد الرجال – تحت – وعدت إليه أغمزه فابتسم، وهو يلتفت إلىّ ويسأل: "هل ركبك عفريتك؟".

قلت: "لا تخف علىّ، بل خف على نفسك؟ انظر" وأومأت بأصبعى إلى آخر الصف الأول الذى يواجهنا ونحن جلوس على المنصة.

فنظر، وهز رأسه وأدار إلىّ وجهه وسأل: "ماذا؟".

فكانت هذه فرصة أثأر فيها لنفسى، فصحت به: "العمى! ألا ترى الآنسة فلك طرزى جالسة بين الرجال؟".

فزوى ما بين عينيه، وزام، فانصرفت عنه بعد ذلك، إلى ما يدور فى نفسى.

والآنسة فلك طرزى أديبة صديقة لى، عزيزة علىّ، ولقد لقيت من كرمها وعطفها ومروءتها ما يعيينى شكره، وأتعبتها حتى خيّل إلىّ أنى أزهقت روحها، ولكنها ظلت

غير واضحة فى الأصل (المحرر) .

على عهدى بها من الوفاء وصدق المودة، وكانت جلستها هذه بين الرجال فى مهرجان المعرى، دون بنات جنسها، مظهراً يفقأ العين لثورتها على الحجاب، وقد كنا فى رحلتنا الطويلة إلى شمالى سوريا نخوض فى كل موضوع ولكنا كنا ندور ونلف ثم نكر إلى حديثها أو حديث الحجاب والسفور فى الحقيقة، فكان الأستاذ الشيخ المغربى يقول إنه لا ينكر السفور أو يأباه، على أن يكون شرعيًا، ولكن ينكر أن تخرج المرأة وحدها وأن تجالس الرجال.

فأقول له: "ولماذا؟ ماذا تخشى عليها؟ إن فضيلة المرأة المحجوبة السجينة فى بيتها التى لا تخرج إلا فى حراسة الزوج أو الأخ أو الابن، هى فضيلة الجدران الأربعة، وأخلق بها أن تفقد القدرة على المقاومة والكفاح لأنها استغنت عنهما بما يحميها من غير ذات نفسها، فلم تتعودهما".

وضربت له مثلاً فقلت: إنى كنت فى حداثتى، لجهلى، أخاف البرد، فلا أزال أستكثر من الثياب، وكنت ألف على رأسى فوطة كبيرة عند النوم فكان الزكام كثيراً ما يصيبنى ويتعبنى، فاستشرت طبيبًا حاذقًا، فلما رأى كثرة ما على بدنى من الثياب، وكان الوقت صيفًا، قال إن هذه هى العلة؛ فإن ثيابك هى التى تقاوم البرد دون جسمك، فأقل تعرض للهواء يسقمك لأن جسمك لم يتعود المقاومة، فينبغى أن تعوده ذلك، والصيف هو فرصتك، فخفف ثيابك شيئًا فشيئًا ونم عاريًا إلا من غطاء رقيق وأوصد النوافذ فى البداية ثم افتحها قليلاً قليلاً حتى تألف ذلك، فصدرت عن رأيه فلما جاء الشتاء ألفيتنى قد استغنيت عن المعطف وعن الأردية الصوفية أيضًا، وأنا الآن أسن مما كنت وأضعف، وإن كيانى لركيك جداً، ولكن الشتاء أحب الفصول إلىّ، وأنا أقوى على احتماله من الضخام الأبدان، لأنى عودت جسمى المقاومة ولم أكلها إلى الملابس، ولم أعول عليها فى ذلك. وهذا مثال المرأة المحجوبة، والمرأة السافرة، فالأولى لا قدرة لها على المقاومة إذا احتاجت إليها لأن غيرها يتولاها عنها – وأعنى بغيرها جدران البيت والرجال الذين يحمونها – أما السافرة فقد نزلت إلى الميدان وبرزت إلى الرجال فهى خليقة أن تكتسب على الأيام القدرة على المقاومة، وأن تستفيد حصانة

ذاتية تغنيها عن وقاية الجدران وحماية الرجال.

وكان الأستاذ ساطع بك الحصرى يصغى إلى حوارنا هذا ونحن فى السيارة، ويشارك فيه، فسأل الأستاذ الشيخ المغربى: "هل أنت سفورى يا أستاذ؟".

قال الأستاذ: "نعم، فى حدود الشرع".

قال ساطع بك: "وهل بناتك سافرات؟".

قال الأستاذ: "لا".

قال ساطع بك: "إذن لست سفوريًا".

وأكد له أن السفور لا مهرب منه، وإن من العبث محاولة الوقوف فى وجه تياره، وإنه خير للأمة أن تشترك المرأة فى حياتها بنصيبها العادل.

على أنى أود أن أقول إن حجاب المرأة السورية لا يمنعها أن تقوم بجهد مشكور فى خدمة بلادها، وقد أنشأت السوريات جمعيات شتى لحماية الطفولة ورعاية اليتامى وغير ذلك، ولكن النطاق بطبيعة الحال محدود.

وكانت الجلسة الأخيرة للمهرجان فى الجامعة السورية أيضًا، فأناب الجنس اللطيف عنه فتاة وقفت تدافع عن المرأة وتنقض أقوال المعرى فيها وكانت فصيحة لبقة وإن لم تكن بارعة الجمال، وأحسب أن الطبيعة لا تجود بالمزايا بغير حساب، وقد ناصرت "الشرقات" نائبتها مناصرة قوية، فأكثرن من التصفيق، ولم يكن الرجال أقل تشجيعًا، فتعجبت الرجال يتقبلون دفاع الفتاة عن جنسها بصدر رحب، ويشجعونها ويثنون عليها، ولا يرون أن يناصروا رجلاً منهم أساء الظن بالمرأة واتهمها فى عقلها ودينها وخلقها، أما النساء فيتعصبن، ولا يكتمن عصبيتهن، فهل كن يفعلن ذلك لو كن غير حبيسات أو غير شاعرات بأنهن مهضومات الحق مغبونات فى المجتمع؟ أما كن خليقات أن يفسحن صدورهن كإفساح الرجال ويتقبلن كل رأى فيهن - لهن أو عليهن - بلى، وإن هذه لمزية الحرية، أو أثرها المحمود.

أبو العلا المعرى

كلمة الأستاذ المازنى فى العيد الألفى[٥٥]

(١)

ألقى الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى، وكيل نقابة الصحفيين وممثل النقابة فى الاحتفال بذكرى أبى العلاء المعرى بدمشق، كلمته عن هذا الشاعر الفيلسوف يوم الخميس الماضى وفيما يلى القسم الأول من هذه الكلمة على أن نتبعه بالقسم الثانى غداً إن شاء الله:

* * *

اسمحوا لى - قبل أن أدخل فى الموضوع - أن أتوجه بالشكر إلى المجمع العلمى العربى الموقر على تفضله بدعوتى ودعوة نقابة الصحفيين المصرية التى أولتنى شرفًا عظيمًا بندبى لتمثيلها فى هذا المهرجان التاريخى، وكنت لما تلقيت دعوة المجمع الكريمة منذ شهور لا أرى أن الحال تسعف بتلبيتها، ثم رأى مجلس النقابة أن ينيبنى عنه ففاجأنى مفاجأة سارة فله منى الشكر على ما أعان ويسر، ولعل مما يسركم أن أبلغكم أن رجال الصحافة المصرية مجتمعون اليوم وفى هذه الساعة بناديهم بمصر وأن كلمتى تتلى عليهم الآن، لا لقيمتها بل على سبيل التأكيد لمشاركتهم لكم فى الاحتفال بذكرى هذا الشاعر الجليل.

---

(٥٥) نشرت فى "البلاغ" فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٤ (ص٣ - ٤).

والشكر أولاً وآخراً لحكومة سوريا الشقيقة على ما ألطفتنى وخصتنى به من التسهيل والتذليل وما نقلتنى لا مسؤولة ولا مكلفة، ولولا حسن صنيعها لكان الأرجح أن لا أدرك الاحتفال فى حينه.

وأرى بعد ذلك واجباً أن أصحح خطأ غير مقصود مرجعه إلى آفة لا برء لى منها على ما يظهر، فقد كنت قبل حضورى إلى الأستاذ الجليل محمد كرد على بك رئيس المجمع الموقر أقول له إن عنوان موضوعى هو "أبو العلاء شاعر إنسانى" والواقع أنى كنت إلى ذلك الوقت حائراً لا أهتدى ولا أدرى أية ناحية من أبى العلاء يحسن بى أن أتناولها وزاد حيرتى علمى أن معظم أعلام الأدب قد وفدوا على دمشق ليقولوا فى المعرى، ويقينى أنهم لن يتركوا لى باباً أدخل منه أو كوة صغيرة أنفلت منها وكان الوقت قد ضاق والمراجعة الواجبة طويلة، والمشاغل لا هينة ولا قليلة، والعنوان آخر ما أكتب وهو على كل حال شىء لا أحسنه، ولقد أخرت كتاباً لى فى المطبعة سنة كاملة حتى وفقنى الله فاهتديت على اسم له وأصارحكم أنى ما تسنى لى أن أكتب كلمتى هذه إلا قبل مقدمى بيوم واحد فأنا لهذا أخشى أن يكون عنوان كلمتى مضللاً أو اسماً على غير مسمى، ولهذا وجب التنبيه وإبراء الذمة، أما الموضوع الذى سأتلوه فلا أدرى ماذا أدعوه وكل ما أدريه أنى أحوم فيه وأدور حول أبى العلاء.

* * *

يرجع عهدى بأبى العلاء إلى أيام الطلب والتحصيل – أى إلى نحو خمسة وثلاثين عاماً أو تزيد – ولعل الأصح أن أقول إلى بداية أيام الطلب فما أعرفها تنتهى أو تنتهى الحياة نفسها، وما زالت الدنيا مدرسة لا يتخرج فيها المرء ولكن يخرج منها، وما فتئت أرجع إليه حيناً بعد حين، حتى تقضى من العمر خير شطريه وأطيبهما، وأطولهما فيما أخشى، فما يتكافأ شطران من عمر تكافؤ شطرى بيت منظوم، ولا يلتزم ربنا معنا ما يلتزم شعراؤنا من الوزن والقافية، فلا تنفك أوزاننا تتغير وتتنوع وتتفاوت، ولولا ذلك لضقنا بأنفسنا وسئمنا أن تجرى حياتنا على استواء، وعسى أن تكون هذه حجة لمن يضجره استواء البحور العربية.

وأذكر أننا كنا فى الفرقة النهائية للتعليم الثانوى، وكنا ذات يوم نعرب أبياتًا للمعرى فى الفخر - وما أقل ما كان يفخر - فدخل علينا المرحوم عاطف بركات باشا - وكان يومئذ مفتشًا للغة العربية، وكانت فيه صراحة تلتبس بالفظاظة والجفوة - وقال: "اسمعوا، هذا الشعر يصلح للإعراب ككل شعر آخر، ولكنه من أردأ ما قال المعرى وسأحدثكم عنه حديثًا وجيزًا أوجهكم به إليه، فإنه شاعر جليل القدر منى فى حداثته بذهاب بصره فحيل بينه وبين السعى والتصرف وعكف على الدرس لا يشغله عنه شاغل وتوفر على ما كان فى زمانه من علوم وآداب وفنون، حتى الرياضيات والموسيقى والفلك، فلم يكد يفوته شىء، ولزم بيته وسمى نفسه رهين المحبسين محبس الدار التى لا يفارقها، والعمى الذى لا يفارقه، وراح يتفكر ويتدبر، ويملى ما يدور فى خاطره ويضطرب به فؤاده، فله شأن غير شأن من سبقوه وتلوه من الشعراء الذين يتكسبون بالشعر ويتخذونه أداه للرزق، وقد جارى غيره قليلاً فى البداية ثم كف وأقصر، وستحتاجون وأنتم تقرأونه إلى المعجم فإن الشيخ كان يتكلف الإغراب على أن المعجم لا غنى عنه لقارئ الأدب العربى وستجدون أبا العلاء فيما عدا ذلك أصفى من الجدول الرقراق.

فكان أن اقتنيت سقط الزند واللزوميات وعكفت عليهما وما أظن به إلا أنه قوّى فى نفسى ميلى فى أيام الشباب إلى التشاؤم وأعدانى بخواطره السود ولكنه علمنى أن أنظر بعينى، وأفكر بعقلى، وصدنى عن التقليد والمحاكاة، وحبب إلىّ الخير والرحمة والإنصاف وبغض إلىّ الظلم والبغى، وإن كان لم يهدنى، وله العذر فما كان اهتدى حتى يهتدى سواه.

ولم يتغير رأيى فيه بعد أن زدت خبرة بالحياة وتجربة للدنيا واطلاعًا على الأدب، فما زال عندى فى المحل الأول بين الشعراء، وإن كان لا يعجبنى يأسه من الخير والصلاح، وعزوفه عن الدنيا ونكوصه عن الضرب فى زحمة الحياة، ولكنى أفهم دواعى ذلك وأعذره، ولا شك فى أن الزهد والاعتزال ينافيان الطباع حتى فى الحيوان، ولكنه لم يكن زاهدًا وإنما كان يتزهد ويشيح بوجهه عامدًا، ويروض نفسه على الحرمان أو

كما يقول الميمنى فيه: "روض نفسه وقنعها على الكفاف فعاد شماسها انقياداً، وألقت إليه مقاداً، ولا بد أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا"، وليس هذا بصحيح كل الصحة أعنى أن نفسه لم تلق إليه مقاداً ولم يعد شماسها انقياداً كما سنرى.

وقد عرف عنه أنه فى صباه كان يلهو ويعبث ويلعب الشطرنج والنرد وهو القائل بعد أن تقضى الشباب(٥٦):

أَلَم تَرَنى حَمَيتُ بَناتِ صَدرى	فَما زَوَّجتُهُنَّ وَقَد عَنَسنَه
وَلا أَبرَزتُهُنَّ إِلى أَنيسٍ	إِذا نورُ الوُحوشِ بِهِ أَنِسنَه
وَقالَ الفارِسونَ حَليفُ زُهدٍ	وَأَخطَأَتِ الظُنونُ بِما فَرَسنَه
وَرُضتُ صِعابَ آمالى فَكانَت	خُيولاً فى مَراتِعِها شَمَسنَه
وَلَم أُعرِض عَنِ اللَذّاتِ إِلّا	لِأَنَّ خِيارَها عَنّى خَنَسنَه
وَلَم أَرَ فى جِلاسِ الناسِ خَيراً	فَمَن لى بِالنَوافِرِ إِن كَنَسنَه

فهو كما ترون يخطئ أهل الفراسة الذين يزعمونه حليف زهد ويقول إنه راض صعاب آماله فظلت كالفرس الشموس الذى يمنع الراكب ظهره، وما أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها تفوته، وهو يشتهى أن يأنس بالناس ولكنهم كالظباء النافرة التى تدخل كناسها، وكان واسع المطامع ففاته أن يكون بحيث يحب فنفر وآثر العزلة وقد صاح مرة(٥٧):

أَيَأتى نَبِيٌّ يَجعَلُ الخَمرَ طَلقَةً	فَتَحمِلَ ثُقلاً مِن هُمومى وَأَحزانى

(٥٦) من الوافر ويعنى بالفارسون أهل الفراسة (المحرر) .

(٥٧) من الطويل (المحرر) .

ثم آثر الاحتشام والتجمل وكره لنفسه أن يسكر ويخف عقله فقال:

وَهَيهاتَ لَو حَلَّت لَما كُنتُ شارِبًا ... مُخَفِّفَةً فى الحِلمِ كِفَّةَ ميزانى

وهو كثير التحديث لنفسه بالخمر، يأسف مرة على حرمانها فيقول[٥٨]:

تَمَنَّيتُ أَنَّ الخَمرَ حَلَّت لِنَشوَةٍ ... تُجَهِّلُنى كَيفَ اطمَأَنَّت بِىَ الحال

وتارة يكرر بغير داع أنها لو كانت حلالاً لما شربها فيقول[٥٩]:

لَو كانَتِ الخَمرُ حِلاً ما سَمَحتُ بِها ... لِنَفسِىَ الدَهرَ. لا سِراً وَلا عَلَنا

فَليَغفِرِ اللهُ، كَم تَطغى مَآرِبُنا ... وَرَبُّنا قَد أَحَلَّ الطَيِّباتِ لَنا

وهو فى "رسالة الغفران" يصف مجالس الخمر والمنادمة عليها ويقول إنما لذة الشرب فيما يعرض لهم من السكر، ولولا ذلك لكان غيرها أعذب، وهو القائل أيضًا[٦٠]:

وَلَولا أَنَّها بِاللُبِّ تُزرى ... لَكُنتُ أَخا المُدامَةِ وَالنَديمِ

وقال فى ذمها والتحذير منها[٦١]:

البابِلِيَّةُ بابُ كُلِّ بَلِيَّةٍ ... فَتَوَقَّيَنَّ هُجومَ ذاكَ البابِ

جَرَّت مُلاحاةَ الصَديقِ وَهَجرَهُ ... وَأَذى النَديمِ وَفُرقَةَ الأَحبابِ

أُمُّ الحَبابِ. وَإِن أُميتَ لَهيبُها ... بِمِزاجِها وافَت كَأُمِّ حُبابِ

هَتَكَت حِجابَ المُحصَناتِ وَجَشَّمَت ... مُهَنَ العَبيدِ تَهَضُّمُ الأَربابِ

وَتُوهِمُ الشَيبَ المَدالِفَ أَنَّهُم ... لَبِسوا عَلى كِبَرٍ بُرودَ شَبابِ

وَإِذا تَأَمَّلتَ الحَوادِثَ أُلفِيَت ... صُهُبُ الدِنانِ أَعادِىَ الأَلبابِ

(٥٨) من الطويل (المحرر).
(٥٩) من البسيط (المحرر).
(٦٠) من الوافر (المحرر).
(٦١) من الكامل (المحرر).

وقال أيضاً فى هذا المعنى[٦٢]:

هى الراحُ أهلاً لطول الهجاءِ وإن خصَّها معشرٌ بالمدَحِ

فلا تُعجبَك عروسُ المُدام ولا يُطربَنكَ مُغنٍ صَدحِ

ومَن يَفتقِد لُبَّه ساعةً فقد باتَ فيها بخطبٍ فدَحِ

قبيحٌ بمن عَدَّ بَعضَ البِحارِ تَغريقُهُ نفسَهُ فى قَدحِ

قال فى الدنيا [التى] عالج الانصراف عنها[٦٣]:

أيُها الدُنيا لحَاكِ اللهُ مِن ربَّةِ دَلِ

ما تَسَلى خَلَدى عَنكِ وإن ظَنَّ التَسَلى

وقال أيضاً[٦٤]:

طالَ صبرى فَقيلَ أَكثَمُ شَبعا نَ وإنى لَمُنطَوٍ طَيَّانُ

أى جائع متعمد للجوع، وقال يصف مجاهدته نفسه[٦٥]:

مُهجَتى ضِدٌ يُحارِبُنى أنا مِّنى كَيفَ أَحتَرِسُ؟

وقال[٦٦]:

حَبستك أقدارٌ ذَوَتكَ عَن المُنى فَمَضى الصِحَابُ وأَنتَ ثاوٍ حابِسُ

---

(٦٢) من المتقارب (المحرر).

(٦٣) من مجزوء الرمل (المحرر).

(٦٤) من الخفيف (المحرر).

(٦٥) من المديد (المحرر).

(٦٦) من الكامل (المحرر).

وقال[٦٧]:

وما يَتـرُكُ الإنسـانُ دُنيـاهُ راضـيًا | بعـزٍ ولكن مُـسـتـضـامًا على قَـسـرِ

وقال[٦٨]:

والعـزُّ فـى الثـروَة، والعَـيشُ فى الـ | ـحَـبَـرة، والحِـرفـةُ فى المحْـبَـره

وقال[٦٩]:

تُـنازعُنـى إلى الشَـهـواتِ نَفْـسِى | فَـــلا أنـا مُـنـجَـحٌ أبدًا ولا هـى

وقال[٧٠]:

أُريدُ لِبـانَ العـيـشِ فى دارِ شـقـوَةٍ | وَتَأبى الليـالى غَـيـرَ بُخلٍ ولَيـانِ

ويُعجِبُنى شَـيئـانِ خفضٌ وصـحَّةٌ | ولكنَّ رَيبَ الدَهرِ غَـيـرُ شَـيَّـانى

ومـا جَـبَـلُ الـريَانِ عِندى بِطَائلٍ | وَلا أنا من خُـودِ الحِـسـانِ بريَّانِ

وفى "رسالة الغفران" يجعل ابن القارح يلتقى باثنين من الحور من الضرب الذى نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة، فيُقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها فيهيجه ذلك إلى ما به ويصيح: "إن امرأ القيس لمسكين، مسكين، تحترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقوله[٧١]:

كـأنَّ المُـدامَ وصَـوبَ الغُـمـامِ | وريحُ الخُـزامى وصَـوبُ القُطُرِ

يـعـلُّ بـهِ بَـردُ أَنـيـابِـهـا | إذا غـردَ الطائرُ المسـتَـحـر

إذا غـردَ الطائرُ المسـتَـحِـرِ | إذا غـردَ الطائرُ المسـتَـحِـرِ

(٦٧) من الطويل (المحرر).

(٦٨) من السريع (المحرر).

(٦٩) من الوافر (المحرر).

(٧٠) من الطويل (المحرر).

(٧١) من المتقارب (المحرر).

ولا يزال المعرى فى هذه الرسالة يلتفت إلى مواضع معينة فى جسد المرأة ولا يخلو من هذا من دلالة، وفى "الفصول والغايات" تقرأ له كثيراً من أمثال هذه الكلمات:

"يا أرض، لا قرض عندك ولا فرض، أودعت المال فرددته سالمًا، والخليل فأكلته راغمًا، ليتك أكلت المال ورددت الخليل، إنما أنا كرجل [بلى] الصدى (العطش) لا يجد ورداً ولا مورداً، فهو ظمآن أبدًا". (أى لا يجد نصيبه من الماء ولا موضعًا يرده فيطفئ ظمأه).

"وإن الله خلقنى لأمر حاولت سواه فألفيت المبهم بغير انفراج، وفطام ابن العامين أيسر من فطام ابن الأعوام، وأعيا تأديب الهرم على الأدباء، وقد صرفت نفسى فى الشبيبة فألفيتها صاحبة جماح، فالآن وقد اسمألت الظلال (قصرت) إن تركتها أسفت، وإن زجرتها فلا انزجار، كأن كلامى سفير الريح (ما تكنسه من الورق) ما لها إليه التفات، وقد سئمت الحياة، وأخاف أن [أقبل] فأقدم على ما حزن وساء، وأنا أغفلت الحزم، ملت عن الجدد و[مشيت] فى الخبار، وقد خلصت من الحبالة فكيف عدت، وعلى علم وضعت القدم فى النار، أحلف يا نفس، ولك الحلف، لقد ضيعت آخرتك ودنياك، ما وفق رجل آمن الله وخشى الناس، أسعى للنفس فيما تكره كأنى لها غاش، أنا وهى شىء لا ينماز، نتراد الملامة كأننا اثنان، تلك محارة فى حور، إن جنت على أو جنيت كيف يقع القصاص؟ أفنيت الشبيبة سوى سواد قد آن له أن [يبذل] ببياض"..إلخ.

ولا داعى للإكثار من الشواهد، فإن أبا العلاء إنسان وليس بإنسان من لا يشتهى الحياة الرضية والمتعة المرضية والسلامة من البأساء والضراء، وإن أبا العلاء لإنسان عريق فى الإنسانية، يحب الحياة كما نحبها جميعًا، ويفزعه المصير الذى لا معدى عنه ولا مهرب منه، تأمل قوله[٧٢]:

وكلكمُ يُبدى لدُنياهُ بغضةً ... على أنهُ يُخفى بها كَمَدَ الصبِّ

(٧٢) من الطويل (المحرر).

وقوله[٧٣]:

تبغي الثراءَ فتُعطاهُ وتُحرمهُ ... وكلُّ قلبٍ على حُبِّ الغنى جُبلا

لو أنَّ عشقكَ للدُنيا لهُ شَبحٌ ... أبديتهُ لملأتَ السهلَ والجبلا

وقوله[٧٤]:

أُشرِبتُ حُبكِ لا ينفيهِ عن جَسَدى ... سوى ثَرًى لدماءِ الإنسِ شَرابِ

وقوله[٧٥]:

وصدقتُ هذا العَيشَ فى حُبّى لَهُ ... واغترَّنى بِخداعهِ وكِذابِهِ

وقوله[٧٦]:

شَقينا بدُنيانا على طول ودها ... فدونَكَ مارِسها حَياتَك واشقَها

ولا تُظهرَنَّ الزُهدَ فيها فَكلُنا ... شهيدٌ بأنَ القلبَ يُضمرُ عِشقَها

وقوله فى "الفصول والغايات":

"أيها الدنيا البالية، ما أحسن ما حلتك الحالية، أين أممك الخالية، إن نوبك المتوالية، والنفس عنك غير سالية"، "كسبت الحداثة فأبليتها، وأعطيت الحداثة فتمليتها، ما خلوت من الجرائم ولا خليتها، قلتنى دنياى فما قليتها، اكتلأتها فما اكتليتها" (راقبتها فما أصبت شيئًا)، "أسب نفسى وتسبنى، وأريد الخير لا يجبنى أحب الدنيا كأنها تحبنى، والحرص يوضعنى ويخبنى. والغريزة عن الرشد تذبنى"، "ويحى كل الويح. أحب الدنيا وآلتها ليست فىَّ، وقد يئست من بلوغها، واليأس مريح، فالأم التشوف إلى الضلال".

إبراهيم عبد القادر المازني

(٧٣) من البسيط (المحرر).
(٧٤) من البسيط (المحرر).
(٧٥) من الكامل (المحرر).
(٧٦) من الطويل (المحرر).

أبو العلا المعرى

كلمة الأستاذ المازنى فى العيد الألفى[٧٧]

(٢)

ننشر فيما يلى القسم الثانى من كلمة الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى، وكيل نقابة الصحفيين فى الاحتفال بالعيد الألفى لأبى العلاء المعرى، وسننشر غداً القسم الثالث:

* * *

ومن فرط حبه للحياة وتعلقه بها وحرصه عليها وأسفه على ما فاته فيها وحرمه، كان جزعه من الموت، واستهواله له، وطول تفكيره فيه وفيما يليه، وحيرته بين الجبر والاختيار. وشكه فى كل شىء إلا أن الموت حق ومصير محتوم:

إِذا مـــا تَبـــاشَـــرَ أهلُ الغُـــلامِ   بِـه فَــالتَــبــاشُــرُ مَــعنًــى هَـلَك

أَلَـم تَـرَيـا أن سِـلـكَ الـزَمـــــانِ   أَفنـى السَـلـيكَ وأَفنـى السُـلَك[٧٨]

يَمُــرُّ الحَــولُ بَعــدَ الحَــولِ عَنّى   وَتِلكَ مَـصــارِعُ الأَقـوامِ حَــولـى

كَــأَنّىَ بِالأُلى حَــفَــروا لِجــارى   وَقَد أَخَذوا المَحافِرَ وَانتَحَوا لى[٧٩]

---

(٧٧) البلاغ ١ أكتوبر سنة ١٩٤٤ (ص٣ - ٤).

(٧٨) من المتقارب (المحرر).

(٧٩) من الوافر (المحرر).

سَيَسْأَلُ ناسٌ ما قُرَيشٌ ومَكَّةٌ كَما قالَ ناسٌ ما جَديسٌ وَما طَسمُ

أرى الوَقتَ يُفني أنفُسًا بفَنائه وَيمحو فَما يَبقى الحَديثُ وَلا الرَسمُ[٨٠]

تبَكّى عَلى المَيتِ الجَديدِ لأَنَّهُ حَديثٌ وَيُنسى مَيتُكَ المُتَقادمُ[٨١]

لَو كانَ يَنطِقُ مَيِّتٌ لَسَأَلتُهُ ماذا أحَسَّ وَما رأى لَما قَدِم[٨٢]

إذا الحَيُّ أُلبِسَ أكفانَهُ فَقَد فَنِيَ اللُبسُ وَاللابِسُ

وَيَبلى المُحَيّا فَلا ضاحِكٌ إذا سَرَّ دَهرٌ وَلا عابِسُ

وَيُحبَسُ في جَدَثٍ ضَيِّقٍ وَلَيسَ بِمُطلِقِهِ الحابِسُ

فَما هُوَ في سَلَفٍ سائرٌ وَلا هُوَ في جِندِسٍ قابِسُ

يُجاوِرُ قَوماً أجادوا العِظاتَ وَما فيهِمُ أحَدٌ نابِسُ[٨٣]

أمّا اليَقينُ فَلا يَقينَ وإنّما أقصى اجتِهادي أن أظُنَّ وأحدِسا[٨٤]

---

(٨٠) من الطويل (المحرر).

(٨١) من الطويل (المحرر).

(٨٢) من الكامل (المحرر).

(٨٣) من المتقارب (المحرر).

(٨٤) من الكامل (المحرر).

وَمَـدُّ وَقـتِـىَ مِـثلُ القِـصـرِ غـايَتُـهُ   وَفى الهَلاكِ تَساوى الدُرُّ وَالبَرَدُ[٨٥]

فــــى الــــوتــــر والمــــوتــــور   وعـنـد الله عـلـم الـذاهـبــــيـن

* * *

ولا آخر لقوله - شعرًا ونثرًا - فى الموت والفناء، حتى الكواكب لا منجاة لها من هذا المصير:

يَجوزُ أَن تُطفَأَ الشَمسُ الَّتى وَقَدَت   مِن عَـهـدِ عـادٍ وَأَذكى نارَها المَلِكُ

فَإِن خَبَت فى طَوالِ الدهرِ حُمرَتُها   فَلا مَـحـالَةَ مِن أَن يُنقَضَ الفَلَكُ[٨٦]

زُحَـلٌ أَشــرَفُ الكَـواكِبِ داراً   مِنْ لِقـاءِ الـرَدى عـلى مـيـعـادِ

ولِـنـارِ المِرّيخِ مِن حَـدَثانِ الدَهْـ   ـرِ مُطْفٍ وَإِنْ عَلَتْ فى اتِّقـادِ

وَالثَـرَيّا رَهينَةٌ بِافْتِـراقِ الشَـمْلِ   حَـتّى تُعَـدَّ فـى الأَفـرادِ[٨٧]

وَقَد زَعَموا الأَفلاكَ يُدرِكُها البِلى   فَإِن كانَ حَقّاً فَالنَجاسَةُ كَالطُهرِ[٨٨]

* * *

(٨٥) من البسيط (المحرر).
(٨٦) من البسيط (المحرر).
(٨٧) من الخفيف (المحرر).
(٨٨) من الطويل (المحرر).

وما مصير من يفكر على هذا النحو؟ مصيره ولا ريب إلى اليأس، وإلى أن يستوى عنده الجهل والعلم والهدى والضلال وإلى حيرة مضنية لا مخرج منها، ولهذا تراه لا ينفك ينفى ويثبت ويقول بالرأى ونقيضه:

وَما فَسَدَت أَخلاقُنا باختيارِنا   وَلَكِن بِأَمرٍ سَبَّبَتهُ المَقادِرُ[٨٩]

وَمَن يَظفَر بِأَمرٍ يَبتَغيهِ   فَأَقضِيَةُ المُهَيمِنِ وَفَّقَتهُ[٩٠]

ما بِاختِيارى ميلادى وَلا هَرَمى   وَلا حَياتى فَهَل لى بَعدُ تَخييرُ[٩١]

تَتَخَيَّرينَ الأَمرَ كَى تَحظَى بِهِ   هَيهاتَ لَيسَ عَلى الزَمانِ تَخَيُّرُ[٩٢]

لَو يَنطِقُ السَيفُ نادى لَيسَ لى عَمَلٌ   إِذا قَضى مالِكُ الأَفلاكِ أَنضانى
وَإِن كَهِمتُ فَأَمرُ اللَهِ أَكهَمَنى   وَإِن مَضَيتُ فَأَمرُ اللَهِ أَمضانى[٩٣]

* * *

وهو مغلوب على أمره فى كل شىء :

مِن وَسَخٍ صاغَ الفَتى رَبُّهُ   فَلا يَقولَنَّ تَوَسَّختُ[٩٤]

---

(٨٩) من الطويل (المحرر).
(٩٠) من الوافر (المحرر).
(٩١) من البسيط (المحرر).
(٩٢) من الكامل (المحرر).
(٩٣) من البسيط وكَهِمتُ وأكهمنى بمعنى جبنت وأجبننى (المحرر).
(٩٤) من السريع (المحرر).

نَهـانِىَ عَـقلى عَن أُمـورٍ كَـثـيـرةٍ   وَطَبـعى إِلَيـهـا بِالغَـريزَةِ جـاذِبى[٩٥]

قَـضى اللَهُ فـينا بِالَّـذى هُوَ كـائِنٌ   فَـتَمَّ وَضـاعَـت حِكمَـةُ الحُكَمـاءِ
وَهَـل يَأبَقُ الإِنسـانُ مِن مُلكِ رَبِّـهِ   فَـيَـخـرُجَ مِن أَرضٍ لَهُ وَسَـمـاءِ[٩٦]

* * *

ولكنه يعود فيقول بالاختيار:

أَوانِسُ بِـالفَـريدِ مُـقَلَّـداتُ[٩٧]	تَقَلَّـدتِ المَآثِـمَ بِـاختِيـارٍ

تَخَـيَّـر فَـإِمّـا وَحـدَةٌ مِـثلُ مَـيـتَـةٍ   وَإِمّـا جَليسٌ فى الحَـيـاةِ مُنافِقُ[٩٨]

فَـمـا أَذنَبَ الدَهـرُ الَّذى أَنتَ لائِمٌ   وَلَكِن بَنو حَـوّاءَ جـاروا وَأَذنَبـوا[٩٩]

* * *

ثم يتردد ويضطرب ويحتار فيقول :

تَخالَفَتِ الأَشـيـاءُ فى عُقَبِ الرَدى   وَتِلكَ بِحـارٌ لَيسَ يُدرِكُ عِـبـرُها
وَقـيـلَ نُفوسُ الناسِ تَسـطيعُ فِعلَها   وَقـالَ رِجـالٌ بَل تَبَـيَّنَ جَـبـرُها[١٠٠]

---

(٩٥) من الطويل (المحرر).
(٩٦) من الطويل (المحرر).
(٩٧) من الوافر (المحرر).
(٩٨) من الطويل (المحرر).
(٩٩) من الطويل (المحرر).
(١٠٠) من الطويل والأشياعُ تعنى الأشباه والأمثال (المحرر).

أَرى شَواهِدَ جَبرٍ لا أُحَقِّقُهُ	كَأَنَّ كَلاً إِلى ما ساءَ مَجرورُ[(١٠١)]

قالَت مَعاشِرُ كُلٌّ عاجِزٌ خَرِعٌ	ما لِلخَلائِقِ، لا بُطءٌ وَلا سُرُعُ
مُدَبَّرونَ فَلا عَتبٌ إِذا خَطِئوا	عَلى المُسيءِ وَلا حَمدٌ إِذا بَرَعوا
وَلَقَد وَجَدتُ لِهَذا القَولِ في زَمَني	شَواهِداً وَنَهاني دونَهُ الوَرَعُ[(١٠٢)]

* * *

وحار فى الثواب والعقاب، ورأى أن من الظلم العقاب المجبر. ولم يطمئن إلى الجبر، فطمع فى الغفران، وآمن بالعقل وكفر به:

جاءَت أَحاديثُ إِن صَحَّت فَإِنَّ لَها ... شَأناً وَلَكِنَّ فيها ضُعفَ إِسنادِ

فَشاوِرِ العَقلَ وَاترُك غَيرَهُ هَدَراً ... فَالعَقلُ خَيرُ مُشيرٍ ضَمَّهُ النادي[(١٠٣)]

... ... وَالعَقلُ غَرسٌ لَهُ بِالصِدقِ أَثمارُ[(١٠٤)]

* * *

ثم يرجع فيقول :

هِيَ الأَفهامُ قَد صَدِئَت وَكَلَّت ... وَلَم يَظفَر لَها أَحَدٌ بِصَقلِ[(١٠٥)]

---

(١٠١) من البسيط (المحرر).
(١٠٢) من البسيط وفى رواية "كُلٌّ عاجِزٌ ضَرِعٌ" أى ضعيف! (المحرر).
(١٠٣) من البسيط (المحرر).
(١٠٤) من البسيط وشطره الأول: "أَمّا العُقولُ فَآلَت أَنَّهُ كَذِبٌ" (المحرر).
(١٠٥) من الوافر (المحرر).

وَقَــدْ أَعــمَلَ النـاسُ أفكـارَهُـم	فلَم يُغنِهِم طولُ إعـمـالِهـا[106]
وبَصِيـرُ الأقـوامِ مِـثلِيَ أعـمى	فَـهَلُمّوا فى حِندِسٍ نَتَـصادَمْ[107]
قَـد نَفَضتُ السِهـامَ أبغى المَقـايِيـ	سَ فَلَم يُثبِتِ الرَمِيَّـةَ نَفضى[108]
سَأَلتُمونى فَأَعيَتنى إجابَتُكُم	مَن ادَّعى أنَّهُ دارٍ فَقَد كَذِبا[109]
إنَّمـا نَحنُ فى ضَـلالٍ وَتَعليـ	ـلٍ فَإِن كُنتَ ذا يَقينٍ فَهاتِه[110]
أَمّـا الحَـقيـقَـةُ فَـهِيَ أَنّى ذاهِبٌ	وَاللَهُ يَعلَمُ بِالَّذى أنـا لاقِ[111]
أنا أعـمى فَكَيفَ أُهدى إِلى المَنـ	ـهَجِ وَالناسُ كُلُّهُم عُمـيانُ[112]
فَـهِمُ الناسِ كَـالجُهـولِ وَما يَظـ	ـفَرُ إلا بِالحَسـرَةِ العُلَمـاءُ[113]

* * *

(١٠٦) من المتقارب (المحرر).
(١٠٧) من الخفيف (المحرر).
(١٠٨) من الخفيف (المحرر).
(١٠٩) من البسيط (المحرر).
(١١٠) من الخفيف (المحرر).
(١١١) من الكامل (المحرر).
(١١٢) من الخفيف (المحرر).
(١١٣) من الخفيف (المحرر).

وحسبنا هذا القدر من الشواهد. وقد قيل إن علة العلل هى عماه، وأن هذه المحنة هى التى حملته على التزهد وإيثار العزلة، ورياضة النفس على الكفاف وأن آفته هذه هى مفتاح شخصيته، فلا سبيل إلى فهم المعرى على حقيقته إلا إذا رددنا كل عمل أو قول له على هذه المصيبة التى أصابته فى طفولته لغير ذنب جناه.

وغير مردود ولا منكور أن ذهاب البصر محنة، ولا سبيل إلى الشك فى أن المكفوف لا يسعه إلا أن يشعر بما حاق به من المكروه، وما حرم من المزية، وإلا أن يألم ويأسف ويتحسر ويتلهف وإن أظهر الجَلَد وأبدى التشدد، ولا يمكن أن تخلو خسارة هذه الجارحة النفيسة من أثر عميق فى نفس المرء وتفكيره واتجاه عقله ونوع إحساسه بالحياة والناس.

كل هذا مسلم لا خلاف عليه، فمما يستوى أن تكون أو لا تكون للإنسان هذه الجارحة وإلا كان خلقها عبثًا وتزايد لا داعى له، ولكنى لا أرى رأى القائلين برد كل شىء إلى فقدانها، ولا أنها هى مفتاح شخصية المعرى، فليس من الحتم أن يُحدث ذهاب البصر هذا الأثر، وقد عمى بشار جنينًا ولم ير ضوء النهار وتحسر وتألم ونقم وسخط، ولكنه لا تزهد ولا اعتزل بل نزل إلى المعترك، وخاض الغمار، وضرب فى الزحمة، وكان حيوانًا كبيرًا، وروى "بيرك" الأديب الإنجليزى المشهور فى كتابه "الجليل والجميل" أنه يعرف عالمًا أعمى كان أستاذًا لعلم الضوء فى الجامعة، وهو قد ولد مكفوفًا، وقرأت منذ شهور كتابًا اسمه "العالم تحت أناملى" لكاتب أمريكى حديث اسمه "كارستن ونسناد" ذهب بصره وهو طالب فى مدرسة عالية أى بعد أن أمتع البصر نحو عشرين عامًا، فالخسارة أفدح، والحرمان أوجع، وقد ترجم فى هذا الكتاب لحياته ووصف ما كان من أمره بعد هذه المحنة وكيف غالبها فغلبها، وهو لا يعتمد إلا على العصى ولا يحتاج إلى من يأخذ بيده ويقوده ولا يرضيه إلا أن يعامله الناس كأن ليس بينه وبينهم فرق، فلا هو أعمى ولا هم بصراء دونه، ووصف كيف كان يشارك الطلبة فى ألعابهم ومغامراتهم حتى الزحلقة على الثلج فى الجبال.

وعندى أن ذهاب البصر لا يورث صاحبه ما زعموه فى أمر المعرى إلا إذا اجتمع أمران على الخصوص: حس مرهف دقيق فى المكفوف، ومجتمع لا يزال يشعره أنه

مكفوف كأن يبدى العطف عليه أو يعيره أو يتعجب لما يكون منه مما يعد، مستعصياً أو مستكثراً على مثله، وأحسب أن عامل المجتمع أقوى الاثنين، فإذا تلقى الناس الكفيف على نحو طبيعى وعاملوه كأنه مثلهم بلا فرق، ونزهوه عن العطف والتعيير والتعجب، فإن أثر العمى فى نفسه على الرغم من دقة الشعور به، يمكن أن يخف جداً لأن الجماعة تصبح عوناً له وتشجعه على مغالبة رزئه والتغلب على قيده وتقيه بسلوكها نحوه من التهويل بمصابه على نفسه.

ومن المحقق على كل حال أن ذهاب البصر ليس هو الذى حمل المعرى على اعتزال الناس ورفض الحياة، وإيثار الوحدة والعزوبة وكراهة أكل اللحم وذبح الحيوان والطير، ولو شاء المعرى لتولى القضاء فى المعرة أو حمص كما تولاه أبوه أبو محمد عبد الله وعمه أبو بكر محمد وجده سليمان وابن أخيه أبواليسر، ولو شاء لما حرم نفسه طيبات لما أحل الله، بل لو شاء أن ينهز مع الغواة بدلائهم ويسيم سرح اللهو مثلهم لفعل، فما حال العمى أو الصمم أو الكساح بين أحد وبين ما يشتهى من ذلك. فإذا قيل إنه كان حساساً جداً، وإنه يستنكف ويكره لنفسه أن يراه أحد خفيف الحلم أو على حال تزرى به، وأن شعوره بكرامته كأن يأبى له أن يطلب فيمنع ويشتهى فيحرم، قلنا إن هذا ليس من العمى بل من دقة إحساسه المرهف وفرط شعوره بنفسه.

ودع هذا واسأل ماذا حرمه العمى؟، إنه شاعر أديب وعالم متفلسف، وقد عرف له أهل زمانه ومن جاء بعدهم من الأجيال غزارة الفضل ووفرة العلم، وحدة الذكاء، وسعة الإحاطة باللغة، والحذق بالنحو وجودة الشعر، والإلمام بكل علم معروف فى عصره، وكان تلاميذه يعدون بالمئين ويزحمون داره ولما مات أنشد على قبره المراثى أربعة وثمانون شاعراً، فهو قد فاز فى حياته بالحظ الأجزل من الشهرة والتوقير ولا يزال إلى يومنا هذا فى المحل الأول والأرفع بين شعراء العربية، أما فيما عدا ذلك مما هو من الحياة الخاصة الشخصية فما حرم شيئاً أو كانت الآلة تعوزه فيه كما يقول وإنما حرم هو نفسه وآثر لها العزوف وأبى عليها كل متعة، فالأمر مرجعه إلى إرادته لا إلى عماه.

وإذا قلنا إرادته فقد قلنا ما ينزع به إليه مزاجه السوداوى الخاص وما بنى عليه من الطباع، وهذا عندى هو مفتاح شخصيته والذى أرد إليه ما كان من سيرته وقد جاءت عوامل أخرى فقوت استعداده الخاص قد نشأ فى بيت علم وفضل وتقوى، وكانت لأسرته مكانة عالية ومنزلة ملحوظة فى بلدته الصغيرة. وحسبك من شعوره بكرامته وكرامة بيته فى هذا البلد ومقامه بين أهلها أنه وهو عائد من بغداد بعث إلى أهل المعرة بكتاب ينبئهم فيه أنه اعتزم أن يلزم ويعتزل الناس، كما يفعل الحاكم أو القائد حين يقدم على بلدة فيدع كتابه أو "منشوره" يسبقه إليها ببلاغ منه، وكان هو إلى ذلك عالمًا ضليعًا وأديبًا رفيعًا فاجتمعت له كرامتان: كرامة علمه وأدبه وفضله، وكرامة بيته وآله، وخلق حساسًا جدًا حتى لكأنما يحس الدنيا بأعصاب عارية لا يسترها لحم ولا يقيها جلد فهى أبدًا مكشوفة معرضة للمؤثرات مباشرة، ولهذا كان يخجل أن يرى وهو يأكل مخافة أن يرى منه ما يعاب، ومثله يحرص على اجتناب ما يعرضه للمهانة أو الزراية أو السخرية، ومن هنا لجاجته فى تنقص نفسه وقوله إنه كلب لئيم وإنه جاهل وساقط وناقص وإنه أعمى ضال كأنما يريد لفرط شعوره بذاته أن يسبق الناس إلى ذمه، ولا يدع لهم ما يقولون فيه أو يعيبونه به، ومثله ينزع إلى العدل والإنصاف، لأن الإنصاف سبيل النجاة والأمن لمن كان يفطن فطنته إلى مواطن ضعفه وقصوره ويحس بها إحساسه، حتى لقد عرف الدين بأنه إنصاف الناس، ولا عجب بعد ذلك أن يكون رقيق القلب رحيمه، وإن كانت رحمته مفرطة حتى ليقشعر بدنه حين يقدمون له [فرُّوجًا] أوصى له به الطبيب فى مرضه ويقول: "استضعفوك فوصفوك فهلا وصفوا شبل الأسد؟" وقد ثقلت عليه محنة العمى وشقت جدًا لأنها ظلم حاق به بغير ذنب فظل ثائرًا على هذا الظلم كثورته على كل مظاهره الأخرى فى الحياة، ولم تكن ملازمته داره واقتصاره على أكل البقول ونفوره من اللحم، إلا ضربًا من التحامل على النفس وتعذيبها لا يستغرب، فإن تعذيب النفس نوع من إثبات القوة فكأنه لما أنس من

نفسـه العجـز عن أن يكون ذا بأس وصـولة بين الناس تحـول إلى نفسـه وحمل عليـها وعالج رياضـها لينعم بالشعور بالقوة والاقتدار، وكل امرىء ينزع بطبعه إلى تعويض النقص الذى يعرفه أو يحسه ولو إحساسًا غامضًا، وتلك حقيقة لا تحتاج إلى بيان.

وأحسب أن مما يجرى هذا المجرى شدة تكلفه فى "اللزوميات" و[إلزامه [نفسه فيها ما لم يلزم أحدًا، وإكثاره من الغريب فيها وفى نثره، وتحريه الحوشى وغير المأنوس من الألفاظ، حتى كتاب "الفصول والغايات" جعله فصولاً غاياته أحرف مرفوعة أو منصوبه أو مجرورة، وذلك كله لإثبات القدرة والرسوخ فى العلم والاستبحار فيه، بل التفوق والتميز.

إبراهيم عبد القادر المازنى

أبو العلاء المعرى

كلمة الأستاذ المازنى فى العيد الألفى[١١٤]

(٣)

ننشر فيما يلى القسم الأخير من الكلمة التى ألقاها الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى، وكيل نقابة الصحفيين، فى الاحتفال بالعيد الألفى للمعرى وهو:

* * *

وهنا موضع سؤال: لماذا أحب المعرى أبا الطيب المتنبى كل هذا الحب؟ وأعجب به وأكبره إلى هذا الحد؟ حتى تعرض للأذى من أجله؟ وألّف فيه كتاباً سماه "معجز أحمد"؟، لقد كان يتعصب له تعصباً عجيباً وليس هو بالذى يخفى عليه أن هناك شعراء آخرين لا يقلون عنه شأناً، وأن معانى المتنبى ليست كلها مما ابتكر وإن كثيراً منها يوجد فى أشعار غيره، ولقد ألف فى أبى تمام كتاباً سماه "ذكرى حبيب" فما هو سر هذا التعصب المفرط؟

عندى أن السر هو شخصية المتنبى لا شاعريته، فقد كان المتنبى يمثل كل ما ينقص المعرى، أو ما يحس المعرى أنه ينقصه: الجرأة، والإقدام، والثقة بالنفس، والاطمئنان إلى صواب ما يرى، والجزم فى الأمور والفحولة التى تخرج المعنى مخرج المثل السائر وتجعل منه عملة متداولة، وعلى الخصوص اليقين الجازم والثقة بالنفس، وانتفاء الحيرة والاقتناع بأن فهمه للناس وللحياة صحيح لا يرتقى إليه الشك، وكل هذا ينقص المعرى، فهو أبداً مضطرب لا يستقر، وحائر لا يهتدى، لا يطمئن إلى رأى، ولا يثق بصواب، ولا يرضى

(١١٤) نشرت فى "البلاغ" فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٤، (ص٣).

عن نفسه، ولا يحول عينه عما يدركه من قصورها وعيوبها ولا يحس أن فى وسعه أن يجترئ ويلقى بنفسه فى عباب الحياة ويفرق تياره إلى حيث يتطلع ويرجو أو يراه من حقه.

وأحسب أن كل من قعد يفكر ويتدبر على نحو ما يفعل المعرى، لا بد أن يضطرب اضطرابه، ويضل ضلاله، ويقع فى مثل حيرته، فإن هذه أمور إشكال لا سبيل إلى الاهتداء فيها إلى ما يقنع العقل، وليس المعرى ببدع فى هذا فإن له لأندادًا كثرًا فى الشرق والغرب، وقد كنت منذ أيام أراجع رواية "هملت" لشكسبير الشاعر الإنجليزى، فإذا بى أقرأ لهملت وهو واقف مع حفارى القبور وفى يده جمجمة:

"أتظن أن الإسكندر كان هذا منظره فى الأرض؟".

فيقول رفيقه هوراشيو: "تمامًا".

فيقول هملت: "وكانت له هذه الرائحة؟ أف".

هوراشيو: "هو كذلك يا سيدى".

هملت: "إلى أى درك نصير يا هوراشيو.. لماذا لا يتعقب الخيال رفات الإسكندر النبيل حتى نجده يسد ثقب برميل؟.. مثلاً: مات الإسكندر، دفن الإسكندر، عاد الإسكندر ترابًا، والتراب من الأرض ومن الأرض يصنع الصلصال، ومن هذا الصلصال الذى تحول إليه ماذا يمنع أن يصنعوا منه ما يسد برميل بيرة؟".

فأذكرنى هذا قول أبى العلاء:

إِذا غَدَوتُ بِبَطنِ الأَرضِ مُضطَجِعًا	فَـثَـمَّ أَفـقِـدُ أَوصَابِى وَأَمـرَاضِى
تَيَمَّموا بِتُرابى عَلَّ فِعلَكُمُ	بَعدَ الهُمودِ يُوافِينى بِأَغراضى
وَإِن جُعِلتُ بِحُكمِ اللَهِ فى خَزَفٍ	يَقضى الطُهورَ فَإِنّى شاكِرٌ راضِ[١١٥]

(١١٥) من البسيط (المحرر).

والبيت الأخير هو الشاهد، وتأمل صيحة هملت بأوفيليا حبيبته:

"إلى الدير، لماذا تريدين أن تكونى أمًا لآثمين؟ إنى أنا نفسى رجل شريف إلى حد ما، ومع ذلك أستطيع أن أتهم نفسى بأشياء يبدو معها أنه كان خيرًا لو لم تلدنى أمي، وأنا رجل متكبر جدًا وبى من المغريات بالشر فوق ما يحيط به الفكر ويصوره الخيال أو يتسع لارتكابه الزمن، ماذا يصنع أمثالى وهم يزحفون بين الأرض والسماء؟ إننا جميعًا أوغاد أشرار، فلا تصدقى أحدًا منا".

ثم يقول لها: "إذا كان لا بد لك من الزواج فتزوجى مغفلاً، فإن العقلاء يعرفون كيف تحلنهم وحوشًا شنيعة، إلى الدير، اذهبى بسرعة".

وما أكثر ما أبدأ المعرى وأعاد فى هذه المعانى، وما أشبه رأى هملت فى المرأة برأى شاعرنا الذى يعد النساء [فوارسٌ] فتنة وأعلام غي.

وتأمل مناجاة هملت: "نكون أو لا نكون؟ هذه هى المسألة"، وهى مشهورة، يقول فيها إن الموت رقدة تنتهى بها آلام القلب وجراح الجسم وأوجاعه، كما يقول المعرى:

إنما المَوْتِ رَقْدَةٌ يُستريحُ الـ ـجِسْمُ فيها والعَيشُ مِثلُ السَهادِ(116)

ولكن الموت قد تتخلله الأحلام فأى أحلام نراها يا ترى إذا سلبنا الحياة كما يتساءل المعرى: "كيف لى بمخبر، يعتام نفائس ما أحذر عليه، يعلمنى بعد الموت كيف أكون؟" وكما يقول:

وبينَ الرَّدى والنومْ قُرْبَى وَنِسْبَةٌ وشَتّانَ بُرْءٌ للنَفوس وإعْلالُ

إذا نِمْتُ لاقَيْتُ الأحِبَةَ بَعدَ ما طَوَتْهمْ شُهورٌ فى التراب وأحوالُ(117)

---

(116) من الخفيف وفى رواية أخرى "ضَجْعَةُ المَوْتِ" (المحرر).

(117) من الطويل (المحرر).

وكما سأل:

"ســبــحــانك مـؤيد الآباد   هل للـمنيـــة نسب إلى الرقـــاد؟"

ولا يزل هملت يلهج بمحنة الحياة وسهام القضاء، وسياط الزمن، وظلم الظالمين! وصلف المتكبر، وبطء تحقيق العدل ووقاحة ذوى الأمر وبغيهم وإحناء الظهر تحت أثقال الحياة، واحتمال ذلك الشقاء فزعًا مما بعد الحياة ومن بعدها مجاهل لم يعد منها مسافر، وهذا خوف يقل العزم ويغرى المرء بالرضى بآلام يعرفها واتقاء ما يجهل – وذلك كله ما كان يلهج به المعرى.

وتتكرر مثل هذه الآراء فى الناس والحياة ومصائر الخلق فى روايات أخرى مثل تيمون الأثينى وماكبث والملك لير وغيرها.

وندع شكسبير وما يجريه على ألسنة أبطاله، وننقل إلى جوتيه الشاعر الألمانى وروايته "فَوست" على الخصوص، وهى كما وصفها الشاعر "جولة بين الأرض والسماء"، وفَوست رمز للإنسان الذى ينشد المعرفة ويبغى أن يحيط علمًا بسر الحياة وقد وجد أن المعرفة المستفادة من بطون الكتب التى كان يعكف عليها لا تفيده يقينًا ولا تكشف له عن سر ولا تبيحه مجهولاً أو مغيبًا، وقد بلغ من يأسه أن باع الشيطان نفسه وعاهده أن يسلمه روحه إذا وسع إبليس أن يفيده الدعة والاطمئنان واليقين فبدآ معًا رحلة طويلة لا داعى لوصف مراحلها فإن القصة معروفة، وقد ذاق فى رحلته مرارة الندم وضاق به الفضاء الرحيب فالتمس ما وراء ذلك لعل الخيال يغنى حيث لم تغن الحقيقة، وقد أعياه على الرغم من مقدرة الخيال، أن ينحى الأستار المسدلة ولم يجده رفع طرفه إلى السماء ومحاولته أن يطوف فى الأبد ويجوبه، ولم يقنعه أن يتقبل الحياة كما تجيء وإن كانت لا ترضيه، وإشقاء عقله الذى طغى على نفسه، ولم يستفد إلا الحيرة اللازمة وإدراكه مبلغ [...][١١٨] ولم يصل إلى شيء من ثالوث أفلاطون – ثالوث الحق والجمال والخير – واستعان بالشيطان على ضعفه البشرى فآب بالندامة والخسار.

---

(١١٨) كلمة غير واضحة فى الأصل المتاح ربما كانت "جهله" (المحرر).

وليست هى إلا قصة أبى العلاء فى حيرته ونشدانه الحقيقة واليقين فى كل ما يستجليه ويفكر فيه، بل قصة كل مفكر من بنى الإنسان فى هذا العالم.

وقد ترجمت منذ ربع قرن وزيادة قصة روسية اسمها "سانين" وقد سميتها "ابن الطبيعة"، وهى لارتزيباشيف، ومن أشخاصها من يدعى يورى يشهد جنازة منتحر فيستهول أنه لم يعد موجوداً، وأنه كان شيئًا فأصبح لا شىء، ذهب كالتراب المكنوس ولم تبق منه إلا القبعة على النعش ويفتح الإنجيل فيقرأ فيه أن من يهبط إلى الأرض لا يصعد أبداً فيقول:

"ما أصدق هذا وأحكمه، حتم فظيع، هكذا أنا أعيش ويلج بى الظمأ إلى الحياة واللذات، ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسعنى حتى أن احتج عليه".

ويناجى القوة الخفية فيقول:

"ماذا جنى الإنسان عليك حتى تسخرى منه هذا السخر؟ إذا كنت موجودة فلماذا تخفين نفسك عن عينيه؟ لماذا تجعلينى إذا آمنت بك لا أومن بإيمانى؟ (كأبى العلاء تماماً) وإذا أجبتنى فكيف أعرف أأنت المجيبة أم نفسى؟ وإذا كنت على حق فى رغبتى فى الحياة وطلبى لها فلماذا تسلبنى هذا الحق الذى منحتنى إياه؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا نحملها من حبنا لك، ولكنا لا نعرف أيها أعظم قيمة: الشجرة أم الإنسان؟ إن الشجرة دائمة الأمل إذ قُطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وأن تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة، أما الإنسان فيموت ويزول، يرقد فلا ينهض مرة أخرى، ولو أنى كنت على يقين من أنى سأحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين لرضيت أن أنتظر فى صبر كل هذه القرون فى الظلام".

وهذه معان تقرؤها كلها فى المعرى نثراً وشعراً، فقد مزق قلبه بها طول حياة، ومما يستحق الذكر أن بطل هذه الرواية (سانين) يبدى رأياً فى يورى هذا الذى (عذب نفسه بالتساؤل الذى لا يجدى فكأنه يبديه فى المعرى وذلك حيث يقول:

"إن الإنسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه جزء منها وقد يسخط ولكن مرجع السخط إلى نفسه، فهو إما لا يستطيع أو لا يجرؤ أن يأخذ من خيرات الحياة ما يسد

حاجته، ومن الناس من يقضون حياتهم فى السجون، وهناك آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق من الطيران إذ يطلق له والجسم والروح يكونان كلاً متجاويًا لا يزعجه إلا دنو الموت الرهيب، ولكنا نحن نقضى على هذا التلاؤم بسوء فكرتنا عن الحياة، فقد زعمنا أن رغباتنا الطبيعية حيوانية وصرنا نحس العار والخجل منها ونخفيها فى صور وضيعة والضعاف منا لا يفطنون لهذا بل يقضون حياتهم فى الأغلال المضروبة عليهم أما الضحايا فأولئك الذين تقعد بهم آروهم المقلوبة ولا شك أن القوى المحبوسة تتطلب منفذًا، وأن الجسم ينشد السرور واللذة وأنه يتعذب من جراء عجزه وقصوره فهؤلاء وأمثالهم حياتهم صراع دائم وشك مستمر يتعلقون بكل ما يقدرون أن يعينهم ويفضى بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد، ولا يزالون كذلك حتى يعوبوا وهم يخافون أن يعيشوا ويحسوا".

هذه حال المعرى وصفها أديب روسى على لسان شخص متخيل أصدق وصف، أراد أن يحلق فوق الحياة فعجز، لأن ذلك مستحيل لا يستطيعه إنسان، وتهيب الحياة ففر من ميدانها، وخاف نفسه فألجمها وألزمها القيد فانتقمت منه وثارت لنفسها القوى التى حبسها وسد عليها كل فج، فتعذب وراح يتساءل لم ولماذا؟ ويبحث عن الحق والخير والعدل، ويحاول أن ينفذ ببصيرته من أستار غيب الله المسدلة وهى كثيفة، فما اهتدى إلى شىء يستريح إليه العقل وتطمئن به النفس، وصار كما يقول بطل هذه القصة يخاف حتى أن يعيش ويحس.، لأنه يتألم، ولأنه يجهل المصير.

* * *

وبعد فإن مجال الكلام نو سعة، ولكنى لست الوحيد الذى قال أو يقول فى أبى العلاء، وليس من حقى، ولا فى مقدورى، أن أحاول الإحاطة بكل جانب وأن ألم بكل ناحية، فحسبى ما قلت على القصور فيه والعجز، وإنى لشاكر لكم صبركم وسعة صدركم، ومعتذر إليكم من التقصير والتطويل.

والسلام عليكم.

إبراهيم عبد القادر المازنى

رحلة العراق

(١٩٤٥)

رحلة العراق[١١٩]

(١٩٤٥)

(١)

هذه رحلة ثالثة إلى العراق، أطول من أختيها، وأوسع نطاقًا وأحفل بالمرئى والمسموع، ولم تكن لى على بال، ولا كنت أتوقع – على الأقل فى أيام الحرب – أن تتهيأ مناسبة تقتضيها، وكنت أشهد مهرجان المعرى وأشترك فيه أو أتجلد وأتشدد كغيرى على ما سماه الأستاذ إسعاف النشاشيبى بحق (العناء فى سبيل أبى العلاء) وإذا بى أجد فى غرفتى بالفندق برقية من (أحمد زكى الخياط مدير الدعاية العام) يثنى فيها على أدبى ويشيد بفضلى، ويدعونى إلى زيارة بغداد وإذاعة سلسلة من الأحاديث الأدبية والثقافية من محطتها اللاسلكية، فتعجبت لهذه البرقية الطويلة المحشوة بالمدح والإطراء، وأخذتنى خفة من الزهو، وما كنت أعرف مَن أحمد زكى هذا، ولا كنت سمعت به، ولم أكن أدرى أنه يضطلع بعبء جسيم، ويتولى أمرًا عظيمًا، وأنه من القليلين الذين لا بد أن يكون لهم شأن أى شأن فى مستقبل بلادهم، وتبسمت، فإن محطة إذاعة بغداد إذا كانت قد بقيت على حالها كما عرفتها فى سنة ١٩٣٩ تعد (محطة جيب)، وكان لا بد لى من العود إلى مصر، فقلت: نشكر سعادة المدير العام للدعاية ونعتذر، وطويت البرقية وأنا أحدث نفسى، أن العراق أحوج إلى نهضة علمية واقتصادية منه إلى الدعاية، فما هذا الحال المقلوب؟ وما هذا التقليد الذى لا حكمة فيه ولا جدوى منه؟ من أجل أن ألمانيا لها وزير دعاية كجوبلز ينبغى أن يكون لبلادنا أيضًا

---

(١١٩) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٣ يناير ١٩٤٥، (ص٣).

مدير دعاية؟ وإلى أى شىء ندعو نحن الفقراء الضعفاء المساكين؟ وهل كل ما بيننا وبين الدول العظمى من فرق بون أن دعايتها يتولاها وزير، ودعايتنا يتولاها مدير؟

ولم لا؟ أليس التشبه فلاح كما يقول الشاعر؟ ومن أولى من العراق بلد الشعر والشعراء بأن يتبع الشعراء ويهيم معهم فى كل وادٍ؟

وفى اليوم التالى تلقيت برقية أخرى من صديق فى بغداد أثير عندى، هو الأستاذ فخرى شهاب السعيدى ينبئنى فيها أنه هَمَّ بالحضور إلى دمشق ليقنعنى بالسفر إلى بغداد وتلبية الدعوة التى جاءتنى من الدعاية العامة، ويحثنى على القبول، فاستغربت، فإنى أعرف السيد فخرى محاميًا طموحًا، وأديبًا حاذقًا، ولا أعرف له صلة بدعاية أو إذاعة، وأنَّى لى أن أعرف أنه أصبح المراقب العام للإذاعة؟ وقلت لنفسى "آه! الآن فهمنا! هو إذن فخرى الذى أوعز إلى المدير العام أن يدعونى! ومعذرة يا سيد فخرى! وأنك لعزيز علىّ، وأنى لأكره أن أرد لك رجاء أو أخيب أملاً، ولكنى عائد إلى مصر بإذن الله، فما عن هذا معدى" واعتذرت إلى القوم، وقلت لهم إنى مستعد بعد أوبتى إلى بلادى أن أبعث إليهم بطائفة من الفصول فى الأدب، يستطيع أن يتلوها عنى أحد المذيعين، ولا داعى لهذه الرحلة الطويلة.

ثم كان ما يعرفه القراء من منعى من اجتياز فلسطين، براً وجواً، كما أبلغت ولما كنت لا أحسن السباحة ولا أستطيع حتى لو كنت أحسنها، أن أقطع البحر الأبيض المتوسط سباحة إلى مصر، فقد خطر لى أن ألبى دعوة العراق وأمكث فيه أسبوعًا أو أسبوعين، ثم أنطلق من هناك إلى نجد فالحجاز، وأشهد الحج، وما أكثر ما يثاب المرء رغم أنفه، ثم أركب البحر من جده إلى السويس، وأعود بسلامة الله وأستغنى عن فلسطين التى تقف كالشجى فى حلقى، لا أدرى لماذا؟

ولكن الله كان أرحم من أن يجشمنى هذه المشقات كلها، أو يكلفنى أن أجوب نصف الدنيا القديمة لأرجع إلى بلادى، فيسر لى السفر بالطائرة رأسًا إلى مصر من دمشق.

وتشهدت، وحمدت الله، وقرت عيني، واستأنفت عملي من حيث كان قد انقطع، وحلفت زوجتي أن لا تدعني أسافر بعد ذلك مرة أخرى مخافة أن يصيبني سوء من فلسطين هذه التي تردني عنها رداً غير جميل.

فقلت لها: "يا امرأة! ألم تسمعي بالمثل القائل إن "سكة أبي زيد كلها مسالك!".

قالت: "لا يعنيني أبو زيد ولا سكته ولا مسالكه، لقد كنا نسأل عنك كل يوم من المطار فكانوا يطمئنوننا ويقولون: غداً يحضر..، غداً يحضر..، ونحن على أحر من الجمر من القلق والخوف، والبلاء أنك تسافر وتغيب ما تغيب، فلا يخطر لك أن تكتب إلينا رسالة أو تبعث إلينا ببرقية، أو حتى ببطاقة بريد، كأن كتابة بطاقة يكلف شططاً! لا يا سيدي، والله العظيم إذا سافرت لأخرجن من البيت، ولأتركن لك أولادك، فما عدت أطيق أن أتحمل هذا الكرب! وما الداعي لهذه الأسفار كلها؟ لماذا لا تقعد في بيتك كخلق الله؟".

فأقول: "ما هذا الجهل يا امرأة؟ ألا تعرفين أن للأسفار خمس فوائد ذكرها الشاعر؟"

فتقول: "والنبي بلاش تريقة!".

والتريقة بعاميتنا هي القشمرة بعامية العراق، ومعناهما بالعربية أن تركب امرءً بالعبث والدعابة.

وأرى أن أختصر هذا الحوار اللطيف فأقول: "طيب تبت".

فتقول: "أنت تتوب؟ يموت الزمار وأصابعه تلعب".

فألجأ إلى الحيلة وأقول: "أعوذ بالله يا شيخة؟ لماذا تذكرين الموت؟".

فتلين قليلاً، لأنها تعرفني أتطير، وتعتذر، وتروح مع ذلك تدور من وراء خديعتي، وتحاول أن تنتزع مني وعداً بالكف عن السفر، فأقول معابثاً: "مرة واحدة فقط، ثم نقعد كخلق الله!".

فتنسى طيرتى وتقول: "أما قلت لك إن الزمار يموت وأصابعه تلعب لا فائدة!"،

فأقول: "إذا كنت تعرفين أنه لا فائدة من الكلام وتؤمنين بالله وقدره وأن المكتوب على الجبين لا بد أن تشوفه العين، فلماذا لا تريحين نفسك؟"،

فتقول: "مكتوب؟ تقول مكتوب، كأنك تسافر برغمك! والله إنك لكالعصفور لا يبقى على شجرة واحدة أبداً"،

فأقول: "صحيح، والذنب ليس ذنبه، وما خير جناحيه إذا كان لا يفارق الشجرة؟".

فتضجر وتقول: "طيب، طيب، سافر كما تشاء، سافر غداً.، اصنع ما تريد.، الأمر لله يا مبسوط! ربنا يكيدك كما تكيدنى!".

فأقول معاتباً: "أنا أكيد؟ والله إنى لرجل طيب".

فتصيح: "طيب ما يمدح نفسه إلا إبليس! ولو كنت طيباً لما سافرت وتركتنا ونسيتنا وخلفتنا نضرب كفًا بكف ونقول يا ترى ماذا جرى، اسمع! من الآن فصاعداً لا تسافر وحدك! رجلى على رجلك".

فأقول: "آه! قولى إنك تشتهين أن تسافرى!".

فتقول: "كلا! لا أشتهى السفر، ولكن لا أطيق هذا القلق، لو كنت تعنى بأن تكتب إلينا سطراً واحداً لاسترحت، ولكنك تخرج من البيت فتعود لا تذكرنا كأننا لسنا فى الدنيا".

ولها العذر، فإن بى كسلاً شديداً.

رحلة العراق[120]

(٢)

وسهل أن يقول المرء أسافر، كأن كل شيء ميسر، ولكن الصعب أن يسافر فعلاً، والطريق غير معروف، والبيت في ثورته، فقد شق على أهلي أن يعيّدوا وحدهم على خلاف عادتنا طول العمر، وليس من المروءة، ولا مما له داع، أن يعنف المرء بأهله ويهمل شعورهم ويزدريه، وقد كنت في تلك الأيام اسأل الله جاهداً أن يلهمني الحكمة والسداد، ولكن ذلك كان رهنًا بطريق السفر، وأمري ليس بيدي، فإن فلسطين موصدة الأبواب في وجهي، ومواعيد الطائرات الإنجليزية التي تقصد رأسًا إلى دمشق ولا تنزل بفلسطين لا توافقني، حتى إذ وجدت لي فيها مكانًا - وذاك عزيز - وطريق السيارات طويل شاق مضن، ولكنه يتيح لي أن أقضي أول أيام العيد مع أهلي وفي ذلك لهم مرضاة.

وقد كان - ركبت طائرة مصرية إلى بيروت في صباح اليوم الثاني من أيام العيد فهبطت بنا في مطارها قبل الظهر، وكنت قد "أشرت" على جواز سفري من القنصلية الفرنسية بمصر، فقال لي عامل الجوازات إنه لا بد من "تأشير" جديد لأن لبنان أنشأ قنصلية له في القاهرة وسألني:

"هل تقاضاك الفرنسيون شيئًا؟".

---

(١٢٠) نشرت في "البلاغ"، ٢٤ يناير ١٩٤٥، (ص٣).

قلت: "كلا، فقد كانوا كراماً فأبوا إلا أن يكون التأشير بالمجان".

قال: "إذن نتقاضاك نحن رسم التأشير".

قلت: "أمرك يا مولانا".

وأنقدته ما طلب، وقد سرني هذا المظهر الجديد لاستقلال لبنان.

وحملونا فى سيارة شركة مصر للطيران إلى مكتبها فى بيروت، ووضعوا حقائبنا على الرفوف، وألفيتنى واقفًا وأمامى ثلاثة أو أربعة يتلاغطون، فسألت أحدهم:

"هذا فندق؟".

قال: "العمى! شو فندق؟ هادا مكتب".

قلت: "إنما خفت أن يكون، لما رأيت حقائبى توضع على الرف...".

فدنا منى حمال وقال إنه مصرى الأصل من دمياط، وإنه يستطيع أن يدلنى على فندق يؤثره المصريون على سواه، فقلت: "امض بى إليه"، ففعل، وكنت أبغى أن أنزل فى فندق نورمندى، فإنى أعرفه ولكنى نسيت اسمه، وخانتنى ذاكرتى مرة أخرى، فقلت لنفسى "لا بأس إنما هى ليلة واحدة نقضيها على نحو ما، ثم نرحل فى الصباح".

وذهب بى الرجل إلى فندق ريجنت وهو ضخم فخم، فقلت للواقف إلى مكتب الاستعلامات:

"السلام عليكم".

قال: "بونجور مسيو"،

قلت: "يا أخى، إذا حييتم بتحية.، إلخ..، نهايته.، أريد غرفة".

فرد بالفرنسية، وأنا لا أعرف منها إلا حروفًا، ولكنى فمهت إجمالا أنه يعتذر، فقلت له:

"اسمع، دع هذه الفرنسية..، مجها خمس دقائق..، وحاول أن تفهم شيئين إذا كنت تريد أن تظل صداقتنا صافية لا يعكرها معكر..، الأول أنى أريد غرفة، أى غرفة، وبأى ثمن، والثانى أنى لا أحب اللف والدوران ولست أنوى أن أجوب بيروت كلها بحثًا عن غرفة..، وهناك أشياء أخرى كثيرة يحسن بك أن تفهمها، ولكن لكل شىء أوانه، والصبر طيب، وفى الوقت فسحة كافية، والليل طويل..".

فحملق الرجل كأنما كنت أخاطبه بالسريانية، ودفع إلى دفتراً فدونت فيه اسمى وعنوانى بمصر وجنسيتى وأصلى وفصلى، وعمرى (بلا نقص، ولا زيادة طبعًا) بالعربية.

فحنى وجهه على الدفتر، وزوى ما بين عينيه، ثم هز رأسه وقال، وهو يد يده:

"فوتر باسبور سيلفوبليه".

قلت: "باسبور، نعرفها، لأنها شبيهة بالكلمة الإنجليزية المكتوبة على الجواز، والذنب للعهد البريطانى بمصر وسيلفوبليه نعرفها أيضًا لأنى من قوم مهذبين مؤدبين ظراف لطاف وإن كانوا مصريين، تفضل، وليتك تفهمنى كما أفهمك".

فتناول الجواز ونقل منه اسمى وأصلى وفصلى – بالفرنسية!

فلم يسعنى إلا أن أسأله: "لبنانى؟".

قال: "بلى".

قلت: "سبحان من أنطقك أخيراً فليت من يدرى لماذا تؤثر أن تلبس غير جلدتك".

ورأيت غلامًا فدفعته إلى الحقائب وأشرت إليه أن يحملها إلى غرفتى.

وطلبت دفتر التليفون، فإذا هو بالفرنسية، فسألتهم ألا يوجد دفتر بالعربية؟ فهزوا رءوسهم، فلو كان معى سوط لألهبت بها ظهورهم أو رءوسهم – سيان – ووجدت عناء فى الاهتداء إلى الأسماء التى أبغيها، فقلت لا بأس: أبدأ من البداية، وكلما وقعت على اسم يخيل إلى أنى أعرفه، أطلبه، وقضيت فى هذا ساعة وزيادة، طلبت فيها مئات دون

أن أعثر على واحد، فقد خرجوا جميعًا يعيدون، ويقصفون، ويلهون، والله وحده يعلم متى يرجعون، لا بأس أيضًا، فسيعودون لا محالة، وحينئذ يعلمون أنى شرفت بيروت، فيخفون إلىّ، فلا خوف من الوحدة، ولا جزع من قضاء هذه الليلة مستفرداً، ويحسن بى أن أستريح فى الغرفة إلى موعد الغذاء.

وأشهد أن المطبخ اللبنانى عظيم، وليس هذا أول عهدى به، ولكنها الحرب وما جرته من الحرمان، فراعنى أن الألوان كثيرة، ومقاديرها كبيرة، والمواد التى كان الظن أنها معدومة، وفيرة ولا علم لى إلى هذه الساعة بما أكلت، ولكنه لحم وخضر وأرز وأسماك ومكرونة على الأرجح، فقد كنت سغبان ملتوى الأمعاء من الجوع حين جلست إلى المائدة، فأقبلت على الطعام ألتهمه بلا عقل أو نظر، حتى إذا بدأت أشعر بالامتلاء مما امترت، شرعت أدير عينى فيمن حولى، فسرنى أن الوجوه صبيحة وضاءة يضحك فيها الجمال، وساءنى وثقل على نفسى أن اللسان أعجمى الرطانة، أو فرنسيها، وأسفت وتمنيت لو أمكن أن يستعرب هؤلاء المتعاجمون! غير أن الأسف لم يحل دون الأكل المرئ والشرب الهنئ، وقد كنت أتمثل وأنا آكل وأنظر إلى الوجوه بقول القائل:

هى شامية إذا ما استقلت	وهو ما استقل عنها يمانى(١٢١)

وتبينت أن امرأتى الفاضلة أنستها رقة التوديع أن تزودنى بربطات للرقبة فخرجت أتمشى واشتريت ربطتين جميلتين بثمن معتدل، وعدت فجلست إلى جانب نافذة أنظر إلى الطريق، وانتظر، وفود المسلمين المرحبين المهنئين بسلامة الوصول، فطال الانتظار، ونفد الصبر وثقلت الوحدة وأحسست بالوحشة، وإذا بى أسمع صياحًا، فخففت إلى مصدره وفى مرجوى أن أتسلى على الأقل، فسمعت صوتًا أعرفه يقول:

---

(١٢١) ربما يعنى قول النعمان بن بشير الأنصارى (ت، ٦٥هـ/٦٨٤م):

هى شاميَّةٌ إذا ما استقلَّت	وسُهيلٌ إذا استقلَّ يمانِ

وهو من بحر الخفيف، (المحرر).

"أقول لك الأستاذ المازنى، تقول لى الميسنى؟".

فضحكت وذهبت أعدو إلى صاحبى وقلت له:

"لا عليك يا مولانا! فإن هذه غلطة الحمال "فامسحها فى ذقنه".

فجعل يضرب كفا بكف ويقول: "إن هذه فضيحة".

فهونت عليه الأمر، وأكدت له أنى مقتنع بأن لبنان عربى قح على الرغم من هذا الموظف المتفرنس وإن الوحدة العربية بخير وفى أمان من المخاوف التى تثيرها رطانة هذا الرجل، ولم أزل حتى فاء إلى الرضى وأشرقت ديباجة وجهه.

وكان حسبى شارحًا لصدرى أن التقيت بالسيد حسين العوينى صديقى العزيز وأخى الكريم مذ زرت الحجاز فى سنة ١٩٣٠ فليختف من شاء غيره، فما أحفل الدنيا وهو معى، فإنى وإياه فى لبنان على الأقل على حد قول العكوك: "إنما الدنيا أبودلف"[١٢٢].

(١٢٢) العكوك هو الشاعر العراقى على بن جبلة (ت، ٢١٣هـ) والبيت من المديد ونصه:

إنَّما الدُنيا أبو دُلَف	بينَ مغزاهُ ومُحتضَره

رحلة العراق[١٢٣]

(٣)

كان على "شركة نيرن" أن تتفضل فتنقلنى من بيروت إلى دمشق، ثم تحملنى فى إحدى سياراتها الفخمة الضخمة الوثيرة من طراز بولمان - إلى بغداد فى عشرين ساعة - على ما قيل لى فى مصر، وفى الجلوس عشرين ساعة ما يكفى لتوصيم البدن ولو كان المقعد مما أعد للمتقين فى الفراديس، ولكن ما الحيلة وفلسطين تنكرنى، ولست أسئ الظن فأتهم حكومتها بالظلم، فإن أكبر ظنى - كما حدثت غير واحد بذلك - أنها تشفق أن يصيبنى أنا وأمثالى مكروه فى أرضها، وتؤثر أن تحرمنا الدخول حتى لا تتحمل تبعة ما، وقد أكون مخطئًا، ولكن هذا اعتقادى، فإن الإنجليز أصدقائى والعرب إخوانى وأبناء عمومتى.

ولم يبالغ من قال لى إن مدير (نيرن) ينقد موظفيه أجورهم لحلاوة ابتسامهم، فما رأيت أرق منهم شمائل، ولا أظرف أو أكثر منهم تحفيًا بمسافر، وكنت قد قصدت إلى مكتبهم فى بيروت لأستوثق من موعد القيام فى صباح اليوم التالى فأنبأونى أنه منتصف الثامنة، فلما كانت السابعة بعثوا إلىّ بسيارة تقلنى إليهم حتى لا أتجشم تعبًا أو أتكلف نفقة، وكان السيد حسين العوينى يبغى أن يبكر ليودعنى هو ومن يستطيع إيقاظه، فأبيت عليه ذلك وصرفته عنه، وقلت له إنى لست ذاهبًا إلى المريخ، ولا حتى إلى القطب الشمالى، أو ساحة من ساحات هذه الحرب الضروس، ثم أنى أكره

---

(١٢٣) نشرت فى "البلاغ" فى ٣٠ يناير ١٩٤٥ (ص٣).

التوديع وأستثقل تكلفه، لأن فيه معنى الشك فى الأوبة، وأحب أن أكون خفيفًا على الناس فلا أحوجهم إلى ما يسخطهم فى قرارة نفوسهم، وليس بغداد آخر الدنيا فإنها عروس المدائن على الأقل قديمًا.

وركب معى السيارة من بيروت رجل أرخى قبعته على عينيه، ونفخ فى يديه ودسهما فى جيبه، وانطوى على نفسه، فاستعذت بالله، وسألته "إلى بغداد؟" فهز رأسه أن نعم، فقلت:

"اسمع يا صاحبى، إن الشقة بعيدة، والطريق طويل، وسنقضى الليلة على الأقل فى سيارة واحدة برغمى ورغمك – فلا تكن رفيق سوء".

قال: "ماذا ينبغى أن أصنع؟".

قلت: "إنى أرى لك لسانًا – فهات ترجمتك فإنى أجمع تراجم من لا تراجم لهم ولا توجز، وأبدأ من البداية – مذ ولدتك أمك؟ ولا تهمل شيئًا".

فأوفى على الأمل، فقد كان ثرثارة لا يجف له لسان، وكان صوته طبقة واحدة لا ترتفع ولا تهبط، فنمت عليه ساعة أو بعض ساعة فى الطريق إلى دمشق – كما ينام راكب القطار على صوته.

وأخذوا منا أشياءنا وجوازينا فى دمشق، وقالوا: "اذهبوا فتغدوا وعودوا فى تمام الساعة الثانية مساء".

فقلت لصاحبى: "تعال بنا إلى فندق أوريان بالاس فإن موظفيه وخدمه من أصدقائى الحميمين، وأنا أريد أن أقضى حاجات شتى لا يتسع الوقت لها، فسأكلها إليهم، فإنهم من أوفى الناس، وأوثقهم عهدًا".

وهناك تغدينا، وكلفت بعضهم فاشترى لى "قنينة" من العرقى الممتاز احتقبتها معى لأهديها إلى صديق فى بغداد يفضل شراب لبنان على شراب العراق، وقد أحتاج إلى حسوة منها فى الصحراء تنعشنى وترد إلى روحى، ومن درى؟ وطلبت طعامًا على سبيل الاحتياط فأعدوه لى أيضًا.

ولم يقصر رجال الفندق، فقاموا عنى بما عهدت فيه إليهم، وعدنا إلى مكتب الشركة، وقعدنا ننتظر الرحيل، وإذا بالدكتور أسعد طلس يدخل علىّ وهو لا يكاد يصدق عينيه ويسألنى كيف جئت، ومن أى طريق؟ فقد كان يعرف حكاية فلسطين معى ونفورها منى وزهدها فىّ ومن أدرى منه بذلك وقد كان رفيقى الكريم الذى أبت له مروءته إلا أن يرتد معى عن فلسطين وقد أجيز له دخولها.

وآن أن نركب السيارات فخففنا إليها لنفتح حقائبنا لرجال الجمارك - إذا شاءوا - غير أنهم لما رأوا بطاقتى على حقيبتى تلطفوا وتركوها، وما كان بها شىء علم الله غير ما أحتاج إليه من أشيائى ففتحتها لهم برغمهم لتطمئن قلوبهم وأخرجت عباءة لى من صوف سميك لألتحف بها وقياً من برد الصحراء فإنى أعرفه قارساً، وكان هناك شاب عراقى سألوه "معك جديد؟" فقال بلهجة الجزم "لا" فلم يصدقوا وقالوا:

"افتح هذه فإذا فيها ملء دكان من الجديد من القمصان وأربطة الرقبة والجوارب للرجال والنساء، وغير ذلك".

فاكتفوا بردها دون مصادرتها، وجلس صاحبنا - أو صاحبها على الأصح - موكوماً موقوماً[١٢٤] معظم الوقت.

وسألت بعضهم: "لماذا صدقونى دونه؟".

فقال إنهم يعرفون العراقيين يأتون إلى الشام فيستبضعون ويعودون لقلة ما عندهم فى بلادهم، والبضائع فى مصر أوفر وأرخص.

وانطلقت بنا السيارة فى موعد قيامها، وهى عظيمة ومقاعدها وثيرة، ونوافذها محكمة، فلا ينفذ منها تراب أو هواء، ولحقت بنا أخرى فيها راكب غيرنا، لتزاملنا فى الطريق، وتتعاون السيارتان على ما عسى أن يعترض إحداهما، ووقفوا بنا لحظة

(١٢٤) أى حزيناً مغموماً (المحرر).

ليسقونا الشاى، مع الفطائر والكعك، ثم استأنفوا السير، وكانت الأرض قد جادها هاضب فى الليلة الماضية فاستوحلت فى مواضع كثيرة وجعلت العجلات تغوص قليلاً، فتقف السيارتان، ويضع الرجال ألواحًا من الخشب تحتها، لتدور عليها العجلات فتخرج مما ارتطمت فيه، وكان أكثر ما يحدث هذا فى الليل، وإن كانت أضواء السيارة قوية.

وجاءونا بالعشاء فى صناديق صغيرة من الورق المقوى، فقلت لجارى وكان هو رفيق من بيروت: "تأكل ولا تشرب؟".

قال: "لا، أريد أن أشرب".

قلت: "ألم أنهك أن تكون رفيق سوء؟".

قال: "طيب، وماذا نشرب؟".

قلت: "إنك طويل فمد يدك إلى هذا الرف الذى فوق رأسك وهات قنينة العرقى وأنا أتكفل بطلب الأقداح والماء من الخادم".

ورأى الخادم صاحبنا يقف ويمد يده ويتحسس فخف إليه وعرف حاجته فقال لنا:

"لا داعى لهذا، فإن عندى ما تحبون من الويسكى والعرقى والجن والنبيذ".

فاستخفنى الطرب وصحت: "تالله ما أعظم النيرن وأطيبه وأكرمه، هات لنا ويسكى إذن، فإن التيمم لا محل له وقد حضر الماء".

فهمس صاحبى فى أذنى: "الويسكى غالى".

قلت: "لا تكن كزًا، متى شربت ويسكى آخر مرة؟".

قال: "منذ عامين".

قلت: "والعبد لله مثلك، أفنحرم أنفسنا هذه النعمة التى ساقها إلينا النيرن من حيث لا نحتسب؟ عجل يا شيخ بالويسكى".

وكان خلفنا قوم من الإنجليز، سمعوا كلمة "ويسكى" فأقبلوا علىّ يسألوننى ويستخبرون، ثم انطلقوا يصيحون "بوى! ويسكى أند صودا".

واستيقظت فى الصباح فتعجبت، فقد كانت السيارة واقفة، فقلت لعلها وقفت لتتيح لنا النوم المريح وتعفينا من الرجات المزعجة، وخرجنا، فإذا عجلات السيارتين جميعًا قد غاصت فى الوحل واختفت حتى لا يبدو منها شىء فقلت "آه! جاءك الموت يا تارك الصلاة!" وسنظل فى هذه الصحراء الجرداء حتى يدركنا الموت أو تأتينا نجدة، وهيهات ومن أين لنا بالقوة التى تنتزع هذه المركبات الثقيلة من الوحل وترفعها إلى ظهر الأرض؟.

رحلة العراق[١٢٥]

(٤)

وكان البرد قارساً فى تلك البكرة، والريح لا لينة ولا زعزع، والشمس لا يكاد يذر لها قرن، إلا من فتوق قليلة فى الغيم وهو يمر، وكان الرمل طرياً تغوص فيه القدم فيقتلعها صاحبها بجهد وقد تعلق بالحذاء ما جعله كالحديد]ثقلاً.[ولم نغسل وجوهنا ولا حلقنا وذقوننا فى صباحنا ذاك، وأنى لنا أن نفعل ذلك؟ فلو كان بيننا حلاق لفتح الله عليه فتحاً مبيناً.

وكان أولى منا بالشكوى والتذمر عمال السيارات المجاهيد الذين بكروا ونحن نيام، يرفعون العجلات، أو الدواليب كما يسمونها، ويحفرون تحتها ويضعون ألواح الخشب المتينة لتدور الدواليب عليها لا على الرمل، فتخرج، وكانوا يستعملون لذلك مجرفة أو مكسحة أو ما يسمى الرفش أحياناً يجرفون بها الطين، وقد حدثنى بعضهم فى العراق أن الفلاحين هناك يأبون أن يستعملون الفأس التى يستعملها المصريون، ويقولون عنها *إنها تقصم الظهر*، ويؤثرون أن *يعملوا* فى الأرض وهم وقوف لا ينحنون.

وكان الضباط الإنجليز لا يكتفون مثلنا بالوقوف والنظر والوجوم والنفخ فى الأيدى، فكانوا يتناولون المجرفة ويساعدون العمال، حتى إذا أدفئوا وتعبوا ألقوا ما بأيديهم، ونفضوا الرمل وكروا إلينا ووجوههم كالجمر المضطرم، وعيونهم تدمع من البرد.

ولبثنا فى هذا إلى ما بعد الظهر ثم أذن الله أن نستأنف السير فمضينا على سنننا إلى الرطبة وفيها مطار قريب، ونصب أقامه الإنجليز تذكاراً لتمهيدهم الطريق

---

(١٢٥) نشرت فى "البلاغ" أول فبراير ١٩٤٥ (ص٣).

ورصفه بين العراق وفلسطين، وفيها تغدينا على حساب (نيرن) فقد أتينا على مذخوره من الطعام فى العشاء، ثم عدنا إلى الطريق وهو من هناك مرصوف، فبلغنا (الرمادى) فى الساعة التاسعة أو نحو ذلك، وبينها وبين بغداد أكثر من تسعين ميلاً تقطعها السيارات فى نحو ساعتين، وكان فيها جهاز للتليفون فخف إليه خلق كثير، هذا يطلب بيته، وهذا يريد أن يخاطب فندقًا، وذلك يحاول أن يحادث صديقًا، وأنا أنظر ولا أدرى ماذا أصنع؟ فلن نكون فى بغداد قبل منتصف الليل، فهل أجد سيارة تحملنى وتطوف بى على الفنادق عسى أن أجد فى أحدها غرفة أقضى بقية الليل فيها! وماذا أصنع إذا لم أجد سيـارة؟ وكان إلى جانبى من عـرفت فيما بعد أنه نجل الأستاذ السيد عبد الحسين الأرزى الوجيه الشاعر، وشقيق وزير الأشغال والمواصلات فقال لى: "لا تحمل همًا، فستكون سيارتنا حاضرة، وفى خدمتك".

فشكرته، وقمت إلى التليفون فطلبت إذاعة بغداد، فإذا المجيب هو السيد فخرى شهاب فتعجبت وسألته: "ماذا تصنع فى الإذاعة؟ وما شأنك بها؟".

قال: "إنى مراقبها العام".

قلت: "فخرى فى الإذاعة؟ لقد خربت والله، على كل حال اسمع: إذا كانت الإذاعة قد شاءت أن تخرب فهذا شأنها، والذى عنينى أنى سأصل بإذن الله وببركة (نيرن) بعد منتصف الليل أو قبله - لا أدرى - فهل تستطيع أن تعد لى سيارة، وغرفة ولو فى خان، أو حتى فى منزلك".

قال: "السيارة ستكون حاضرة، أما الغرفة فالأرجح أن تكون فى فندق "زيا"، وقد كان العزم أن ننزلك فى ريجنت، ولكنه [غاص]".

قلت: "زيا - ميا سيان، المهم أن أجد مكانًا أنام فيه الليلة، ويفرجها الله غداً، وسأسألك عن "زيا" هذه ما هى؟ فما لى بها عهد فاستعد للجواب".

قال: "لقد انتظرناك اليوم فى المطار، وحضر لاستقبالك فلان وفلان".

قلت: "يا أخى، لقد بعثنا إليكم ببرقية نقول فيها إنى آت بالطيارة إلى بيروت ومن ثم بسيارات نيرن، فمتى عرفت أن نيرن يطير فإنى أعرفه لا يزال يزحف كالسلحفاة

على الأقل فى هذه المرة، نهايته.. السلام عليكم فإن كثيرين غيرى يبغون الاستمتاع بالمحادثات التليفونية".

واستقبلنى السيد فخرى كما وعد، وكان مقروراً يسعل ويعطس، ولكن الوفاء أبى له إلا القدوم فى الليل المزمهر البرد، المتدجية السحاب المتصل الودق، ومرقنا بفضله من مكتبى الجمرك والجوازات كالسهم، وانطلقنا لا إلى فندق "زيا" بل إلى فندق ريجنت، فسألته عن الترتيب لماذا تغير؟".

قال: "فضلنا أن ننزل بريجنت من أول الأمر، ولو تعبت الليلة".

قلت: "بشرك الله بالخيرات،، وهذا التعب الذى تشير إليه، ما هو حتى أعد نفسى له".

قال: "لم نجد الليلة سوى غرفة لاثنين وبها ضيف من البصرة، وغداً تنتقل إلى غرفة تكون فيها وحدك".

قلت: "ضيف من البصرة؟ شىء جميل! واثق أنه ليس من نيام نيام؟".

قال: "هى ليلة واحدة، بل ساعات معدودات".

قلت: "إنى أفضل أن أنام على كرسى فى الدهليز، أو فى إحدى حجرات الجلوس".

قال: "تموت من البرد".

قلت: "هذا أرحم من الرقاد مع رسول نيام نيام..، قل لى،، هل سأنام معه على سرير واحد؟".

قال: "الصبر طيب..، إلى الصباح فقط".

قلت: "طمئنى! هل يشخر وينخر؟".

قال: "ومن أدرانى؟".

قلت: "فخرى الذى استولى على إذاعة بغداد بقدرة قادر، لا يدرى أيشخر الرجل أو لا يشخر..، طيب لا بأس حسبى أن تصفه لى، وإن كان مجهول الصفات..، قل أى شىء..، طمئنى ولو كذباً".

فلم يشأ أن يطمئننى ذلك الصديق العزيز، فدخلت الفندق وأنا قلق، ولكن بى لهفة على رؤية رفيقى البصرى وصعدت فى السلم، وأنا أسأل الله فى سرى أن ألفيه مستغرقًا أو غارقًا فى النوم، وأن يكون وجهه – على الأقل – مكشوفًا عسى أن أتبين فيه ما يطمئن أو يسر".

وقلت لخادم الفندق الذى حمل حقائبى: "بونجور" فقد دخلنا فى الصباح.

فالتفت إلىّ كالمذعور، فتبسمت له وقد تذكرت أنى لست فى لبنان، وقلت: "نهارك سعيد".

قال: "صباح الخير مولانا".

ولو سمعت خادمًا فى مصر يقول لىّ "مولانا" لظننته يتهكم، ولكنهم فى العراق يستعملون اللفظ ويريدون به التوقير، وفتحنا باب الغرفة، فدخلت على أطراف أصابعى، كاللص، وكان السيد فخرى يسير أمامى، والخادم يسبقه وهما يتلاغطان بصوت يزعج الموتى فقلت "هس!" فلم يكترثا لى، ولم يعبئا شيئًا بالمسكين الذى اقتحمنا غرفته فى فحمة الليل، وخرجا وبقيت وحدى، فوقفت مترددًا... هل أنضو ثيابى،، أو أنام بها وأمرى إلى الله؟ ونظرت فإذا وجه الرجل إلى الحائط! فتشهدت وشرعت أخلع ثيابى..، وبى خوف من أن يتقلب فيفاجئنى وأنا نصف عار، ومن يدرى؟ لعله متناوم وهل يعقل أن يظل نائمًا على الرغم من الضجة التى كانت؟ ثم من يدرى مرة أخرى؟ لعله لص! وأضحكنى أنى سأخيب أمله، فما معى إلا ثياب قديمة أكثرها بالٍ.

وتسللت إلى سريرى وأنا أحدث نفسى أن النوم لن يؤاتينى فى هذه الليلة السوداء، فليس أبغض إلىّ، ولا أثقل علىّ، من أن أنام فى غرفة واحدة مع مخلوق آخر كائنا من كان فإن النائم يكون على غير ما يدرى من الأحوال والأوضاع، ولست استمرئ أن يرانى أحد على حال لا دخل للإرادة فيه ولكن ما الحيلة؟.

وغلبنى النوم وهذه الخواطر تدور فى نفسى، وما كاد الصبح يتنفس حتى ارتديت ثيابى وخرجت، فلقينى مدير الفندق، وبشرنى أن غرفتى – غرفتى وحدى – ستكون معدة بعد ساعة أو اثنتين.

فلولا الحياء لقبلته!

رحلة العراق[١٢٦]

(٥)

أدهشنى أنى على تبكيرى فى القيام وإسراعى إلى الخروج من هذه الغرفة "المشترطة" كان أحمد بك زكى الخياط أسرع منى وأنشط، فقد أقبل على مدير الفندق وأنا جالس إلى المائدة ودفع إلى بطاقة قال إن مدير الدعاية العام حضر وتركها لى، فقرأت فيها تحية طيبة وترحيباً كريماً واعتذاراً رقيقاً من تقصيره (تأمل!) فى استقبال البارحة لأنه كان يجهل موعد قدومى، بعد أن انتظرنى على غير جدوى فى المطار.

فسألت المدير - وهو سويسرى ولكنه يجيد الإنجليزية - "متى حضر؟".

قال: "قبل ساعة، وكره أن يزعجك فكتب هذه البطاقة.

فزادت دهشتى، فإن معنى ذلك أنه جاء فى الساعة السادسة صباحًا، وهى بتوقيت مصر، الخامسة صباحًا، فإن بين مصر والعراق فرقًا فى التوقيت مقداره ساعة.

قلت: "لعل الذى جاء رسوله أو خادمه؟".

قال: "بل هو أحمد بك نفسه فإنى أعرفه".

فقلت لنفسى "عجباً، هذا وكيل وزارة ينهض من فراشه الوثير الدافئ فى الساعة الرابعة صباحاً فى زمهرير الشتاء، ويحلق ويغتسل ويفطر ويرتدى ثيابه ويخرج ليكون

---

(١٢٦) نشرت فى "البلاغ" فى ٥ فبراير ١٩٤٥ (ص٣ ، ٤).

عندى فى الخامسة - بوقت مصر - ويعوض بهذا التبكير ما يعده من التقصير! فيا له من شعور دقيق بالواجب! ثم يا له من نشاط! هل يطيب لوكيل وزارة فى مصر ويخف على نفسه أن يصنع هذا؟

وعلمت أن الموظفين يكونون فى دواوينهم فى الساعة التاسعة، وخطر لى أن الرؤساء قد يتلكأون إلى ما بعد هذا الموعد بساعة، كما يفعلون فى مصر، فلا معدى عن الانتظار إلى العاشرة أو نحوها.

ولما آن أن أخرج، طلبت تاكسى، فقيل لى إن سيارة الفندق حاضرة، وهى خير وأنظف، ولا تتقاضى إلا الأجر المقرر بلا زيادة، وعلى ذكر التاكسى أقول إنه لا عداد له فى العراق، فالغريب لا يأمن أن يغبنه السائق، غير أنى وجدت بالتجربة أن السائق يندر أن يشتط، وقد يغبنه الراكب فيمنعه الأدب أو الحياء أن يقول شيئًا.

وتركت طربوشى فى غرفتى الخاصة - بعد أن نقلت إليها - وخرجت عارى الرأس فقد رأيت معظم الناس لا يضعون على رءوسهم شيئًا يستوى فى ذلك شبان وشيب، ومن الاحترام - فى العراق - أن تخلع لباس رأسك، على نحو ما يفعل الغربيون، وليس هذا من القوم تقليداً للغرب، فإن له لقصة لا بأس من إيرادها، ذلك أن المغفور له الملك فيصل كان فى البداية يجرى على عادة الشرق فى استقبالاته أى أن يُبقى غطاء الرأس عليه حتى كانت أزمة الطربوش فى أنقرة، وخلاصتها أن وزير مصر المفوض فى تركيا حضر حفلة استقبال رسمية بالطربوش كما تقضى بذلك المراسم المصرية، فما كان من الرئيس كمال أتاتورك إلا أن رجا منه أن يخلع طربوشه، وألح فى ذلك إلحاحًا شديداً، بل قيل إنه نزعه بيده، فكان احتجاج واعتذار، فخشى الملك فيصل أن يحدث لمثل العراق ما حدث لمثل مصر، وآثر أن يتقى ما قد يقضى إليه ذلك من الجفوة، فغير المراسم، وجعل خلع الفيصلية أو السدارة بعض ما تقضى به المراسم فى بلاط العراق.

وقد سألنى بعض العراقيين عن السبب فى حرص المغفور له الملك فؤاد على ارتداء الطربوش وإصراره على الاحتفاظ به، فقلت إنى لا أدرى على وجه التحقيق

ولكنى أعتقد أن الملك فؤاد كان يريد أن يبرز اسم مصر المستقلة فى الغرب، ويذيعه ويعلنه فى كل مناسبة، وأن يجعل من الطربوش شعاراً يلفت النظر إلى بلاده، وأعرف أنه كان رحمه الله حريصاً على أن تكون لمصر شخصية خاصة تتميز بها، وكان ينفر من كل تقليد تتمحى به الشخصية، وقد كان هو عليه رحمة الله أكبر داعية لمصر، وأقوى إعلان عنها، وأسمى رمز لها، فى رحلاته المديدة إلى أوروبا وكان فى أسفاره جميعًا يتخذ الطربوش ولا يخلعه أبداً، كما أسلفت من رغبته - فيما أعتقد - فى إبراز شخصية مصر وتوكيد استقلالها.

وأنا لا أطيق الطربوش، وصبرى عليه قليل، وما تركته على رأسى قط إلا مضطراً، حين أكون سائراً فى الطريق، أو فى مجلس لا يليق فيه خلعه، ولكنى على كرهى واستثقالى له أستحى أن أسير بغيره، والعادة طبيعة ثانية، وقد اتفق مرة أن تعشيت مع لفيف من الإخوان عند صديقى الدكتور بشر فارس فخلعت الطربوش وأنا داخل، ونسيته وأنا خارج، ولم أتذكره إلا وأنا أغادر السيارة فى "الجراج"، وكان الليل قد انتصف، والشوارع خالية، والظلام حالك، والبيت قريب، ومع ذلك قطعت هذه العشرات من الأمتار على استحياء، ولما أصبحت اصطحبت ابنى إلى الجراج، وفى يدى طربوشه خجلاً من أن يرانى الناس مكشوف الرأس، ثم عرجت على الطرابيشى فأخذت طربوشى الذى عنده، وتشهدت!

وهأنذا فى العراق أروح، أروح وأجئ، فى الليل والنهار، وليس على رأسى شىء، سوى الشعر القليل الباقى الذى شاع مبيضه فى مسوده، لأنى فى هذا لست بدعًا، وإنما شأنى شأن الناس جميعًا أو جمهورهم الأكبر، وكنت فى بداية الأمر أرانى أتلفت كلما هممت بالخروج، كأنما ينقصنى شىء، وتقع عينى على الطربوش المهمل، فابتسم وأقول:

"آه! خلك مكانك، فقد تعودنا الاستغناء عنك، وكل شىء فى هذه الدنيا عادة، حتى التقى والعبادة ألم تسمع قول النواسى:

أنت يا بن الربيع ألزمتنى الخير وعودتنيه، والخير عادة؟

إنك إن جهلته لا تكون جديراً بأن توضع على رأسي! على كل حال، لا تأسف ولا تحزن، فما لرأسي قيمة أكبر من قيمة هذا المشجب الذى أنت عليه – فى نظر الحياة على الأقل لا فى نظر ابن آدم المغرور المخدوع! وسنعود إلى مصر فتعود إلى رأسنا وتتبوأ مكانك المألوف، والصبر طيب، ولا بد منه فى هذه الدنيا طاب أم ثقل، وقد صبرنا على ثقلك كل هذا العمر، وعجيب أن تضجرك الراحة شهراً أو شهرين! وما أدرى والله أتلبسنا أنت أم نحن نلبسك! ولكن هذا بحث نستطيع أن نرجئه إلى وقت آخر، وإلى أن يجئ ذلك الوقت، أو أن نؤوب إلى مصر، أرجو أن تنام هنيئًا، وأن تحلم أحلاماً لذيذة".

ووجدت أحمد بك واقفًا فى غرفته بوزارة الداخلية، أمام مكتبه، يرفع سماعة ويضع أخرى، ولا يستقر أو يهدأ، وتكلمنا قليلاً فيما جئت له، وانصرفت لأؤدى بعض الواجبات، مثل زيارة المفوضية المصرية، والبلاط الملكى، ووزير الخارجية، ووزير المعارف.

وأحمد بك هذا جدير بفصل خاص، فأنا أدعه الآن لأقول إنى تعجبت حين لم أجد فى مفوضيتنا سوى اثنين من الموظفين، واحد قائم بأعمال الوزير المفوض، وآخر يعاونه وهما يقومان بكل أعمال المفوضية والقنصلية، على كثرتها ويسهران على مصالح مصر والمصريين – وما أكثرهم فى العراق – ويردان على التليفون، ويكتبان على الآلة الطابعة – كما تسمى التيبرايتر فى العراق – ويدونان الحسابات، ويحرران المراسلات، ويظلان أحيانًا جالسين إلى منتصف الليل، ويشهدان الحفلات والاستقبالات، فليس ينقصهما إلا أن يؤديا أعمال الخدم أيضًا!! فما أبخل مصر! وما أقل علمها بما يعانيه ممثلوها فى الخارج! وما أكثر الموظفين الذين يمكن أن يشحن منهم فيلق لمعاونة هؤلاء المكدودين المجاهيد، بلا ضير على العمل فى مصر!

وكان أحمد شكرى القائم بالأعمال حفيًا بى، وعلمت من إخوانى المصريين أنه أقوى عون لهم، وأقرب مدد إليهم، وأنه رهن إشارتهم فى كل ساعة، فلم استغرب فإن ما رأيت منه ومن زميله مصداق لما قالوا فيه وأثنوا به عليه.

وقد سألنى: "هل أحب أن أبلغ وزارة الخارجية المصرية شيئًا".

فقلت له: "يا صاحبى: إذا شئت أن تبلغها شيئًا فأبلغها عنى شكرى لك وعطفى عليك".

رحلة العراق[١٢٧]

(٦)

أحمد زكى الخياط، مدير الدعاية العامة، رجل ربعة، فى وجهه الأسمر المدور لين وقوة، وفى عينيه الضيقتين عذوبة وصرامة، وفى حاجبيه المشرفين على غارى العينين سبوغ وكثافة، وفى جبهته الجلواء [سِنة] وطول، وفى خلقه شدة، وقد استوى بياض رأسه وسواده أو كادا، ولكن الرجل ما زال فتيًا جليداً وخفيفًا سريعًا.

رأيته أول ما رأيته واقفًا معتدل القامة كالجندى الذى لم يوضع جنبه قط، وسمعته يتكلم ويلوح بيمينه كأنه يخطب وكان كلامه باتًا، ونطقه بطيئًا، وصوته رقيقًا، وعينه شاخصة كأنما يستثبت، فلم أدر أى رجل هو؟

وفرك يديه، والتفت إلىّ، وأقبل علىّ يعتذر عن تخلفه عن استقبالى ليلة مقدمى، لأنه بعد أن انتظرنى فى المطار على غير جدوى عاد لا يدرى متى وأين أجىء، ويذكر السيد فخرى مراقب الإذاعة ويشكر له قيامه بواجب الاستقبال على الرغم من مرضه، وينبئنى أن هذه الوعكه قد تحول بينه وبين لقائى فى يومى، ويرجو أن أمهد له العذر، ثم يهجم على الأمر الذى استقدمتنى له الحكومة فيقول بايجاز أن الأمر متروك لاختيارى، ولكنه يطمع منى أن أعنى بتوجيه الشبان والأخذ بيدهم إلى النهج الذى أراه أقوم، ثم يدع هذا ويسألنى عن ليلتى كيف قضيتها، فأسأله متى يرى أن أبدأ؟ فيقول إن هذا موكول إلى رأيى، وأنه يرجو أن أستريح أيامًا حتى أنشط وترجع إلىّ

---

(١٢٧) نشرت فى "البلاغ" فى ٨ فبراير سنة ١٩٤٥، (ص٣ ، ٤).

نفسى بعد الذى عانيته من مشقة السفر، ولما هممت بالانصراف أراد أن يضع سيارته رهن مشيئتى فشكرت له لطفه وأخبرته أن معى سيارة فودعنى وهو يقول إنه سيكون عندى فى المساء.

وخرجت وأنا لا أزال حائراً فى أمره، وأسخطنى على نفسى أنى عجزت عن الاستكناه، وأنا أزعم أنى رجل ألمع صادق الفراسة، ونظار فى النفوس سريع الاهتداء إلى المغيب فى أطواء السرائر، غير أنى ما لبثت أن ضحكت فما أعرف نفسى معرفتها بعد كل هذا العمر، فكيف أطمع أن تكفينى نظرة واحدة للإحاطة بنفس جديدة.

وتبدت لى شخصية أحمد بك شيئًا فشيئًا على الأيام، وعرفت من سيرته وحياته ما هو حسب كل راغب فى المعرفة ولم أحتج أن أستخبر أحداً، ولو احتجت لما فعلت، فإنى أستنكف أن أسأل، وأنزه نفسى عن موقف المتجسس، ولكن الناس كانوا - لا أدرى لماذا؟ - يفضون إلىّ بما يعلمون كأنما يبغون أن يعرفونى بالرجل الذى توثقت بينى وبينه الأواصر، بطبيعة الحال، وبحكم العمل الذى جئت من أجله، ولم يقل فيه أحد إلا خيراً، وهذا وحده غريب فقلما يجمع الناس على الثناء على رجل، ولقد كانوا يذكروا غيره ببعض التنقيص، أما أحمد بك فما سمعت من أخباره إلا كل حسن جميل، وقد علمت أنه تخرج فى الحقوق، فإنه كان نائب قنصل فى المحمرة بإيران، وقنصلاً عامًا فى بمباى، ثم وثب به المغفور له الملك فيصل لما شام فيه من الخير وآنس من سمات الرشد فعينه متصرفًا أى مديراً، ثم صار مذ ذاك مديراً عامًا للبرق والبريد إلى ما بعد حركة رشيد عالى بقليل، وخانه الحظ الذى كان يساعفه فأقصى عن الوظيفة واشتغل بالمحاماة عامين ثم اختير للدعاية العامة.

هذا مجمل عمله فى الوظيفة، وليس هذا بشىء فإن له لمستقبلاً وأنه لمن الذين يقول الإنجليز فيهم إنهم "آتون" لا محالة، وهو شيعى ولكنه معتدل جداً، وما علمت أنه شيعى إلا مصادفة، فقد أراد بعضهم أن ينبهنى مخافة أن أغلط أو يزل لسانى بكلمة، كأنما يعنينى أن يكون المرء من الشيعة أو السنيين، أو كأنما أفرق بينهم أو أوثر بعضهم على بعض.

وهَمُّ أحمد بك الأكبر والأول هو التعليم، وهذا عنده هو الذى ينبغى أن يكون له التقديم على كل ما عداه، ولقد ربى هو إخوته على نفقته أحسن تربية ويسر لهم أن يتلقوا من العلم فى العراق وفى أوروبا وأمريكا - أو أمريكا فقط فقد نسيت - ما يشتهون وإن كان الرجل غير ذى مال، إلا ما يجنيه من كده، وكان له سائق أمى فأعفاه من بعض العمل وألحقه بمدرسة ليلية، ولم يزل يتعهده ويبره، حتى صار صائغًا ماهرًا وميكانيكيًا حاذقًا، يشغل الآن وظيفة حسنة، واستخدم لسيارته - أو لسيارة أخيه على الأصح - أخاه، وهو يعنى بتعليم هذا أيضًا وتثقيفه، حتى الجندى الذى كان يقف ببابه فى إحدى "المتصرفيات" أبى له أن يظل أميًا، فأتاح له الكفاية من الفراغ ليتعلم، فارتقى وتقدم.

وما آنس من شاب ذكاء إلا دعاه، ووجهه، وهو طويل البال واسع الصدر عظيم الحلم، يتقبل كل رأى، ولا يضن بالثناء على مستحقه، والتشجيع على من هو أهل له، ثم هو بعد ذلك وقبله جم المروءة، واسع الخلق، منبسط اليد بالمعروف، رقيق القلب عطوف جدًا، صحيح الإدراك، نافذ البصيرة، حصيف الرأى، دائم التفكير، وليعذرنى القارئ فإنى مفتون بهذا الرجل وشخصيته الفذة وقد قلت لغير واحد من مواطنيه إن كل يوم يمضى يزيدنى إعجابًا به، وقلت لصاحب السمو الأمير الجليل الوصى على العرش، وقد تفضل فسألنى هل أنا مرتاح وراض؟: "إن أحمد بك لا يدع لى شيئًا أتمناه أو أتطلع إليه، فإنه يسبقنى إلى تحقيق ما يدور فى نفسى".

فقد اشتهيت أن تتاح لى فرصة لزيارة الموصل وكركوك فى الشمال، والنجف وكربلاء والحلة والكوفة والبصرة فى الجنوب، ورؤية المكتبات الخاصة التى تكثر فى العراق، وإذا به يجىء يومًا ويُخرج مذكرة ويقول إنه يرى أن أزور كذا وكذا إذا وافقت! وعدت ذات مساء إلى غرفتى فألفيت فيها قدرًا عظيمًا من التين التركى المعقم، وطائفة كبيرة من البرتقال والليمون الحلو (ويسمونه نومى) فلما أصبحت سألته، فما كان يمكن أن يفعل هذا غيره - فقال إنه خشى أن أجوع فى الليل، فإنى قليل الأكل.

وسمعنى أقول لصديق إن جنبى أصيب ببرد على ما يظهر، فلما صعدت إلى

غرفتى لحق بى الخادم وهو يحمل (لزقة أمريكية) قال إن أحمد بك أرسلها إلىّ،

ومرضت – أو اشتدت وطأة البرد على جنبى – وحرت أى طبيب أدعو فكلمت مدير الفندق، ورجوت منه أن يدعو لى طبيباً، فأخبر أحمد بك، فبعث هو إلى بطبيب حاذق تخيره هو الدكتور ألبير إلياس مدير مستشفى الكاظمية، وأقبل هو بعده بدقائق، ودقق فى الاستفسار، وفى معرفة ما يجب للعلاج بالتفصيل الوافى كأنما كان ينوى أن يتولى هو تمريضى، ثم أبى – على الرغم من رفضى – إلا أن يستقدم ممرضة تلازمنى، وأضحكنى، على الرغم من الآلام المبرحة التى كنت أكابد وأتشدد وأتجلد لأخفى ما أجد منها أمامه، إن سمعته يقول إن الممرضة لا بد أن تكون جميلة فقلت: "يا أخى: ما خير الجميلة لمثلى، وما ضير الدميمة وأنا أكاد أفقد وعيى؟".

قال: "إن الجمال يشرح الصدر وينشط الأعصاب، ويقوى الحالة المعنوية".

وأصر على رأيه، فجاءت ممرضة من أجمل من رأيت، ومن أمهر من عرفت، وأنا مدين لها بكل ما فزت به من الروح والراحة، ويسرنى أن أنوه بها وأذكر اسمها وهو "لولو صالح"، ومن الظريف أن أحمد بك غاب ساعة ثم عاد ليرى الممرضة ويستوثق من أنها جميلة حقًّا، فلما رآها تطلق وجهه وفرك كفيه على عادته وقال: "زين، الآن اطمأن قلبى".

فلم يسعنى إلا أن أضحك وكان يريد أن تبيت عندى أيضًا، ولا يكتفى ببقائها معى فى النهار، فأبيت هذا كل الإباء، ولج ولججت، فنزل على رأيى كارهًا.

وفى مساء اليوم التالى لوصولى أسر إلىّ أنه بعث إلى غرفتى "بشيشة" فظننته يعنى هذه التى دخنها الناس، فقلت: "لا أحبها".

قال: "كيف؟ ألا تحب الويسكى؟".

قلت: "ولكنك تقول "شيشة".

قال: "شيشة معناها قنينة أو زجاجة".

وقال إن عنده غيرها، وإنها جميعًا لى، فذكرت قول الفارابى "بزجاجتين قضيت

عمرى" يعنى زجاجة الخمر وزجاجة الحبر، فقلت:

"هون عليك، فإن حسبى زجاجة الحبر".

فأصر على الزجاجات الأخرى.

وهو أنيق الهندام فى غير تكلف، يحب النظافة والنظام، ويكره الترهل والفوضى، ويحسن التدبير، ويجيد التنظيم، ويزن ألفاظه بدقة، ولا يتكلم أو يعمل إلا بعد روية، فإذا هَم بأمر مضى فيه، واحتمل تبعته صراحة وفى شجاعة، وكثيراً ما كان يخيل إلىّ أنه متعب فإنه لا يمل العمل، ولا يكف عن التفكير، ولكنه لا يشكو ولا يتذمر، ولا تراه إلا باسم الثغر، حفيًا بالناس، كرمًا معهم، محتملاً لهم، صابراً عليهم، عاذراً لهم، ولم أسمعه قط ينهر أحداً أو ينطق بكلمة نابية، أو عبارة جافة، حتى حين يعيب شيئًا يعف لفظة، ولا يتناول أمراً شخصيًا بذم أو قدح، ولا يعرض إلا للعام من الأمور، فهو مثال سام للرجل المهذب.

وسافرت إلى الجنوب لأنه أدفأ، فحرص على أن يكون سفرى فى مركبة نوم مكيفة الهواء، وكان يود أن يصحبنى فحال عمله دون ذلك، فوكل مرافقتى إلى مراقب الإذاعة، ورتب أمر إقامتى فى البصرة وما أراه فيها - سلفًا بالاتفاق مع متصرفها، وكان يتصل بالمتصرف كل يوم ليستخبره، وكان يحضر عصراً إلى الفندق ويخشى أن أكون نائمًا أو راغبًا فى الراحة، فينتظرنى فى "الصالون" ساعة أو ساعتين دون أن يخبرنى، حتى أخرج من تلقاء نفسى.

وما من شىء أحس منى رغبة فيه إلا عجل به مهما كلفه حتى صرت أتقى أن أنبس أمامه بكلمة قد تشى برغبة من الرغبات مخافة أن يرهق نفسه ويكلفها شططاً، ولو كان يختصنى بهذه الرعاية لقلت ضيف يحتفى به، ولكن هذا كان شأنه مع الناس جميعاً، فلى العذر إذا أكبرته وأحببته، فما فى الناس كثير مثله.

رحلة العراق[128]

(٧)

رسمت لنفسى قبل سفرى إلى العراق نهجًا ليس من مدح النفس أن أقول إنه قويم سديد، وحرصت على التزامه بدقة فلم أنحرف عنه قط وإن كان ما يغرينى بالميل عنه أقوى مما يشجعنى على تحريه والمضى فيه والإصرار عليه، ومع شدة تحفظى ودقتى فى تحرزى لم أسلم من العتب، جهراً وسراً، فكيف لو أنى كنت أرسلت نفسى على السجية، وتركت لسانى يدور بلا كابح، ورجلى تدب حيث ينبغى التوقى، وهواى يظفر بعقلى ويسلبه سلطانه؟ وقد نفعنى أنى فى طباعى التحفظ وأنى اعتدت أن أغالب نفسى، وألفت أن أقهرها بغير كبير عناء، فكنت أشتهى فأتزهد، وأهم بالكلام فأعض لسانى، وتنازعنى نفسى أن أقول أو أعمل فلا أزل بها أحاورها وأداورها حتى أزين لها الكف، وأغريها بالانصراف.

والقاعدة الأولى التى وضعتها لسيرتى فى العراق أن أسمع ولا أتكلم، وليس معنى ذلك أنى قضيت على نفسى بالبكم، أو قطعت لسانى، ولكن معناه أنى اتقيت الفضول والتطفل، والدخول فيما لا ينبغى أن يعنينى، والفضول فى جبلة الإنسان، ولكنه قبيح، وأثقل ما يكون الضيف حين ينحل نفسه حق صاحب الدار، ولهذا كان العراقيون جميعًا عندى سواء على اختلاف مراتبهم ومذاهبهم وآرائهم وأسنانهم أيضًا، فلا مفاضلة بينهم، ولا إيثار لبعضهم على بعض، ولا دخول بينهم فى أمر، ولا رأى فيما يكون منهم، فإنه شأنهم لا شأنى، وإذا شاء أحد منهم أن يفضى إلىّ بدخيلة

---

(١٢٨) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٠ فبراير ١٩٤٥، (ص ٢ ، ٤).

نفسه فهو حر، وليس فى وسعى أن أسد أذنى، ولا من الأدب أن أنهاه، ولكنى أهز رأسي، وابتسم، أو أقطب، ولا أزيد على "يا سلام!" و"شيء غريب" و"سبحان الله العظيم" ولا أدع تعليقًا يتدهور على لساني.

وكانت أخبار مصر تترى إلينا، وتحملها إلينا الصحف أو البرقيات، أما البرقيات فكل يوم، وأما الصحف فكل أسبوع، فيقبل علىّ إخوانى العراقيون يسألوننى عنها، وعن مبلغ صحتها، وعن دواعى ما هو حادث، أو عواقبه، فأقول إنى ههنا فى العراق لا فى مصر، فعلمى علمهم، لا أكثر، ومن الخطل والحماقة أن أقول بغير علم، أو أقضى بغير بينة، وأشهد أنهم كانوا يبدون غيرة شديدة على مصر تسر وتطرب، وحبًا لها يقع من النفس أطيب موقع، فأشكرهم ولا أحل عقدة لساني، وإن كان ما أراه منهم من المودة والعطف والغيرة يدفع إلى التبسط وترك التحفظ.

وقد وفد علىّ إخوان كثيرون من زملائنا الصحفيين فى العراق وراحوا يسألون عن كل شيء، ويطلبون أن أفضى إليهم (بأحاديث) فى كل موضوع يخطر على البال، فى الأدب والسياسة والاجتماع، ولم يكن يسعنى أن أردهم خائبين فإنهم زملائى، ولا من الحكمة – أو حتى اللياقة – أن أطبق فمى كل الإطباق فكنت أقول لهم، إنى مجيبهم إلى ما يطلبون على شروط ثلاثة: أن لا يكون الموضوع شخصيًا، وأن لا يمس شئون العراق، وأن لا يتناول شئون مصر الخاصة، فسألوا وسألوا: عن الدكتور زكى مبارك وليلاه المريضة بالعراق، وعن الأستاذ توفيق الحكيم وعداوته المزعومة للمرأة، وعن عيون العراقيات وفتنتها، وعن الأدب الرمزى فى مصر وممثليه، وعن أدباء مصر ولماذا لا يُسخرون الأدب لخدمة المذاهب الاجتماعية والسياسية، وعن عشرات من المسائل الأخرى، جادين أو متفكهين.

وأذكر على سبيل المثال، لا التقصى أنى قلت لهم إن دكتورنا زكى مبارك من أعلم الأدباء بالأدب العربى وتاريخه وأوسعهم اطلاعًا عليه، وأكثرهم غوصًا فيه، أما السؤال عن ليلاه فالأولى أن يوجه إليه ويلقى عليه، فإنه أعرف بها.

وقلت لهم عن الأستاذ توفيق الحكيم – وما أكثر ما أتعبنى فى العراق وأحوجنى

إلى الدفاع عنه وخاصة فى المجالس التى يزينها الجنس اللطيف - إنه ليس عدواً للمرأة، ولا يمكن أو يعقل أن يكون عدواً لها، وإلا كان عدواً للحياة، وأخلق بهذه أن تكون سخافة مطبقة وجنوناً يتطلب العلاج، وكل ما فى الأمر أن له رأياً فى المرأة والرأى شىء، والعاطفة شىء آخر مختلف جداً، فأنا مثلاً قد يسوء رأيى فى أحد أبنائى، لسبب من الأسباب، فلا أعده صالحاً لعمل من الأعمال، ولا يكون معنى ذلك أو مؤداه أنى أكره ابنى وأضمر له عداءً، ثم أن من التخليط أن يعد ذهاب المرء إلى أن للمرأة وظيفة خاصة غير وظيفة الرجل، سوء رأى فيها، إذ ليس فى الأمر سوء رأى أو حسن رأى، وإنما هو من قبيل ما يسمى "توزيع الاختصاص" وقد يوافقه غيره على رأيه أو يخالفه فيه، وقد يكون ما يرى صواباً أو خطأ، وليس هذا بالذى له قيمة ولا هو ينبغى أن يحمل على محمل العداوة أو غيرها، لأنه اجتهاد، ولكل امرئ حق فيه.

أما عيون العراقيات فما كنت رأيت منها شيئًا يستحق الذكر فى ذلك الوقت الذى هجم فيه الزملاء على بأسئلتهم، وعلى أنى أنذرتهم أنى لن أتحدث فى هذا، فليس من الأدب أن يتفضل العراقيون فيأذنوا لى فى مجالسة أهلهم، فأخرج أتحدث عن عيونهن، ذلك سوء أدب رجوت أن ينزهونى عنه وقد فعلوا.

وقلت فى الأدب الرمزى فى مصر كلامًا لا أدرى أأصبت فيه أم ركبنى الوهم، ذلك أنى أعتقد أن طبيعة مصر لا توافقها الرمزية، والروح المصرى واضح منبسط كأرض مصر وهى صعيد سهل، ووطاء سجسج، وبراح متكشف ظاهر، والمصرى كأرضه، ينتج كما تنتج فى سهولة وبساطة ويسر، وبغير تعقيد، ولست أعلم أن الرمزية نجحت فى مصر أو ربت فيها، وإذا كانوا يعنون الدكتور بشر فارس فإنه إذا صح أن يسمى أديبًا رمزيًا، فهو أوضح أهل هذا المذهب، والدكتور بشر فارس يستعمل الألفاظ بمعانيها الأصلية لا الشائعة أو المغلوطة، ومن السهل استجلاء معانيه إذا تذكرنا تدقيقه فى اختيار ألفاظه.

وكثيرون من أهل العراق يلحون فى أن يكون للأدب عمل فى مذاهب السياسة أو الاجتماع أو بعبارة أصرح أن يكون الأدب داعية لمذهب سياسى أو اجتماعى وقد

رفضت هذا الرأى كل الرفض فلم ينهزموا ولحوا فى كراتهم علىّ فسألت أحدهم: "قل لى بيتًا تحفظه من شعر المتنبى"، فأنشدنى بيته فى كافور:

قَواصِدَ كافورٍ تَوارِكَ غَيرِهِ   وَمَن وردَ البَحرَ استَقَلَّ السَواقيا(١٢٩)

فسألته عما يعجبه من البيت فقال إنه شطره الثانى، فقلت له هذا مثال لما أعنيه أن شعر المناسبات، أو أدبه، يذهب كله بذهاب زمنه، وإنما تبقى النظرات فى الحياة، وقد قال المتنبى شعرًا كثيرًا فى سيف الدولة وحروبه وفى كافور مادحًا وهاجيًا، ولسنا نقرأ هذا كله إلا من أجل ما نقع عليه من الحكم والأمثال التى اشتملت على حقيقة خالدة أو نظرة نافذة، وقد نعنى بغير ذلك من أجل اللغة أو التاريخ أو سيرة الرجل إلى آخر هذا، ولكن الخالد من شعر المتنبى هو حكمته لا ما قاله فى المناسبات، ولو خلا شعر المتنبى من هذه الحكمة لما عبأ به أحد شيئًا، ولكان الأرجح أن يطول ذكره لا أن يستفيض هذه الاستفاضة العظيمة.

ومذاهب السياسة والاجتماع كلها بنت أزمانها، فهى كالمناسبات التى كان يقال الشعر فيها قديمًا والأدب فرع من شجرة الحياة لا أنظمة الحكم أو الاجتماع.

وضربت لهم مثلاً ما حدث فى روسيا وفرنسا من ثورات وقلت لهم إن الأدباء الذين ظهروا فى روسيا فى عهد القياصرة لم يدعوا إلى مذهب ما، ولم يذكروا كلمات الاشتراكية أو الشيوعية، ولعلهم كانوا لا يعرفونها، وكذلك أدباء فرنسا قبل الثورة الفرنسية لم يحملوا على المظالم ونظام الحكم أو غير ذلك، وإنما صوروا الحياة كما رأوها وأحسوها وعرفوها، وبحثوا فيما هداهم إليه العقل، وقد كانت ثمرة الأدبين فى البلدين تفتيح العيون وإرهاف الإحساس، وتعميق الشعور، وترحيب آفاق النفوس، فتهيأت الأمتان للتطور، وقال أحد المؤرخين إن الفرنسيين فى زمن الثورة كانوا أصلح حالاً منهم فى عهد لويز الرابع عشر وكانت المظالم أقل، ولكن إحساسهم بما كان واقعًا عليهم من الظلم على قلته، كان أقوى، فلم يطيقوا الصبر كما أطاقه آباؤهم وأجدادهم الذين كانوا أسوأ حالاً وأقل إحساسًا.

---

(١٢٩) من الطويل (المحرر) .

رحلة العراق[١٣٠]

(٨)

كان أحمد بك قد أعد لى، قبل وصولى، بطاقة دائمة لشهود جلسات البرلمان، وكانت دورته الجديدة توشك أن تفتتح، وهو يقوم فيما كان قديمًا قصرًا للمغفور له الملك فيصل، والقاعة التى يجتمع فيها المجلس النيابى مستطيلة والمقاعد على اليمين واليسار، والشرفات تواجه منصبى الرياسة – كما هو الحال فى المجلس النيابى السورى – وقد ذهبت إلى المجلس مع أحمد بك فى سيارته، وكان يلبس سترة سوداء وبنطلونًا مخططًا، أما أنا فكنت فى ثيابى العادية التى لم أحمل معى سواها، وصعدنا إلى الشرفة، وقعدنا فى الصف الأول من المكان المفرد لمن وصفهم لوح معلق بأنهم "كبار الزوار" فجاء من نقلنا إلى مكان "الوزراء السابقين" فقال أحمد بك:

"تريدون تسوونا وزراء؟".

قلت: "أبشر إذن".

وكان الأعيان – كما يسمون الشيوخ – والنواب يدخلون ويجلسون حيث شاءوا، ورأيت أناسًا أرديتهم غريبة فسألت عنهم أحمد بك فقال إنهم النواب الأكراد، فعددت ستة ضروب من ثيابهم.

وفتح باب عريض خلف منصة الرياسة فدخل سمو الأمير الوصى يتبعه الوزراء والحاشية، وكان فى بزة عسكرية، وقبعته فى يده، فوضعها على المنصة، وشرع يلقى

---

(١٣٠) نشرت فى "البلاغ" فى ١٥ فبراير ١٩٤٥ (ص ١) .

خطبة العرش وكان يحملها معه، ونحن وأعضاء البرلمان وقوف، حتى انتهى منها فتناول قبعته ودار فخرج فى سكون كما دخل، وصعد أكبر الأعضاء سنًا فتولى الرياسة الوقتية بعد انصراف الأعيان، وشرع المجلس فى انتخاب الرئيس، ونادى السكرتير أسماء النواب واحداً واحداً، ليحصى الحاضرين، وكان يدعوهم بأسمائهم مجردة.

وسألنى بعضهم عن نظام الافتتاح فى مصر، فقلت إنه مختلف، ومراسمه لا تخلو من أهبة وتعقيد، فموكب جلالة الملك عظيم فخم، والمركبة التى يستقلها آية من آيات الفن، والجيش يصطف على الجانبين، والطائرات تحلق فوق الركب، والمدافع تطلق إيذاناً بالوصول والانصراف، وأعضاء البرلمان يرتدون ألبسة رسمية، ويقف الوزراء والأمراء ولفيف من الشيوخ والنواب لاستقبال الملك، ثم يدخل جلالته يتبعه الأمراء والوزراء والحاشية، فيحى الأعضاء ويجلس ويدعوهم إلى الجلوس، ثم يتناول خطبة العرش من رئيس الديوان ويسلمها إلى رئيس الوزارء فيتلوها ثم يردها إلى جلالته فيعيدها إلى رئيس ديوانه ويهتف له الأعضاء .. إلخ.

وقد جرت العادة فى مصر أن يقرأ رئيس الوزراء خطبة العرش لأنها طويلة تستغرق تلاوتها ساعة أو نحوها، فليس من اللائق أن يظل الملك واقفاً ساعة يتلو خطاباً، ولا من الرحمة أن يضطر الأعضاء أن يقفوا لوقوفه كل هذا الزمن، وفيهم الشيخ والضعيف، أما عندكم فالخطبة قصيرة لا تتجاوز عشر دقائق، وقد آثر جلالة الملك فيصل أن يتلوها هو لأنه كان مؤسس أسرة ودولة، وكان يعتمد على شخصيته فى توطيد دعائم الملك والدولة، فصار ذلك سنة، ولا حاجة بنا فى مصر إلى مثل ذلك لأن الأسرة ثابتة الأساس من أيام محمد على الكبير، والدولة مستقرة الأركان والبنيان.

وقد ألغيت الألقاب المدنية فى عهد وزارة المرحوم يس الهاشمى، فصار الناس يدعون بأسمائهم وينادون بها من غير تلقيب، إلا على سبيل المجاملة ومن قبيل الأدب، وقد فشا ذلك حتى صار كل امرئ يخاطب بقلب البكوية، ولفظ السعادة، وكان يضحكنى أن يخاطبنى الناس بقولهم "سعادة الأستاذ" وأن يثبتوا ذلك فى عنوان

الرسائل التى تردنى، حتى فى الصحف كانوا يكتبون "سعادة الأستاذ المازنى" فابتسم وأقول لإخوانى "من فضل العراق علينا أن صرنا فيه من أصحاب السعادة!"، ولم يكن هذا يسرنى فإنى أكره الألقاب ولا أرى لها معنًى، أو مسوغًا معقولاً ولا أحسن أن أخاطب الناس بها، واستثقل أن أقول لأحد "سعادتك" أو ما يجرى هذا المجرى من العبارات، وأحس حين أقول لامرئ "يا سعادة الباشا أو البك" إنى سلبته شخصيته، حين أهملت اسمه وأسقطته وألحقته بطبقة أو طائفة يتسرب فيها ويغيب، فيفقد ذاتيته الخاصة التى يتميز بها ويتفرد، ولكن ماذا نصنع والناس يطيب لهم أن يتميزوا على هذا الوجه الذى يفقدهم وجودهم الفردى وشخصيتهم الخاصة؟

وسألنى بعضهم لماذا لم أرشح نفسى قط لعضوية البرلمان؟ فآثرت الصراحة وقلت لهم إن لهذا سببين: الأول، وهو أقل الاثنين قيمة، أنى أنفر من الاجتماعات الحاشدة، ومن الاضطرار إلى مصانعة الجماهير وتملقها والكذب على الله والناس بالوعود الجزاف، وليس لى مال أنفق منه على الدعاية الانتخابية ولو كان لى هذا المال لضننت به عليها.

والسبب الثانى وهو الأهم أنى لا أوافق على اقتباس الدساتير بحذافيرها من الغرب على نحو ما فعلت مصر والعراق وسوريا ولبنان، وأنى لا أرى أننا قد أفدنا من ذلك إلا المظهر دون الجوهر، ولست من دعاة الحكم المطلق فإنى أمقته، ولو قام فى مصر لثرت عليه، لكنى من دعاة التطور الطبيعى، فليكن لكل بلد من بلادنا دستوره على أن يكون ملائمًا لأحواله الخاصة ودرجة ثقافته وتربيته السياسية.

وقد فات أوان الدعوة إلى رأيى هذا فلا خير فى الإلحاح به على أحد، ومن الحكمة تقبل ما صار أمرًا واقعًا ومعالجته حتى يصلح، ووجه العلاج الذى يعن لى هو أن تتضافر الأمة على تيسير التطور الطبيعى للنظام الدستورى واتقاء ما يأخذ على هذا التطور الطبيعى متوجهه، والعلة الكبرى عندكم وعندنا هو فشو الجهل وضعف التربية السياسية، ومن عللكم الخاصة كثرة تدخل الجيش أو قادته فى أمور الحكم، وعدم وجود الأحزاب السياسية، وقلة الاستقرار، ومن عللنا الخاصة عدم تكافؤ

الأحزاب فى القوة، ومن أجل هذا نرى أن المعارضة الحقيقية كثيراً ما تكون خارج البرلمان لا داخله كما ينبغى أن تكون، وأن الوزارات عندنا تحل المجلس النيابى، ولم يحدث أن مجلساً أسقط وزارة، وهذا راجع إلى فقدان التوازن كما قلت، وفقدانه مؤداه فقدان الاستقرار، على أن الصبر طيب والأمم تتعلم من أغلاطها، ولا بد للطفل من التعثر حتى تقوى رجلاه ويتزن ويحسن المشى، وليس من الخير فى شىء أن نتعجل شيئًا قبل أوانه، فإن التعجل يورثنا قلقلة ورجات نحن فى غنى عنها وفسحة الزمن أمام الأمم الطويلة على خلاف الفرد فإن المقسوم له من ذلك يسير.

كذلك كنت أتحدث إليهم فيصغون ولكن أكبر ظنى أنهم ما كانوا يقتنعون فإنهم أمة فتية، ومتى كان الشباب يحسن الصبر أو يسكن وراء الأسداد وهو عباب طام؟

رحلة العراق[١٣١]

(١٠)

أذعت الحديث الأول من محطة بغداد بعد أيام من وصولي قضيتها في الراحة لترجع إليّ نفسي بعد الذي قاسيناه في الصحراء، فلما خرجت من استديو المحاضرات، عدت إلى غرفة المراقب العام وكان ينتظرني معه فيها الأستاذ أحمد زكي بك الخياط مدير الدعاية العام ووكيل الداخلية الذي عرفت القراء به بعض التعريف، فجلسنا نشرب الشاي ونتحدث في أمور شتى، وفي مأمولنا أن ينقطع المطر وتقلع السحب، ولكن الأمر طال فقلنا نخرج وأمرنا إلى الله وإذا بالباب - تحت السماء - جمهور من الشبان، وكانوا وقوفًا ينتظرون ولا يتكلمون فقال أحمد بك "انظر! هؤلاء الشبان استمعوا إلى حديثك في مقهى قريب، ثم خفوا إلى دار الإذاعة ليروك".

فأخذتني خفة من الزهو، ما لبثت أن ذهبت عني وحل محلها الإشفاق على هؤلاء الشبان الذين وقفوا في المطر على حين كنا ندفأ ونشرب الشاي ونزجي الوقت بالكلام، فحييتهم وأعربت لهم عن شكري وأسفي لما تعرضوا له من البرد والبلل.

وركبنا سيارة أحمد بك - أو سيارة أخيه كما لا أملّ أن أقول - وعدنا بها إلى الفندق فقلت له في بعض الطريق:

"إن لي أكثر من ثلاثين سنة وأنا أكتب وأنشر وأحاضر وأتحدث، في مصر، فلم أر شيئًا كهذا، ولست أعد هذا مظهر فتور عن أدبي، ولكنما أرى أننا في مصر نتلقى الأمور بشيء من التسهل، أما في العراق فإن أهله يتلقون الأمور بجد صارم نستغربه

---

(١٣١) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٢٢ فبراير ١٩٤٥ (ص٣ ، ٤) ، ولا يوجد فصل يحمل رقم (٩) !! (المحرر)

نحن المصريين ونراه مجاوزاً للقدر الواجب، ويزيد فى استغرابنا أنكم أهل ظرف وفيكم فكاهة وأخلاقكم واسعة".

وقد تكررت هذه "المظاهرات" عقب كل حديث تقريبًا، فرجوت من دار الإذاعة أن يترفقوا بهؤلاء الشبان ويدخلوهم فى بعض الغرف وقاية لهم من البرد والمطر، وكان أحمد بك عظيم السرور بهذه المظاهر، لا لأن فيها تحية لى وحفاوة بى، بل لأنها إيذان بأن الشبان يقبلون على الاستماع لهذه الأحاديث ويعنون بها، وهذا ما يبغيه، فإن همه الشبان وتوجيههم إذ كانوا هم مناط الأمل.

وتوالت بعد ذلك الدعوات إلى زيارة المدارس، حتى عدت لا أدرى أيها أجيب وأيها أعتذر من عجزى تلبيته، فوكلت الأمر إلى أحمد بك يرتبه كيف يشاء، وكانت كل دعوة معناها القاء محاضرة طويلة أو وجيزة، وأين الوقت الذى يتسع لهذا كله؟ ومن أين أجئ بالكلام وأسح به على هذا النحو المطلوب؟ وأشفقت على نفسى، فإنى لم أتعود الارتجال، وبديهتى لا تسعفنى، وكثيراً ما تخوننى، وقد ألفت أن أفكر على مهل، وفى سراح ورواح، وأن أكتب ما يدور فى خاطرى، وأن أتوخى الدقة فى اختيار الألفاظ للعبارة عن المعانى، ولا يتفق هذا وما يتطلبه الارتجال من سرعة خاطر وحضور ذهن وتتابع الكلام فى عجلة ولو كان هذراً محضاً، ولا وقت للتهيؤ وإعداد كلمات مناسبة.

وأسلمت الأمر لله مرة أخرى وسألته الستر وتجنيبى الفضيحة.

وقد قال لى الكولونيل سكيف – وهو أستاذ فى جامعة فؤاد ومندوب فى العراق لمهمة ثقافية – وقد سمع بما أتجشمه:

"إن هذا مرهق، ثم أن لك سمعة أدبية من حقك وواجبك أن تحافظ عليها".

فقلت له: "وماذا أصنع؟ لا يسعنى أن أرفض، لأنه إهانة لمن يريد أن يكرمنى ثم أنه يسرنى أن تتاح لى فرصة لزيارة المعاهد العلمية والوقوف على درجة الثقافة فيها، وقد حُفت الجنة بالمكاره كما تعلم، فلا مفر من أن أسمع خطبًا وألقى خطبًا والله المسئول أن يعيننى".

ولكنى مرضت قبل أن أزور هذه المعاهد، وأسمع خطب الترحيب فيها وألقى ما يلهمنى الله إلقاؤه، وحال المرض دون إلقاء محاضرة عامة كنت أعددتها، ولهذه المحاضرة قصة لا بأس من إيرادها: ذلك أنى وعدت أحمد بك أن ألقى محاضرة عامة بقاعة الملك فيصل واستمهلته ريثما أهتدى إلى موضوع موافق وأفرغ من بعض الأحاديث التى جئت لإذاعتها، وفى اليوم التالى حضر عندى مدير التعليم الثانوى، وكلمنى فى أمر محاضرة عامة ألقيها بقاعة الملك فيصل، فرويت له ما دار بينى وبين أحمد بك فى هذا الشأن وأحلته عليه، وفى الصباح قرأت فى الصحف ما يشبه أن يكون بيانًا موزعًا عليها، وكانت عبارته جافة جافية، وجاء فيه أيضًا أنى وافقت على أن يكون موضوع المحاضرة "رسالة الأديب فى الشرق العربى" وليس هذا بصحيح، فدهشت واستثقلت صيغة الخبر، وكلمت أحمد بك فى هذا، فكان مثلى تعجبًا واستهجانًا لعبارة الخبر، ويظهر أنه كلم المدير، فقد خاطبنى بالتليفون واعتذر وأكد لى أنه لا يعلم كيف نشر الخبر، ولكنه مع ذلك أبدى استحسانه للموضوع فقلت له:

"يا سيدى، هذا موضوع يعجز عقلى القاصر عنه، فلست أعرفه للأدب أو الأديب رسالة خاصة فى الشرق العربى تقصر عليه وحده دون غيره من رقع الشرق أو الغرب، فإذا كان الموضوع يعجبك فألق فيه أنت محاضرة، ومنك نستفيد".

وتعمدت المطاولة والتسويف بعد ذلك، حتى لقيت المدير بعد أسبوع فى حفلة أقامتها السفارة البريطانية، ودعيت إليها، فأعاد الكرة، فأعدت ما قلت له، وكنا مدعوين فى تلك الليلة إلى حفلة بنادى القلم، وله قصة أخرى سأقصها فيما بعد، فتوسل بأحمد بك وساقه علىّ، وأحمد بك أثير عندى عزيز علىّ، فقلت له:

"أما الموضوع فالمرأة وأثرها فى اللغة والأدب، وأما الموعد فاتفقا عليه".

اتفقا على يوم الاثنين، وأعددت المحاضرة فإذا بالموعد يرجأ إلى الأربعاء بغير علمى أو علم أحمد بك، فلولا أنّا سألنا ظهر الاثنين، لذهبنا إلى القاعة لنجدها خاوية وأبوابها موصدة، على أنى أغضيت عن هذا، فإن للعتاب أو الاحتجاج أوانه الذى لن يضيع، غير أنى مرضت مساء الاثنين، وألزمنى الطبيب الفراش، فأرجئ كل شىء،

وسرنى على الخصوص أن المحاضرة أرجئت إلى أجل غير مسمى.

وهنا ينبغى أن أذكر مع الشكر أن معالى الدكتور الألوسى وزير المعارف تفضل فعادنى مرات، وزاد فبعث إلىّ الطبيب يعودنى ويسألنى هل أحتاج إلى طبيب أخصائى، فقلت أمازحه:

"نعم، فإن طبيبى يقول لى إن كبدى متضخمة فإذا كان عندكم طبيب يستطيع أن يعيرنى كبداً سليمة، فإنى أكون شاكراً له".

فأضحكنى أنه قال بلهجة الجد "زين" وانصرف!

ولا أدرى إلى الساعة على أى محمل حمل كلامى.

وقد شفيت بعد أيام، وذهب التضخم أو الاحتقان، وذهبت إلى البصرة، وفحصت الكبد بالأشعة، فكشفت عن حالة طبيعية.

ولكن المرض وإرجاء المحاضرة إلى ما بعد أوبتى من البصرة نفعانى، فقد كان ذلك هو الذى يسر لى أن أرى الجنس العراقى اللطيف.

رحلة العراق[١٣٢]

(١١)

بعد أن أبللت من مرضى، ببغداد، ورجعت إلىّ نفسى، واستأنفت التحدث فى الأدب من محطة الإذاعة، دعيت إلى زيارة دار المعلمين العالية، وفيها طائفة متخيرة من صفوة الأساتذة المصريين، والدار بناء حديث فى حى "الوزيرية" وهو حى أنشأه، أو خط الطريق فيه وال تركى كان قبل ذلك وزيراً، كما حدثنى أحمد زكى بك الخياط، وهو عالم بخطط العراق.

وفى الدار قاعة فسيحة مستطيلة الشكل، فى صدرها منصة عالية – أو ما يشبه المسرح – مرقاتها من خشب، تقابلها وتواجهها فى الطرف الآخر من القاعة شرفة واسعة "للجنس اللطيف" إذا شئن أن يحضرن، والقاعة لسعتها وخلوها من وسائل التدفئة، باردة يقف فيها البدن، ومثلها القاعات الأخرى التى اتفق لى أن أزورها فى بغداد وغيرها، كقاعة المحاضرات فى نادى إخوان الحرية، وقاعة دار المعلمين الابتدائية، وقاعة نادى المحامين، وقاعة المدرسة الثانوية بالبصرة، وكان البرد أخوف ما أخاف فى تلك الأيام بعد أن أقبلت إلى البرء، وزاد خوفى أن رأيت بعض ألواح الزجاج – ويسمونه الجام وهى فارسية على ما أظن – فى النوافذ العليا مكسوراً، ولكنى توكلت على الله وسألته السلامة.

---

(١٣٢) نشرت فى "البلاغ"، فى أول مارس ١٩٤٥ (ص٣) .

وقمنا إلى القاعة بعد أن استرحنا فى غرفة العميد أو نائبه على الأصح - فقد كان العميد الدكتور عقداوى قد سافر إلى مصر ليشترك فى المباحثات الثقافية - وإذا بها غاصة بالطلاب والطالبات، وقد علمت أن فى الدار مائة وعشرين طالبة، ونحو ثلاثمائة من الطلاب، أو لعل هؤلاء وأولئك ثلاثمائة فقد نسيت، والطالبات يرتدين ما ترتدى المصريات، ويسفرن كسفورهن ولكن بعضهن يتخذن فوق ألبستهن ما يسمى "العبا" أو "العباءة" وهى ملاءة من حرير أسود رقيق ذات لفقين، مشقوقة المقدم، تشبكها الفتاة أو السيدة بشعرها وتسدلها على الكتفين والظهر إلى القدمين ولا تستر الوجه أو الصدر، فما أدرى ما خيرها؟ إنها تريد لا فائدة منه، وأكثر من رأيت لا يخرجن إلى الطريق إلا بها وحدثتنى فتاة إيرانية أنها سافرة كالإيرانيات جميعًا، ولكنها لما دخلت المدرسة الثانوية للبنات اضطرت أن تتخذ هذه الملاءة لأن زميلاتها ألححن فى زجرها، وقد رويت هذا لسكرتيرتى - أى والله كانت لى سكرتيرة فى بغداد!! وما هى بسكرتيرة، وإنما هى شقيقة صديق عزيز كان كثيرًا ما يضطره عمله إلى السفر من بغداد فينيبها عنه فى مرافقتى إلى حيث أحب، وكانت ترعانى وتبرنى و[توفر] لى الراحة، فتتولى عنى الرد على التليفون والاتفاق على مواعيد المقابلات، وما يجرى هذا المجرى، ورأى ذلك رجال الفندق فزعموها سكرتيرة، جزاها الله عنى خير الجزاء فإنى عاجز عن شكر مروءتها، فقد كانت على كونها أصغر من بعض بنى، تغمرنى بمثل عطف الأم وحنانها - أقول إنى رويت لها ما حدثتنى به الإيرانية وسألتها عنه فقالت إنه لا يمكن أن يكون صحيحًا فما من فتاة حديثة فى العراق إلا وهى تستثقل هذه الملاءة وتبرم بها.

وكان لا بد أن أتكلم فى هذا المجمع، فما دعيت إلا لأقول شيئًا، وإلا فلست "بالمازنى" كما قالت لى مرة إحدى المعلمات فضحكت، وقلت لها إن المازنى اسمى، وليس بلقب لى! وأنا امرؤ خفيض الصوت، وإخوانى يشكون من خفوته ورفعه جهد

يتعبنى، وقد خفت أن لا يسمع ما عسى أن أقول إلا الأقربون فأوعزت إلى سكرتيرتى العزيزة أن تكون فى وسط القاعة، وأن تشير إلى برفع الصوت إذا رأته لا يخرج، ففعلت وجعلت تشير - على قولها - وأنا لا أرى!

وجلست على المنصة بين إخوانى المصريين الذين حفوا بى، تالله ما أطيبهم وأكرمهم! ولما آن أن أتكلم، خطر لى أن أليق ما أتحدث به إليهم، قصة تجربة لى فى آخر عهدى بالتعليم، وكنت قد توليت أمر مدرسة ثانوية حرة، قبل الثورة المصرية بثمانية شهور، فألغيت السنتين الثالثة والرابعة، واكتفيت بالأولى والثانية، والسنة تسمى الصف فى اصطلاح البلاد العربية، وجمعت إخوانى المعلمين وقلت لهم إنى لا أؤمن بالعقاب المألوف فى المدارس كوسيلة من وسائل التعليم أو التربية، وأنى زاولت التعليم عشر سنوات لم أحتج فيها مرة إلى معاقبة تلميذ، ولم أر من تلميذ ما يسوءنى أو يثقل علىّ، وإن ما وسعنى على ضعفى ينبغى أن يسع غيرى، فلا عقاب فى مدرستى، ومن كان لا يستغنى عن العقاب فأولى به أن يعمل فى مدرسة أخرى، فإنما هؤلاء أبناؤنا، وقد جاءوا ليتعلموا، وهم صغار وأغرار فمعقول أن يصدر عنهم ما لا نحمد ولا نرضى عنه نحن الكبار؛ فإذا أخطأوا أو قصروا، أو لعبوا، أو فعلوا ما يفعل الصغار من ضروب "الشقاوة" أو العبث، فهذا غير مستغرب، ولا ينبغى أن يكون مستنكراً، فإن المفروض أن العلم والتهذيب [ينقصهم]، ومن سوء الرأى فى ملتى أن نعاقبهم على شىء من ذلك وواجبنا أن نترفق بهم، وأن نعاملهم بالحسنى وأن نجعلهم يثقون بعطفنا عليهم وحبنا لهم وأننا نريد خيرهم، وأن نعودهم أن يفكروا بعقولهم، وينظروا بعيونهم وأن ننمى فيهم الشعور بأنهم رجال وأن عليهم تبعات لأنفسهم ولبلادهم، وأن نعلمهم أن الحقوق والواجبات مقترنة غير منفصلة، فكل حق يقابله واجب لا مهرب منه، وأن نعودهم أن يتولوا أمورهم بأنفسهم، ومن أجل هذا، لا عقاب فى مدرستى، ولا بوابة توصد فمن زهد فى التعلم، وشاء أن يخرج، فله ذاك، ولن يكون هذا إلا ذنبنا نحن لأنا نكون قد عجزنا عن تحبيب العلم إليهم، وأخفقنا فى مهمتنا، وسأدع التلاميذ يختارون حكومتهم ليتدربوا على النظام وإقامة العدل واحترام أنفسهم.

وكان عدد التلاميذ الذين اكتفيت بهم لا يتجاوز مائة وستين، وهو عدد قليل، وكنت أوثر أن يكون أقل - فى البداية - لولا حاجة المدرسة إلى المال فما كان لها دخل

خاص، ولا كان لنا فيها معين، وأعتقد أن التجربة نجحت، فقد حسنت أخلاق التلاميذ، وواظبوا على الحضور فلم يكن يغيب منهم فى أى يوم أكثر من واحد، وقد جاءنى مرة تلميذ وهو محموم فسألته لماذا جاء وبه هذه الحمى؟ قال:

"خفت أن تظن أنى تخلفت لألعب".

قلت: "لا ينبغى أن تخاف شيئًا من هذا، فإنا نعهد فيكم الصدق ولا نعهد فيكم الكذب".

ودعوت له بالطبيب، ووكلنا به من إخوانه من يعنى به ويقوم على تمريضه فقد كان يعيش وحده.

وظللنا على هذا الحال راضين مغتبطين مستبشرين بنجاح التجربة ثمانية شهور، نؤاكل التلاميذ ونخالطهم مخالطة الأخوة الكبار أو الآباء للأبناء، ونتحرى معهم كل ما تقتضيه التربية الاستقلالية، ثم قامت الثورة المصرية، فتعطلت الدراسة وتركت أنا التعليم، لأشترك فى الحركة الوطنية بقلمي، وهو كل ما أملك، وزاولت الصحافة، فلم يتيسر أن أمضى فى التجربة إلى نهايتها، فلا أدرى ماذا كان يمكن أن تسفر عنه لو زاد عدد التلاميذ واتسعت المدرسة؟

كان هذا مدار حديثى إليهم، وقد تبنت فيما بعد أن الطالبات كن أكثر عناية به، من الطلاب، وعسى أن يكون السبب أنهن بطبيعتهن أميل إلى الرفق، وأن الحنو فيهن فطرة، وأن عاطفة الأمومة من أقوى عواطفن، والله أعلم.

وقد طافوا بى بعد ذلك فى المدرسة وأرونى بعض ما فيها، وتبينت أنهم يجرون على ما يشبه النظام الذى وصفته فى كلمتى!! وأنا أحسبنى جئتهم بجديد!! وانصرفت وبى خجل، فقد ضيعت وقتهم بغرورى!

وقبل أن أغادر القاعة قدم لى طالب صورة لى رسمها بالقلم الرصاص وأنا أتكلم، وأشهد أنها خير من الأصل.

رحلة العراق[١٣٣]

(١٢)

رأينا أن الأوفق، وقد دنا موعد السفر إلى الجنوب، أن نختصر الحفلات، لا بإلغائها فهذا عسير، وفيه سوء أدب، فى حق أهل المروءة والكرم، بل بضم بعض الحفلات المدرسية إلى بعض، وإرجاء الفردى أو الشخصى منها إلى ما بعد الإياب، وهكذا اشتركت دار المعلمين الابتدائية ودار المعلمات فى حفلة شاى واحدة قدمنا موعدها لنفرغ منها قبل الغروب واتقاء لبرد الليل حرصاً على صحتى الغالية!! وما كنت أنا المشير بالتقديم على رغبتى فيه، تحرجاً من الإثقال على الناس وإكراههم على الحضور بعد الغداء بقليل، بل أحمد بك زكى مدير الدعاية الذى كان كأنما يقرأ ما فى نفسى بغير كلام، حتى لقد زدت إيماناً بأن فى الوسع أن يتفاهم الناس بغير أداة اللغة، وما لبثت أن جهرت بهذا الرأى فى حديث مذاع ذهبت فيه إلى أن الإنسان يرتقى ويطرح اللغة ويعتاض منها موجات نفسية تغنيه عن كل كلام ولا عجب فإنه من طينة الأرض، وفيه كل عناصرها، ففى مقدوره متى استطاع أن يحسن الانتفاع بما بنى عليه من المواد أن يجعل من نفسه محطة إرسال واستقبال فى آن معاً، ولا أدرى ماذا كان وقع هذا الرأى فى العراق، وقد قلته فى مصر من قبل بغير توسع، فمر به القراء مر الكرام ولم يعيروه التفاتاً كأنه من اللغو ولكن صديقى السيد فخرى شهاب حدثنى أن هذا الرأى جار فى نفسه أيضاً.

---

(١٣٣) نشرت فى "البلاغ" فى ٥ مارس ١٩٤٥ (ص٣ ، ٤) .

ودار المعلمين الابتدائية من أكبر دور التعليم فى العراق، بل لعلها أكبرها جميعًا، ولكنها كغيرها لا وقاية فيها من البرد، وقد أشفقت على الطلبة ورثيت لهم وإن كانوا فتيانًا أقوياء لا يضيرهم ما يضير مثلى فى كهولته، واجتمعنا على مائدة الشاى الحافلة - المعلمون والمعلمات وعميدتهن السيدة أمة سعيد، وكانت قد دعتنى إلى الشاى فتخلفت لمرضى، وكان الرجال يقفون فى ناحية والمعلمات فى ناحية أخرى، وإن كن سافرات، فقدمتهن السيدة أمة إلىّ، وفرقتهن بين الرجال بلباقة، ولم أستغرب هذا الخجل من الفريقين فإن العهد بالسفور واختلاط الجنسين قريب، وقد وجدت بين المعلمات حفيدة لصديق لى من أساطين العلم والتربية فى الشام - وأكبر ظنى أنها بنت أخيه أو أخته فقد نسيت - فشغلت بالحديث معها حتى دعينا إلى الدخول إلى قاعة الاجتماع.

وهى أيضًا مستطيلة رحيبة وعالية السقف، وباردة، وفيها الشرفة المعهودة للمنتقبات اللواتى لم يجرؤن على السفور وسمعت تحية كريمة من طالبة ذكية عرفت فيما بعد أنها بنت أديب شاعر عراقى فلم أستغرب منها حسن البيان وإحكام الأداء واجتناب الفضول، ثم أنشد طالب قصيدة تعلقت ببيت منها وأدرت الحديث عليه، فما كنت أعددت شيئًا، ومتى أفعل ذلك وأنا أنتقل من حفلة إلى حفلة ومن اجتماع إلى اجتماع ولا أزال أزور وأزار حتى يشير على أحمد بك بأن أهرب إلى غرفتى فأنام؟

وقد غاب عنى معظم ما قلت ولكنى أذكر أن اللغط كان كثيرًا فى تلك الأيام بالمؤتمر النسوى الذى عقد بالقاهرة، وبقراراته التى حملها إلينا البرق، ومن بينها ما قررته أو طلبته من حذف نون النسوة، وكنا على الشاى نتذاكر هذا الحديث، وكانت الشرفة غاصة بالسيدات ونصف الحضور فى القاعة من الطالبات فاستطردت إلى هذا الموضوع وأفضيت برأيى فيه مازحًا وجادًا، وأذكر أنى قلت إن المطالبة بحذف نون النسوة أقل ما فيها أنها تنطوى على إغفال تام لحقائق الحياة، والتأنيث والتذكير موجودان فى كل لغة فى العالم حتى فى اللغة الإنجليزية التى هى أقل اللغات تفريقًا بين الجنسين، وفى بعض اللغات تذكر وتؤنث أداة التعريف وهذا طبيعى فإن الجنسين

ليسا سيان لا فى الخلق ولا فى الوظيفة، ولو حذفنا من كل لغة علامات التأنيث لما أمحت الفروق بين الرجل والمرأة، والدعوة إلى المساواة خطأ فى خطأ، وسوء فهم بلا أدنى شك، فإنها أولاً مستحيلة، ثم إن المهم والأولى أن يبلغ كل جنس كماله وأن يؤدى وظيفته على خير وجه، وأحسن أو أرقى صورة، ولست أنكر على المرأة أن تتحرر من ربقة الرجل، ولا أنا أأباه عليها، بل أنا نصيرها إذا وسعها ذلك، ولكن عليها هى أن تحرر نفسها، فما نستطيع نحن الرجال أكثر من تعليمها وتثقيفها وصقلها ومعاملتها معاملة إنسانية، واحترام ما لها من حقوق، والباقى عليها هى، إذا كان يدخل فى طاقتها، وأعربت عن شىء من الشك يخالجنى فى ذلك، وقلت إنى حرصت فى السنوات العشرين الأخيرة على قراءة الأدب النسوى فى الغرب على الخصوص عسى أن أعرف رأى المرأة فى المرأة، وصورتها هى فى نفسها وفهمها بطبيعتها، فلم أخرج بشىء، وعللت ذلك بأن المرأة حتى فى أرقى دول الغرب ما زالت خاضعة لسلطان الرجل، وهبها غير خاضعة له، فإنها لا تستطيع فى بضع عشرات من السنين أن تتخلص وتتحرر مما أورثها الخضوع له عشرات الآلاف من السنين، فهى ما انفكت تنظر بعينه وتفكر بعقله، وتصدر عن وحيه، ولا سبيل إلى التحرر التام - إذا كان إليه سبيل - إلا بعد زمن طويل كاف تبلغ فيه مبلغه - إذا أمكن - من العقل والقوة وتستغنى عن حمايته، وتقاتل دفاعًا عن نفسها وحماية لبنيها وذودًا عن حقيقتها وحوزتها كما يقاتل هو دفاعًا عن نفسه وعنها، بل باغيًا وظالمًا أيضًا، فإذا أمكن أن تفعل هذا وقدرت عليه، فإن لها يومئذ أن تزعم أنها مساوية للرجل وند له فى كل شىء، على أن ذلك - إذا كان - لم يمنع أنها ستظل أداة لحفظ النوع، وأن وظيفتها فى الحياة خلاف وظيفته، وأن جسمها غير جسمه فى تركيبه واستعداده وفيما هو ميسر له، وتعجبت للمرأة تتحمس للمساواة المستحيلة، وتصفق للمؤتمر النسوى فى مصر، وتطرب لقراراته، وتغضب إذا ضحكنا من هذه القرارات العجيبة، وهى لم تنل السفور، ولا تزال تخجل أن تبرز للرجال مكشوفة الوجه، بل تخاف أن تتبدى له، فهى ما فتئت لا تملك من أمرها إلا ما يأذن لها الرجل فيه، وقدرتها على المقاومة هى قدرة الجدران الأربعة التى تحيط بها فى دارها، أو قدرة الرجل على حمايتها، ومناعتها النفسية أو الأخلاقية ما انفكت

مستمدة من هذه الحماية، وضربت لهن مثلا فقلت إنى كنت فى صدر حياتى أزكم كثيراً، فلما عادنى الطبيب مرة فى أول الصيف، ورأى كثرة ما على بدنى من الثياب، قال هذه هى الآفة، فإن ثيابك هى التى تقاوم المؤثرات الجوية لا بدنك ويجب أن تعوِّد بدنك المقاومة والصيف فرصتك، فاطرح هذه الثياب شيئًا فشيئًا ونم وليس على بدنك إلا جلابية رقيقة خفيفة للستر، واغسل رأسك كل يوم بالماء البارد، وسترى أنك ستغدو أصح وأقوى، وقد صدق، فلما أقبل الشتاء ألفيتنى قد استغنيت عن المعطف والقمصان من الصوف لأن بدنى تعود المقاومة واكتسب مناعة لم تكن له، واستغنى عن وقاية الثياب وما زلت إلى اليوم، على ضعفى أقل من أندادى فى السن ثيابًا، وأقدر على احتمال المؤثرات الجوية بفضل هذا الطبيب الحكيم.

وحضضتهن على السفور والتعلم واستكمال الآلة واكتساب المناعة الذاتية قبل أن يلهجن بهراء المساواة، فما يغيب المرأة ولا يغض من قدرها أن تقتصر على وظيفتها، وليس اختلاف الوظيفة تحقيراً للمرأة وتكريمًا للرجل، فإنما هو من قبيل توزيع الاختصاص.

وقد أحدث هذا الكلام ضجة، ولكنه لم يكن يسعنى خلافه، وروى لى صديق أنه سمع بعض السيدات يقلن إن المازنى شر من توفيق الحكيم فى عداوته للمرأة، فقلت:

"هذا خطأ مزدوج نصححه في فرصة أخرى إن شاء الله ولا بأس من غضبهن ساعة ثم يفئن إلى ما هو أرشد وأحجى".

رحلة العراق[١٣٤]

(١٣)

ركبنا القطار السريع إلى البصرة بعد الغروب، وكان معى السيد فخرى شهاب مراقب الإذاعة، أو كنت أنا معه - سيان - وهو أيضًا محام للسكة الحديدية، فله عليها دالة، وبفضله تسنى أن يحجز لنا مكانا النوم فى مركبة مكيفة الهواء تلحق بالقطار يومين فى الأسبوع - مخافة إرهاقها على ما يظهر! ومن أجل هذا كان يوم السفر أو ليلته رهنًا بهذه المركبة الفذة، وكذلك يوم إيابى هو اليوم الذى تضم فيه إلى القطار، فليس لنا فى الأمر اختيار أو مشيئة، والمرجع كله إلى المركبة ونشاطها، فإذا هى انشرح صدرها للحركة تحركنا، وإلا بقينا حيث نحن، فى بغداد أو فى البصرة أو فى حيث تشاء أن تكف عن العمل وتؤثر الراحة والكسل.

وقد قلت إنه "القطار السريع" فيحسن أن يعرف القارئ مبلغ سرعته، وهى ثلاثون كيلو مترًا أو ميلا فى الساعة إذا لم يدعه إلى الفتور أو الترفق داع، وقد قطع بنا ما بين بغداد والبصرة فى عدد من الساعات أعيانى حسابه - فإنى ضعيف فى علوم الرياضة - فأنا أكله إلى القارئ، وأعينه بقولى إن القطار شرع يعتسف طريقه فى منتصف السابعة مساءً، وقد تعشينا فيه ونمنا الليل كله، ولم تشعر برجة أو حركة، ثم أصبحنا وغسلنا وجوهنا وحلقنا لحانا، وارتدينا ثيابنا، وأفطرنا وهو يسكن تارة حتى تقول لن يتحرك ثم يستأنف التأتأة والحبو، ونحن نشجعه ونستحثه ونهتف به، ونصفق

(١٣٤) نشرت فى البلاغ فى ٨ مارس ١٩٤٥ (ص٢).

له، ونصيح "مرحى مرحى" أقدم ولا تخف! فيسره هذا ويصفر صفيراً عظيماً، ويتجمع للدرجان، ويجتهد حتى يكاد تنشق ألواحه من شدة النفض، حتى بلغ بنا البصرة قرابة الساعة الحادية عشرة ودخل محطتها ينفخ وينهج ويلهث وينثر الحصى ويثير التراب وراءه فتالله ما أصبره على المشقة وأعظم مثابرته وجلده على الدءوب!

وقد قلت لصديقى فخرى ونحن نودع القطار ونشكر له حسن اجتهاده لنا:

" يا أخى أنى أرى سكتكم الحديدية ظالمة باغية! وأن هذا الذى تصنعه بقطارها حرام، إنه قطار شراعى فكيف تنزع قلوعه ولا تدع له إلا ضلوعه، ثم تدفعه على الخط وتقول له سر على بركة الله؟ فلولا أنه قطار أصيل لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة، إنها بركة الله ولا شك، وطيب معدن القطار".

وقد علمت من صديقى أن المسئول هم الإنجليز فإن السكة الحديدية فى العراق فى أيديهم دون أيدى العراقيين، وستظل كذلك بضع سنين أخرى، فللقطار عذره فإنه يعمل جاهداً منذ دخل الإنجليز العراق فى إبان الحرب الماضية فهو ولا ريب "مجهود المجاهيد" واللوم كله على الإنجليز، فقد ادخروا للسكة الحديدية من ربحها بضعة ملايين من الجنيهات سمعت أنها ستة ومع ذلك يبخلون على القطار المرهق بشراع واحد!!

وكان شوقى عظيماً لرؤية البصرة فإن لها لتاريخاً ويوشك أن يصبح لها فى المستقبل مقام عظيم، وقد بنيت على مقربة من الأبلة عند اجتماع النهرين – دجلة والفرات – متصلة بالخليج الفارسى فى السنة الثانية عشرة من الهجرة فى خلافة عمر بن الخطاب، ويقول المؤرخون إن عتبة بن غزوان فتح الأبلة كتب إلى عمر يقول إنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غزوهم فأشار عليه عمر – وكان قواده لا يصنعون شيئاً إلا بأمره – أن يجمع أصحابه فى موضع واحد قريب من الماء والمرعى وأمره أن يكتب إليه بصفته قبل أن يتخذه، ففعل فاطمأن عمر وأذن له فنزل عتبة وأصحابه فى موضع البصرة وبنوا مساكن بالقصب، فالتهمتها النار، فأذن الخليفة فبنى أهل البصرة باللبن ثم بنيت بالحجارة وأقيم فيها مسجد وصارت ثغر العراق.

ويتخيل هـ.ج. ولز فى كتابه "صورة ما سيكون" مؤتمراً يعقد فى البصرة فى سنة ١٩٦٥ من العلماء والفنيين ينظمه اتحاد النقل وأنه سيتقرر فى هذا المؤتمر للمرة الأولى أن الجماعات الإنسانية الحديثة لا محل فيها للملكية الفردية، وأن المساكن والأرض تكون بالاستئجار لمدد غير طويلة لا تتجاوز فسحة العمر على الأكثر وسيعقد مؤتمر آخر فى سنة ١٩٧٨ ينشأ على أثره مجلس للشؤون العالمية، وليس أمامى كتابه وأنا أكتب هذا ولكنى أذكر أن البصرة صارت فيما يتخيل ميناء جوياً عظيماً فيه نحو ثلاثة آلاف طائرة برية ويضع مئات من الطائرات المائية ومائة من سفن الحراسة ونحو خمسة وعشرين ألفًا من رجال الطيران وذلك للسيطرة على الجو والبحر.

وليست البصرة الحديثة فى مكان البصرة القديمة التى أنجبت مشاهير العلماء والفقهاء ورجال الكلام والشعراء والكتاب، فقد زالت تلك وأُمحت من الوجود ولم يبق منها إلا ما هو دون الفهرس من الكتاب، ولكن البصريين الحديثين يحرصون على إحياء بعض الأسماء يطلقونها على الشوارع كشارع الجاحظ، وشارع بشار إلى آخر ذلك، ولا يهملون العناية بمواقع الآثار التاريخية.

وقد لقينا عند نزولنا من القطار اثنان من الأساتذة المصريين عرفت منهما بغير تعريف الأستاذ إبراهيم صبرى مدرس اللغة الإنجليزية بثانوية البصرة، وصديق ابنى وزميله، وقد حملنى إلى ابنى سلاماً نسيت أن أؤديه! فها أناذا أبلغه!

وكان معهما أيضًا السيد عبدالسلام باش أعيان، رئيس البلدية، والسيد أنور مخلص السكرتير الشخصى لمدير الميناء، وهى مصلحة مستقلة لا سلطان عليها لحكومة العراق، وآخرون غابت عنى أسماؤهم، فأركبونا سيارة أعدوها لنا وخصونا بها أثناء مقامنا بالبصرة ومضوا بنا إلى فندق "شط العرب" وهو يطل على مطار البصرة العظيم الذى لا نظير له فى الشرق الأوسط كله والهواء فيه مكيف، فاسترحنا دقائق ثم ركبنا إلى دار الحكومة لتحية المتصرف السيد مظفر أحمد بك، وهو من أرق

من رأيت وأحذقهم وأكرمهم وأحسنهم سياسة وأحكمهم إدارة، وأبعدهم نظراً فى أعماله كلها، فأكرم وفادتنا وأمر لنا بالقهوة فاعتذرت، فقد كففت عنها، فأمر لنا "بحامض" وهو عصير ليمون (سفن) محلى بالسكر، فشربناه هنيئا، واطلعنا عنده على برنامج إقامتنا ثم انصرفنا شاكرين لنتغذى ونجتمع عصراً على الشاى فى بيت خلوى على شط العرب للسيد [...][١٣٥]

(١٣٥) الاسم غير واضح فى الأصل ولكنا سنعرفه فيما بعد! (المحرر) .

رحلة العراق[١٣٦]

(١٤)

كان مقامي بالبصرة قصيراً ولكنه حافل، فإنا في حركة دائمة من الصباح إلى الليل، وقد اضطررت أن أستغني عن النوم والراحة بعد الظهر لأن الوقت لا يتسع لهذا، وتلك تضحية كبرى مني! فقد اعتدت هذا النوم - كما قلت لبعضهم - مذ ولدتني أمي، بل من قبل ذلك بقرون! ولكني لم أشعر أني نزلت عن شيء أو ضحيت براحة، فما تعبت ولا فترت، ولا تثاءبت حتى ولا مرة واحدة، فقد كان الجو أطيب ما رأيت والناس أظرف من لقيت وعرفت في أسفاري جميعاً، وأرقهم شمائل وأكرمهم نفوساً، ولم يحيرني إلا قنصل المملكة العربية السعودية، صديقي السيد فؤاد شيخ الأرض، وكنت حريصاً على لقائه كحرصه على لقائي، ولكنا كنا كأنما نتحاور، فما سألت عنه إلا ألقيته قد خرج يبحث عني، ولأسأل عني إلا ألفاني قد "زغت" أو ذهبت إلى حيث لا يستطيع أن يدركني، فلما التقينا آخر الأمر - وما كان يمكن أن أرحل عن البصرة دون أن أراه - قال كل منا لصاحبه: "يا شيخ! أتعبتني وحيرتني!".

وكانت أمتع نزهة تلك التي رتبها لنا المتصرف مظفر بك، في شط العرب، فقد أعد لنا زورقًا بخاريًا وثير الفراش، وهيأ لنا طعامًا نقله إلى بيت السيد نجم الدين النقيب على شط العرب، وسبقنا إليه وانتظرنا فيه حتى نعود من رحلتنا البديعة، فلولا الجوع لخرجنا بالزورق إلى الخليج الفارسي! وقد ضحكت ونحن عائدون إذ تذكرت

---

(١٣٦) نشرت في "البلاغ" في ١٢ مارس سنة ١٩٤٥ (ص٣).

قول ابن الرومى فى خادم له:

لى خادم ما أزال أرتقبه   يغيب حتى يرده سغبه

فقد صرنا كهذا الخادم! وما ردنا إلا الجوع وحده.

وكان المتفق عليه أن نستقل الزورق فى الساعة التاسعة صباحًا، ولكن زميلى السيد فخرى شهاب أخرنا نصف ساعة لأنه أبى إلا أن يقلدنى فيزوغ! وأين كان بالله فى هذه البكرة المطولة، بل المطيرة، لا يدرى أحد، وكان خوفنا على النزهة أن تقصر مدتها، لا عليه فإنه بصرى مولداً ونشأة، فلا حاجة به إلى دليل، أو قائد، ولا خوف عليه من ضلال.

والبصرة "بندقية" الشرق، فإن فيها نحو ستمائة نهر وجدول تتخللها، وقد رأينا مصداق ذلك ونحن نجرى بزورقنا فى الشط، وهو عريض واسع والنخيل كثيف على جانبيه، وحسبك من سعته وعمقه أن ست بواخر أمريكية حمولة صغراها عشرة آلاف طن وكانت راسية فيه قرب المحمرة – من ثغور إيران على الشط – ولا تشغل منه حيزاً يذكر، وكان معنا فى الزورق لفيف من البصريين والمصريين، أذكر منهم السادة عبدالسلام باش أعيان رئيس البلدية، ومكى الجميل مدير التموين، وشاكر نعمه صاحب جريدة الثغر، وأنور مخلص سكرتير مدير الميناء، وعبد الرازق آل إبراهيم مدير المعارف، وإبراهيم صبرى المدرس بثانوية البصرة (وهو مصرى) وفخرى شهاب – فقد اهتدينا إلى مخبئه وحملناه معنا – وغيرهم ممن غابت علىّ أسماؤهم، وكنت فى ذلك الصباح قد شربت قهوة "مركزة" ممزوجة بالحليب، بدلاً من الشاى، فعادونى ألم خفيف واستشرت الدكتور الطوخى فنهانى عن القهوة، وآثرت الحيطة، فاتخذت مقعدى فى حجرة صغيرة فى الزورق وقنعت بالنظر من النافذة وتركت الهواء الطلق للفتية الأصحاء، وأراد البعض أن يشرب ويقصف – ليدفأ على ما زعم! – فعرج الزورق على بيت النقيب واحتقب منه زجاجتين مما قضى به العمر مولانا الفارابى – أم تراه غيره وأنا أخلط؟ لا بأس! – وقالوا شاركنا، قلت وددت لو استطعت ولكن الشراب علىّ حرام، فاشربوا لى، وعنى، وحسبى مسكرًا لطفكم وهواء بلدكم الطيب، ففعلوا ولم يقصروا.

ولم نستطع أن نتجاوز المحمرة فى رحلتنا فقد آن أن نعود لنطعم، وعندها يصب نهر "كارون" - وكنت أحسبه لجهلى "قارون" - فى مجرى الشط، وماؤه أحمر كماء النيل فى أيام الفيضان، وكنا نشتهى أن نزور المحمرة، ولكنها إيرانية، وليس معنا جواز، وخفنا أن نثير مشكلاً، وآثرنا العافية والراحة، وأبنا غير نادمين، ومررنا بين جزيرتين واحدة يسمونها جزيرة اللصوص، والأخرى يسمونها جزيرة الرصاص، فأما الأولى فكان يأوى إليها المهربون، وأما الثانية فكان يكمن فيها الشرط ويطلقون منها الرصاص على زوارق التهريب وذلك كله فى العهد التركى.

وكانت السماء ترسل رذاذاً خفيفاً إلا أنه دائم، فلم أتعجب لما رأيت على أحد الشطين فتى وفتاة جالسين على سور يتناجيان، فإن المطر فرصتهما، لأن الناس خليقون أن يؤثروا [السكنة] مخافة البلل، ولكن الغريب أنه كان بيننا وبينهما قرابة نصف ميل، ومع ذلك ما كدنا نحاذيهما حتى حجبت الفتاة وجهها بطرف عباءتها أو ملاءتها، أما الفتى فشخص مستثبتاً، ويرنو إلينا ويتبعنا عينه حتى غبنا عن نظره أو غاب هو عن نظرنا، وكان الذى تعجبت له هذا الخجل الذى أظهرته الفتاة، أترى هو متكلف؟ ورجح عندى ذلك فإن عهدى بالنساء أن ما يسمى الخفر ليس فيهن طباعاً وإنما هو إحدى وسائلهن للإغراء والإغواء، وكل خفر يذهب بعد أول اتصال.

وبلغنا بيت السيد النقيب فألفينا حصيراً مفروشاً إلى بابه مشينا عليه فنجت أحذيتنا من الوحل وكان هناك جمع غفير فمضينا إلى موائد موقرة "بالقوازى" - ومفردها قوزى بالقاف كما ينطقونها - والدجاج وألوان شتى من الخضر وغيرها، وحذرنى الدكتور الطوخى من بعضها فإن فيها حاراً مثل "الكارى" الهندى أعوذ بالله من كيّه، وأنا أكره كل حار وانفر منه لأنه يورث لسانى ورماً وحلقى التهاباً وأمعائى اهتياجاً ومعدتى اضطراباً، ومن العجب أن أهل البلاد الحارة يحبون الحار فى طعامهم، ولست أنسى يوماً فى جدة قدموا لنا فيه حلواء فإذا معظمها زنجبيل فصرخت من شدة التلهب، وما أظن إلا أن شدة الحرارة تفتر الأعصاب فيحتاج الناس إلى ما ينشطها ولكن ما الرأى فى رد الفعل؟

وفرغنا من الطعام واسترحنا قليلاً ثم انصرفت مع السيد عبد القادر باش أعيان نائب البصرة لزيارة مكتبة "باش أعيان" الخاصة وما فيها من مخطوطات نادرة، ثم نلتقى بعد ذلك فى دار السيد شاكر نعمة صاحب جريدة الثغر لنتعشى، وكيف يتعشى بالله من تغذى ليومه ولسبعة أيام تالية على الأقل! ولكن ما الحيلة؟ لا بد مما ليس منه بد، والله المسئول أن يرزق معداتنا الهمة والقوة وإلا فضحتنا وخيبت أملنا وأمل داعينا الكريم، وما كل يوم يدعى المرء مرتين ولا فى كل دعوة يقدم له مثل هذا الطعام البصرى النفيس.

رحلة العراق[137]

(١٥)

قبل أن ننصرف من بيت السيد النقيب قال لى تاجر بصرى كبير إن شيخًا عالمًا فاضلاً اسمه "الشيخ عبدالقادر المازنى" من البصرة منذ زمن وجيز، وسألنى عنه أهو قريبى؟ قلت:

"لا شك هذا جدى رحمه الله!".

فتعجب وسأل: "مات؟ الفاتحة لروحه! لقد كان رجلاً صالحًا، متى مات، فقد كنت أراه فى صحة جيدة".

قلت: "مات يا سيدى، ولا سيدك إلا أنا، فى عام ١٨٩٠".

فشخص الرجل كأنه لا يفهم، وقال أخيرًا: "ولكنه مر بنا منذ شهور؟".

قلت: "معقول، ولا شك إنه كان فى طريقه إلى الصين".

قال: "الصين؟ لست فاهما شيئًا".

قلت: "لك العذر، فلعلك لا تعرف أن بعض الشعوب يعتقد أن الإنسان يموت فتذهب روحه إلى الصين، ووجه العجب عندى أن جدى، فيما أعلم، كان رجلاً مؤمنًا صالحًا، ومن علماء المالكية، وكان همه أن يدخل الجنة، ولست أعلم أن الصين على طريقها، أو من يدرى؟".

---

(١٣٧) نشرت فى البلاغ، فى ١٥ مارس ١٩٤٥ (ص٣).

قال: "لا تمزح!".

قلت: "إنى جاد جداً، ولا شك أن الذى رأيته هو جدى، ألست تقول إنه شيخ عالم فاضل؟ انتهينا إذن! هو جدى بلا مراء".

قال: "ولكنك تقول إن جدك مات فى عام.،، فى عام...".

قلت ألقنه: "١٨٩٠".

قال: "فكيف يمكن أن يكون..."..

فقاطعته قائلاً: "يا أخى سبحان من يحيى العظام وهى رميم".

قال: "بالله لا تمزح".

قلت: "وماذا أصنع إذا كنت تجيئنى برجل يتسمى باسم جدى ويتصف بصفاته ولا أعرف أن فى دنيانا على سعتها رجلا سواه يحمل هذا الاسم الكريم ويتحلى بهذه الصفات الجميلة؟ ألست أنا أيضًا معذوراً؟ إذا لم يكن جدى فهو ولا ريب رجل مزور انتحل اسم المرحوم وسجاياه وصفاته وجبته وقفطانه وعمامته، فهاته لنقبض عليه، وهذا هو سعادة البك المتصرف يودعه لنا السجن، ومن يدرى؟ عسى أن يكون جدى حقًا وصدقًا، رده الله إلينا بعافية، ولعلنا حينئذ نقف على شىء من سر هذه الآخرة التى تأبى كل الإباء أن تبيحنا شيئًا من أسرارها".

فسكتوا، وماذا عسى أن يقولوا؟ وأقصرت فقد خفت أن يورطنى اللجاجة فيما لا يسهل الخروج منه.

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ونحن نجتاز الطريق بالسيارة إلى دار (باش أعيان) والسيد عبدالقادر باش أعيان يشير إلى الجداول أو الأنهار ويسميها أسماءها ولعله يتوهم أنى قادر مثله على حفظها، ولكنى لن أنسى جدولا أو ترعة أو نحوها قال لى إن عمالاً مصريين جاء بهم الإنجليز فى أثناء الحرب الماضية شقوها، فسرنى أن أعرف ذلك وتعجبت لما خالجنى من الحنة إلى بلدى الذى لبست فيه العيش وهو جديد

كما يقول ابن الرومى:

فإذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أفنان الشباب تميدُ(١٣٨)

وبلغنا دار (باش أعيان) وهو لقب لهذه الأسرة العباسية إلا رومة بقى لها من عهد الأتراك ومعناه واضح لا يحتاج إلى بيان، وهى دار فسيحة فخمة الأثاث والرياش، ولكن مكتبة المخطوطات لم تدع لى عينًا لسواها، وفيها ألف وخمسمائة مخطوط وهى أكبر مكتبة للمخطوطات كما حدثنى غير واحد وكثير مما فيها مطبوع متداول الآن، ولكن فيها طائفة من المخطوطات النادرة محفوظة فى خزانة حديدية لنفاستها، وقد أخرجها الأمين الموكل بالمكتبة لنراها، ومن بينها كتاب سرنى أن أرى على صفحاته الأولى تعليقًا بخط المقريزى وبتوقيعه، ولم أكن رأيت خطه من قبل، وآخر هو الشاهنامة الفردوسى باللغة الفارسية ولا أعرف منها شيئًا وفيها صور بالألوان من أبدع ما رأيت وقد سألت السيد عبدالقادر:

"هل رأى هذه النسخة الدكتور عبدالوهاب عزام".

فقال: "كلا".

قلت "إذن يحسن أن أذكرها له عسى أن نتاج له فرصة للاطلاع عليها".

وهأنذا أبلغه ليستعد للسفر، فإنه يستحق هذا العناء.

وعناية هذه الأسرة بالمخطوطات عظيمة، وقد سمعوا أن عند قاضى البصرة الشرعى نسخة مخطوطة فى القرن الثامن أو التاسع من ديوان أسامة بن منقذ - من أمراء قلعة شيراز قرب حلب - فساوموه عليها فأبى فاستأذنوا فى نسخها فأذن، ونسخوا منها نحو مائة صفحة، ثم نقل القاضى إلى لواء آخر وحمل معه الديوان وأطلعونى على المقدار الذى تيسر لهم نَسخه.

---

(١٣٨) من الكامل (المحرر)

وكان هذا اتفاقًا عجيبًا، فإن المخطوط الذى كان عند القاضى وأبى أن يبيعه كان قد أرانيه ابن هذا القاضى، (عبدالرحمن السيد صالح الزاوى) وهو شاب أديب يعمل فى المحكمة الشرعية ببغداد، وتركه عندى أيامًا، فراجعت ترجمة الأمير أسامة فى معجم الأدباء لياقوت، وعرضت ما رواه ياقوت من شعره على باقى المخطوط واستعرت من الأستاذ الجليل طه الراوى كتاب (الاعتبار) الذى ألفه أسامة فى أخريات حياته الطويلة الحافلة، وقد نشره الأستاذ فليب متى سنة ١٩٣٥، وكنت أود أن أراجع كتابه الآخر (لباب الآداب) ولكنى لم أعثر عليه، فاكتفيت بما وجدت وبدا لى أن أنقل مختارات من شعر أسامة، غير أن الوقت كان أضيق من أن يتسع لأكثر من القراءة، وقد انتهى الأمر بأن أخذت الديوان المخطوط من السيد عبدالرحمن وعدت به إلى مصر، وفى نيتى إن شاء الله أن أنشره إذا استطعت، أو أحمل دار الكتب أو غيرها على نشره، أو اختار منه خير ما فيه وأنشره.

وقد قضيت فى هذه المكتبة النادرة ثلاث ساعات، ولولا أنى كنت على موعد لقضيت ليلتى فيها، وقد أرانى السيد عبدالقادر شجرة لنسب الأسرة ترجع إلى آخر الخلفاء العباسيين، وشجرة أخرى للبيت العباسى من بدايته إلى نهايته.

وعرضوا علىَّ دفترًا لأكتب فيه كلمة كما يفعل كبار الزوار! فكتبت ما حضرنى وكل ما أذكر أنى كتبته أو قلته هو إنى كنت أتمنى أن أغافل أهل البيت وأمين المكتبة فأسرق كل ما أستطيع أن أسرقه من هذه النفائس!

ولكنهم مع الأسف كانوا يحفون بى، لا يتيحون لى فرصة للسطو، وما أعرفنى سرقت فى حياتى كتابًا، ولكن سرقة الكتب المطبوعة لا تستحق أن يتكلفها المرء، لإنها مطبوعة يسهل اقتناؤها بثمن زهيد، فأما هذه المخطوطات النادرة فأين تجدها فى غير خزائنها؟

رحلة العراق[١٣٩]

(١٦)

وفى البصرة ناد أنشأه المتصرف مظفر بك، وداره قريبة من الشط، وإليه يرجع القوم وفيه يندون[١٤٠] ويسمرون، ويلعبون الورق - أو القمار - على الخصوص، وهو فاشٍ فى العراق، وأحسب أن لو وجد الناس ملهاة أطيب أو لو صارت الحياة الاجتماعية أيسر، لانصرفوا عنه، أو آثروا عليه سواه، وقد استهولت ما سمعت من أن بعضهم يخسر فى الليلة ألف دينار، وتساءلت من أين يجئ هذا المال كله؟ ولم لا ينتفع به فيما هو أرشد وأعود بالخير على الجماعة؟ وحدثنى صديق مصرى قال إن عراقياً سأله:

"ماذا يملك أغنى مصرى فى بلادكم؟".

قال: "لا أدرى، ولكن فلاناً رحمه الله كان من أغنى المصريين، فلما مات عرف أنه يملك سبعة وعشرين ألف فدان".

قال العراقى: "هذا فقير جداً، فإن الرجل من أغنيائنا يملك نصف مليون فدان وزيادة".

قلت لصاحبى: "هذا الغنى كالفقر، فإن معظم هذه الأرض قفر غفل، والذى يزرع منها يزرع مرة كل سنتين، ولفدان واحد من الأرض الزكية يؤتى ثلاثة محاصيل فى

---

(١٣٩) نشرت فى "البلاغ"، فى ١٩ مارس سنة ١٩٤٥، (ص٢).

(١٤٠) أى يجتمعون (المحرر).

العام أعظم بركة من عشرة يزرع نصفها مرة واحدة كل عامين".

ولكن المال كثير فى أيدى أصحابه والمشروعات الحرة التى يمكن أن يستثمر فيها قليلة، والحركة الاقتصادية فى أيدى ذلك الشعب النشيط الذكى - شعب إسرائيل - حتى ليندر أن ترى دكانًا مفتوحًا يوم السبت فى بغداد أو البصرة، والحال على الجملة يشبه ما كان فى مصر قبل الحرب العظمى الماضية، أيام كان أصحاب المزارع يقبضون ثمن القطن، فيركبون القطار إلى القاهرة ويدورون على ملاهيها يبعثرون فيها المال على المغنيات والراقصات، وأحزمهم وأرشدهم من كان يفد إلى مصر ليهيئ جهازًا لبنته، أو لعروس ابنه، فإذا لم يكن من أهل اللهو، ولا عروس هناك يعد لها ما تحتاج إليه فى وجهتها، اتخذ دارًا للشتاء فى مصر، ودارًا أخرى للصيف فى الإسكندرية، وعاش فى سعة وخفض حتى ينفد المال فيفترض من المصارف حتى ينزف ويسحت، وقد تغير الحال فى مصر عن هذا الذى كان معهودًا بعد أن ركب أهلها الدَين وقصم ظهورهم أو كاد، وأخشى أن يكون العراقيون على آثارنا ماضين إلا من عصم ربك، وقد عصم كثيرين هناك ولله الحمد.

والنادى رحيب، تتوسطه قاعة تتسع لمئات، ولا تضيق بالخيل إذا ذهبت تركض فيها، وحولها حجرات متفاوتة السعة للسمر واللعب وما إلى ذلك، وقد آثرت القاعة والموقد وقعدت أتدفأ، فقدم لى بعضهم شرابًا، فاعتذرت وشكرت، وعرض علىَّ أن أتسلى باللعب، فقلت:

"والله ما لى به عهد، ولا عقل لى فيه، ثم إنه لا مال لى ألعب بهن فإنى أحد الملايين الذين يكسبون رزقهم بعرق الجبين وقلما يصيبون منه ما يزيد على الكفية".

قال: "ألم تحاول قط؟".

قلت: "لا حاولت ولا اشتهيت ولكن حاول غير واحد من أصدقائى قديمًا أن يعلمنى (البوكر والكونكان) فلا أكاد أفرغ من تلقى الدرس حتى أنساه".

قال: "هذا حسن، ولكن ألا تشرب على الأقل شيئًا؟ قهوة أو ويسكى؟".

قلت: "شكرا، ولكن ما حيلتى؟ الشراب لا يوافقنى، وقد نهونى عن القهوة أيضًا، وزعموا أن كبدى متضخمة، فانتظر إلى غد، وفى غد يفحصنى الدكتور الطوخى، ويصور لى فى مستشفاه هذه الكبد المتهمة، وقد يبيح لى شرب القهوة فأزورك وأحتسيها عندك".

قال: "هذا وعد؟".

قلت: "إذا ترك لى مظفر بك وقتًا أنجز فيه المواعيد، فلا تخش إخلافى".

وبارحنا النادى لنتعشى عند السيد نعمه صاحب جريدة الثغر، ومن ذا الذى يمكن أن يتعشى بعد غداء مظفر بك؟ ولكنى كنت أقيس على نفسى، أنا القضيف(١٤١) الضاوى، فلما مدت الموائد وعليها (القوازى) والديكة والدجاج وما لا يحصى من الألوان أشحت عنها بوجهى، فما كنت أستطيع حتى أن أنظر إليها، وأقبلت على مائدة عليها فواكه شتى، آثرت منها البرتقال فإنه جيد، وانقض القوم - غيرى - على المائدة الكبيرة يمتخون ما عليها فتذكرت وصف ابن الرومى فى قصيدته لابن الحاجب، وصف المعدة الدائبة كالليل والنهار، وتذكرت غير لك قصة روتها لى أديبة بغدادية من أجمل من رأيت فى حياتى وأعظمهن فتنة، هى الآنسة نزيهه أديب، وكنا نسمر ذات مساء، فى الفندق، فقالت:

"إن العراقى كثير الأكل".

قلت: "صحيح؟".

قالت: "نعم، ويحكى أن أسرة عراقية ذهبت تصطاف فى لبنان، فنزلت فى فندق، فكانوا إذا جلسوا إلى الطعام لا يبقون ولا يذرون، ولا يشبعون، فأشفق الرجل على نفسه أن يخرب بيته، فساومهم (ودفع إليهم خلو رجل) على أن يرحلوا بسلام!".

---

(١٤١) أى النحيف (المحرر).

قلت: "هذه (قفشة)".

قالت: "ولكنها تصور الحقيقة".

وغمزت بعينها فصدقت، ولولا ذلك ما صدقت! فإذا كانت الحقيقة غير ذلك، فالمسئول سحر عين الأديبة ورِقة أجفانها، كان الله فى عون جليسها!

وعدنا إلى الفندق، فتشهدت، فقد كان يومًا حافلاً، وقلت للسيد فخرى:

"إن هذا الحوض مغر، فما قولك؟ تسبح أو أسبح؟".

قال: "كما تشاء".

قلت: "قم أنت إليه، فإن النوم يغالبنى ويثقل أجفانى ويثنى رأسى، وفى الصباح يكون السبح أحلى".

قال: "لا تنس إننا على موعد فى الساعة التاسعة لنزور مدارس البنات والبنين، ثم نزور الدكتور الطوخى فى المستشفى".

قلت: "نقلب الترتيب، فنذهب إلى الدكتور أولاً، فإن الاطمئنان على صحتى أولى بالتقديم من الاطمئنان على صحة التعليم فى البصرة - أو فى العراق كله".

ونمت، وذهب هو ليسبح، ولا أدرى متى نام، ولكن الذى أدريه أنى استيقظت مع العصافير، لو أنه كانت هناك عصافير فى تل البكرة الندية، فحلقت وفتحت "البورى" كما يسمون صنبور الماء هناك، وغمرت نفسى بالماء وبقيت ساعة فيه أنعم بلذة الدفء حتى صاح بى السيد فخرى وأهاب بى أن أخرج، لا بأس، كل نعيم إلى حين، ولا بد مما ليس منه بد.

رحلة العراق[١٤٢]

(١٧)

صورت أجزاءً من جسمي القضيف الضاوى، مرات فى حياتى، كانت آخر مرة منذ خمسة عشر عامًا، فقد انتابنى مغص كلوى أبى إلا أن يعاودنى كل بضعة أيام ليلة أو ليلتين، وأنا أرفض المسكنات مثل المورفين، وأصر على العلاج الصحيح، فقال الطبيب:

"هات لنا إذن صورة لكليتيك".

فذهبت إلى من عرانى وطرحنى على ما يشبه السرير، ولف على حزامًا وأطفأ النور ثم صنع ما لا أدرى وقال قم، فقمت، وبعد برهة أرانى الصورة فإذا حصاة طولها سنتيمتران وقطرها تسعة ملليمترات فى الغالب، وكانت متآكلة فقيل لى إنها جيرية، وإنها ستذوب وحدها بإذن الله، وقد ذابت بإذن الله، ومن الغريب أن المغص انقطع من اللحظة التى سمعت فيها أن هذه الحصاة هى التى تورثنيه!

أما فى مستشفى البصرة، فقد وقفنى طبيب الأشعة بين لوحين، ودانى ما بينهما، وأطفأ نورًا، فقال الدكتور الطوخى للسيد فخرى:

"الآن تستطيع أن ترى قلب المازنى".

قلت: "سبحان الله العظيم يا دكتور! أتراني جئت هنا للفرجة علىّ؟".

---

(١٤٢) نشرت فى "البلاغ" فى ١٩ مارس سنة ١٩٤٥، (ص٣).

فقال السيد فخرى: "مدهش! هذا قلبه، وإنى لأستطيع أن أقرأ فيه أسماء معشوقاته جميعًا، أليس كذلك يا دكتور؟".

قلت: "قل لى يا فخرى، بأى خط تراها مكتوبة؟ الفارسى أم النسخ، أم الثلث؟".

قال: "بل بالنسخ الواضح".

قلت: "أعوذ بالله! لقد كنت أرجو أن تكون مكتوبة بهذا الخط الجديد المتلوى الذى لا يستطيع أحد ولا كاتبه أن يحل ألغازه، على أنى أرجو أن يحرص الدكتور على سر المهنة، فيلزم السيد فخرى الكتمان فإنى أخاف لسانه".

فطمأننى الدكتور، فشكرته.

ثم مساعد الطبيب:

"والآن احبس أنفاسك حتى نأذن لك فى التنفس".

قلت: "شىء لطيف! وما العمل إذا أطلتم فكان ما الله يجعله بعيداً جداً؟".

قال: "لا تخف، هى ثوان لا أكثر".

قلت: "إنما أحذركم حتى لا أكون شريكًا فى الجريمة، فإنى قصير النفس ويا فخرى أوصيك خيراً بحبيباتى، فقد قرأت أسماءهن، ولا شك أن الذى دونها لم يفته أن يثبت عناوينهن، كما كانت تفعل مصلحة التليفون قبل الحرب ولا خوف من قلة فى الورق، فإنه كما ترى قلب كبير يلتهم الدنيا، ألم تسمع قول ابن الرومى:

كضمير الفؤاد يلتهم الدنيا وتحويه دفتا حيزوم

فقال بعضهم - لا أتذكر أيهم فقد حلا لى الكلام -:

"اسكت يا أخى! نقول لك احبس أنفاسك فتروح تخطب؟".

قلت: "سامحكم الله! أهذه خطبة! إنما هى وصية لازمة بالحبيبات العزيزات! مسكينات! أنى لهن بعدى بمثلى؟".

"يا أخى اسكت!"

"سكت!"

وقالوا لى بعد ذلك: "هذه هى الصورة، والكبد سليمة، وليس بها تضخم من فوق ولا من تحت، فلا داعى لتحفظ أو حمية أو شىء على الإطلاق".

قلت، وقد فرحت: "وهل زال الألم أيضًا، فإنى أتذكر أنه اعتادنى هذا الصباح، ولكنى أحسب أن هذا قد صار تاريخًا قديمًا".

فقالوا: "تعال فإن القوم ينتظروننا فى مدرسة البنات المتوسطة".

قلت: "حبًا وكرامة...".

وركبنا السيارات إلى مدرسة البنات، وخلعت المعطف ورميته، وما حاجتى إليه وقد عرفتنى الأشعة التى لا تكذب ولا تغالط أنى سليم معافى؟ ودخلنا دارًا نظيفة، مكنوسة، ممسوحة، مرشوشة أيضًا حتى فى هذا الشتاء المطر! وأنا معلم قديم، فأنا أعرف ما يصنع مديرو المدارس حين يعلمون أن زوارًا قادمون، ولهذا لم أجعل بالى إلى هذا المظهر الذى أعلم أن جماله مكفول سلفًا.

وحيتنا المديرة أحسن تحية، واحتفت بنا احتفاءً عظيمًا، وهمت أن تطلب لنا قهوة، فرجوت منها أن لا تفعل، فإن علينا أن نقوم بزيارات لمدارس أخرى، ينبغى أن نؤديها كلها ثم نتغدى ونستريح ثم نستقل القطار فيعود بنا إلى بغداد.

فقال السيد فخرى: "تستريح؟ تقول تستريح؟".

قلت: "ولم لا؟ ألست قد شفيت وعوفيت، وانتهت الزيارات، بحسب ما سيكون؟".

قال: "والمحاضرة؟"

قلت: "أى محاضرة يا مولانا؟"

قال: "المحاضرة التى ستلقيها بعد الظهر؟"

قلت: "يا خبر أبيض! من قال هذا؟"

قال: "هذا فى البرنامج" .

قلت: "إنى أذكر أنى سألتك منذ قرن أونحو ذلك أو أمس إذا أردت الدقة، عن هذه الحفلات هل ستلقى فيها خطب، فكان جوابك الذى رضيت عنه وشكرته لك أن لا خطب ولا خلافها، فمن أين جئتنى بهذه المحاضرة، ومن وكلك عنى فى الموافقة عليها؟" .

فلولا أنى كنت مغتبطًا بأنى غير مريض لثرت به وأمسكت بتلابيبه.

وطفت بالفصول – أعنى حجر الدراسة – ونقف فى كل حجرة دقائق، ثم نحى ونشكر وننصرف، وكنت كالمدار به من هول خبر المحاضرة، وفيم بالله أحاضر، وكل ما يدور فى رأسى، ويضطرب به صدرى هو أنى أتمنى لو خلوت بنفسى دقائق تغيب فيما عنى العيون فأرقص بعد الاطمئنان على صحتى الغالية وأدندن بهذا البيت على الخصوص:

ولى كبدٌ مقروحةٌ من يبيعُنى   بها كبداً ليست بذاتِ قروحِ؟ (١٤٣)

وأقول "مسكين، مسكين! لو عرف الطب فى زمانه الأشعة وسحرها لأمكن أن يتبين أنه واهم، بل لكان من السهل أن يدرك أن من السخافة أن يظن أن الحب يورث الكبد قروحًا؟ الحب مبعث صحة وسرور لا سقم وغم! بل كل شىء فى الدنيا يسر ويفرح والذى يقول غير ذلك جاهل، صدق من قال إن العلم نور..، نور حتى بالمعنى الحرفى!" .

ومع ذهولى، وغياب عقلى عن كل ما حولى، أخذت عينى صوراً على الجدران – فى حجرات الدراسة – صور نساء جميلات مستلقيات أو قاعدات أو واقفات فى مثل ثياب الاستحمام، وخيل إلىّ، وقد أكون واهمًا، أن هذه الصور منتزعة من المجلات

---

(١٤٣) البيت من بحر الطويل وهو للشاعر الأموى عبد الله ابن الدمينة (ت. ١٣٠ هـ) .

الغربية، وأنها شبيهة جداً بممثلات هوليوود، وحدثت نفسى أن عهدى بالشبان الإغراء أنهم هم الذين يعلقون أمثال هذه الصور الجميلة..، على كل حال..، لعلها بنماذج للجمال..، يغرى الطالبات بالعناية بالرياضة البدنية ليكتسبن الرشاقة واعتدال القوام!

وقاتل الله هذه الحرب! فقد كان من بلائها أن حرمت المدارس بعض ما تحتاج إليه من الأدوات وغيرها من الأشياء، ولا سيما أدوات المعامل كما نسميها، أو المختبرات كما يسمونها فى العراق.

وعرفونى بمعلمة مصرية كانت تلقى درسًا فى التاريخ القديم، فقلت لها بعد التحية وما إليها:

"دعى هذا التاريخ القديم وحدثينى عن صحتك كيف هى؟".

قالت: "بخير، شكراً".

قلت: "وإن شاء الله تكونُ كبدك سليمة؟ اسمعى، إذا شعرت بأى شىء، فعليك بالدكتور الطوخى هذا، فإنه مصرى مثلنا، وأشعة مستشفاه لا تكذب".

وهممت أن أقص عليها قصتى، ولكن بعضهم غمزنى فأمسكت.

ومما هو جدير بالذكر أننا لاحظنا أنها كانت وهى تلقى درسها تسأل الطالبات (فاهمين) فقلت لمن معى: "هذه المعلمة مخلصة لجنسها، فإنها تنفذ ما قرره المؤتمر النسوى فى القاهرة، من المطالبة بحذف نون النسوة".

واعتقدت أننا فرغنا من الزيارة وآن لنا أن ننصرف، وإذا بالمديرة تسر شيئًا إلى مدير التعليم فيميل علىّ، ويهمس فى أذنى، فأقول:

"كلمة؟ أنا ألقى كلمة؟ ماذا عسى أن أقول؟ يا ناس حرام عليكم! لقد كنت أظن البصرة خيراً من بغداد..، خطب! خطب! متى..، نهايته! يفضل بنا والأمر لله!".

رحلة العراق[144]

(١٨)

اصطفت الطالبات فى ردهة رحيبة وخرجنا إليهن من حجرة المديرة، وحيينا ووقفنا ننتظر ما يكون، وأنا أكره هذه المواقف وأنفر منها، ولى العذر، فها هنا أمامى نحو مائتين من الطالبات المتفاوتات الأسنان والقدود، ومعنى هذا أنى واقف أمام أربعمائة عين شاخصة إلىّ محدقة متفرسة، وأنا دقيق الشعور بنفسى مرهف الحس إلى حد المرض، ولا يخفى علىّ - وليته يخفى أو يفتر الإحساس به، أنى قصير قمئ، وأنى دميم وقد شاع الشيب فى رأسى "كنار الحريق ذات الوقود" وإنى فوق ذلك أعرج، وإن كان لا ذنب لى فيما أصابنى، فإحدى رجلىّ أقصر من الأخرى، وأحد الحذائين أعلى من الآخر، فالتشويه تام كما ترى، ولست بإنسان إذا لم يدر هذا فى نفسى وأنا واقف كالتمثال أمام أربعمائة عين نجلاء، لمائتين من الفتيات الناهدات.

والمرأة هى المرأة، فلا تقل إن هذه مدرسة، وإن هؤليائكن طالبات علم، فإن المرأة لا تخون طبيعتها فى أية سن أو أية حال، وأذكر - على سبيل المثال - قول عائشة بنت طلحة وكانت أديبة شاعرة - لزوجها (وكانت له امرأة أخرى عظيمة الوجه والأنف اسمها رملة) وقد أقبل عليها يصف لها شجاعته فى حربه مع الخوارج:

"إنى أعلم أنك أشجع الناس، ولكنى أعرف لك يوماً هو أكبر من كل هذا".

قال: "وما ذاك؟".

---

(١٤٤) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٩ مارس ١٩٤٥، (ص٢.٤).

قالت: "يوم اجتليت رملة، واجترأت (أو هجمت) على وجهها أو أنفها".

فلا تقل لى هؤلاء طالبات، فإنهن نساء قبل أن يكن طالبات،

وارتفعت أصواتهن بنشيد فنسيت حرج موقفى، وذهلت عن دماغى وعرجى، وكدت أقهقه! أى والله! فقد كان النشيد صبيانيًا! ولا تعجل، فما أعنى إلا أنه مما ينشده الصبيان "نحن الأسود إلخ".

ثم كأنما كن يدركن أن الاقتصار على إسماعى أناشيد الصبيان لا يجوز، فثنين بنشيد "بناتى" يصف مقام المرأة وأثرها فى الحياة، وقد قال بعضهم ونحن نخرج كلامًا على سبيل الاعتذار من النشيد الأول فقلت له مغالطًا:

"فيم اعتذارك؟ إنما أردن أن يسمعننى ما يعتقدن من أن الرجال يحبون أن يسمعوه، وإذا كنت قد رأيتنى ابتسم، فذاك لتشبيه الرجل بالأسد فى الشجاعة، فإن الشجاعتين لمختلفتان جدًا - شجاعة الإنسان هى شجاعة العارف بما يهجم عليه من خطر، أما الحيوان فليس له إدراك، فما يبدو منه لا ينطوى على شجاعة لأنه لا يعرف ولا يشعر أنه مقبل على خطر".

وبهذه السفسطة حولت مجرى الحديث.

وانتهى النشيد - ولكل شيء آخر - فتقدمت إحدى المعلمات وتلت خطبة من ورقة فيها من الثناء ما لو وزع على أدباء الدنيا لخرج كل منهم بأكثر من حقه، ثم نظر إخوانى إلىّ، فسألت الله الستر، وقلت ما حضرنى، ووليت هاربًا وألحق بى الآخرون متعجبين، متسائلين "فيم العجلة؟" ولهم العذر، فما كانوا إلا متفرجين فى هذا الامتحان.

وركبنا السيارات فقلت لهم:

"اسمعوا إن الله لا يستحى من الحق، ويجب أن أصارحكم بأنى أوثر أن لا أزور أية مدرسة أخرى ما لم تتعهدوا لى ألا أسمع خطبًا أو أحتاج أن ألقى خطبًا فإن صدرى قد ضاق، وريقى قد نشف".

وقصدنا إلى ثانوية البصرة، وقد استقر عزمى على أمر، هو أن أطوف بالصفوف - أو الفصول - بسرعة، وأخرج من المدرسة قبل أن يخرج التلاميذ من الصفوف، وحتى لا أتيح أية فرصة للتجمع وإلقاء الخطب، ولكن التلاميذ كانوا أطيب وأكرم من أن أحتاج معهم إلى هذه المحاورة، والظاهر أنهم اكتفوا بما كتبوا فى (جريدتهم) أو (مجلتهم)، وهى شىء فذ لم أر له نظيراً من قبل فقد انقطع ورود الورق فى هذه الحرب وتعذر إصدار المجلة فى الصور المألوفة ولا بد من إصدارها على ما يظهر، فماذا يصنعون؟ الحاجة أُم الاختراع كما يقولون، والضرورة تفتق الحيلة، وقد فتقتها والله فتقًا عظيمًا! فقد جاء الطلبة بصفحة كبيرة من الورق، وما كتبوا فيها بخط أيديهم - بالرقعة والعناوين بالخطوط الجليلة المعروفة من ثلث وفارسى إلخ - مقالات وأخباراً شتى، فنظرت إليها معجبًا، وهممت بالانصراف عنها غير أن الأستاذ المدير أو نائبه ردنى إليها ولفتنى إلى خبر فيها، عن "المازنى" على عمودين، وعنوانه بالثلث والحبر الأحمر، فضحكت وقلت:

"هذا خبر قديم".

قالوا: "ولكن فيه جديداً، فاقرأ".

فقرأت تعريفًا بى ووصفا لزياراتى، وفى آخر النبذة أنى سألقى محاضرة فى قاعة لا أدرى ماذا، فقلت:

"هذا خبر ناقص..، ينقصه موضوع الحاضرة، وهذا هو الذى كان يعنينى أن أقرأه فإنى لا أعرفه".

وللمدرسة مكتبة حسنة، رأيت فيما رأيت فيها تواليف الأدباء المصريين، والمجلات المصرية جميعًا، وكان الإقبال عليها عظيماً فى فترة الاستراحة القصيرة بين الدروس، وطلب منى الموكلون بالمكتبة التوقيع على بعض كتبى ففعلت مغتبطًا.

ورأيت فى غرفة صغيرة مجاورة للمختبر - أو المعمل - آلة صغيرة لتوليد الغاز تستخدم للبنزين، فسألتهم:

"أليس عندكم شركة لبون؟".

قالوا: "وما لبون هذا؟".

قلت: "هو شركة فى القاهرة تمد الناس والحكومة بالغاز والكهرباء وتحتكر ذلك، وما أكثر شركات الاحتكار الأجنبية فى مصر".

وحمدت الله الذى أعفى العراق من شركات الاحتكار.

وآن أن أهرب قبل أن تتاح فرصة للاحتشاد والخطب، ولكن المدرسة كانت لا تضمر لى هذا الشر فكان ما بذلته من الجهد للفرار، عبثًا، وهكذا الدنيا أبدًا: إذا كنت مطمئنًا فاجأتك بالمزعجات، وإذا خفت شيئًا وتجشمت عناء الاحتياط والتحرز ذهب تعبك سدى.

ومضينا من هناك إلى دار الدكتور الطوخى لنتغدى، وهو الآن عراقى الجنسية، فقد احتفظ القوم به وأبوا أن يردوه إلى مصر، وطاب له المقام فأقام مكرمًا مبجلاً محبوبًا، وإنه لأهل لما يتبوأ من مكانة ملحوظة، وكنت وأنا عنده أشعر شعورًا خاصًا بأنى لست بضيف، وإنما أنا رب الدار أو على الأقل شريك ربها فيها، ولم أظهر ذلك فليس أثقل من الضيف الذى يتصرف كأنه هو صاحب البيت، ثم أن هذا الشعور ليس إلا بعض الحنين الذى كنت قد بدأت أحسه لمصر.

وقال لى بعضهم: "تعال إلى السوق عسى أن نجد فيها ما يقتنى".

فقمت معهم ولكن اليوم كان السبت، وفيه يسبت إخواننا الإسرائيليون، فعدنا أدراجنا إلى دار الدكتور لنستريح إلى موعد المحاضرة.

رحلة العراق[١٤٥]

(١٩)

لا تختلف قاعة المحاضرات فى البصرة عن نظائرها فى بغداد، فهى واسعة، طويلة عريضة، عالية السقف، مقرورة، وفى صدرها المسرح، وقبالته الشرفة للسيدات المتحجبات، وقد عانيت بردها فى أول ليلة قضيتها فى البصرة، فقد سئلت:

"ألا تحب أن تشهد رواية تمثلها فرقة مدرسية؟ إن المتصرف سيكون هناك".

ففهمت – واللبيب تكفيه الإشارة! – أن من المجاملة للمتصرف أن نكون نحن أيضًا هناك، فذهبنا، وكان فى الوقت فسحة فمالوا بنا إلى نادٍ ثقافى للإنجليز والبصريين فيه مكتبة حسنة مرتبة، وقاعة للسينما، فشغلت بالكتب والحديث حتى قيل لنا إن المتصرف ينتظرنا، فعدنا مسرعين فإذا به واقف على الرصيف يأبى أن يدخل حتى نحضر، فأكبرت منه لطفه ووداعته، وعلمت أن لفيفًا من مدرسة الديوانية المتوسطة يقوم برحلة مدرسة، وأن فرقة من تلاميذها ستمثل رواية البخيل لموليير وقد حيانا أحد المدرسين تحية طيبة إلا أنها طويلة، فخفت أن يستدعى ذلك شكرًا لهذا الترحيب الذى لم يكن لى فى حساب وقد كنت شاكرًا بقلبى، معجبًا بذلاقة لسان المدرس وقدرته، معجبًا لسرعة انتشار الأخبار إذ كيف علم القوم أنى "سأشوف" هذه الحفلة، وأنا ما علمت بها إلا قبلها بربع ساعة؟ إلا أن يكون الأمر مقررًا مفروغًا منه.

---

(١٤٥) نشرت فى "البلاغ"، ٢ أبريل ١٩٤٥، (ص٣).

ونحى الستار وظهر ثلاثة من الطلبة فى أيديهم الكمان والعود وما لا أدرى فقد نسيت، وشرعوا يعزفون، فكاد عقلى يطير، فقد كانت الأصوات التى أخرجوها جلبة وبلبلة، وبعضها كتردد الزفير فى الصدر من الهم أو الحزن أو المرض والكرب، فلولا الحياء لسددت أذنى.

ثم بدأ التمثيل، وكان خيراً من الموسيقى فإنه على الأقل كلام نسمعه ونفهمه ونستظرفه، وقد مثل "البخيل" أحد المدرسين، وسرنى وأضحكنى أن رأينا تلميذين يتخذان زى النساء ويمثلان فتاتين، وقد صبغا شفاههما بالأحمر، ودهنا خدودهما، وعريا سواعدهما المعروقة التى ذكرتنى قول العامة فى مصر فى المرأة الهزيلة الضاوية أن "كوعها يخرق العدسة" فلو كانا فتاتين حقيقيتين لفررت منهما مستعيذاً بالله، لا لدمامة فيهما بل لأنهما ينقصهما كل ما فى المرأة من رطوبة ونضرة ولين وغضوضة، وكنت أشعر وأنا أراهما وأسمع ما يقولان بصوت يتكلفان فيه الرقة والنعومة، أنى رددت إلى القرون الوسطى فى دعوبة أيام كانت المرأة لا يؤذن لها فى التمثيل، فكان الشبان يؤدون أدوارها.

وانتهى الفصل الأول بسلام، بين الضحك والتصفيق، وإذا بالعازفين يبرزون مرة أخرى فقلت لنفسى "لا!" ممطوطة ممدودة جداً، واستأذنت المتصرف، وزاد فخرج معنا، فيظهر أنه قال "لا" التى قلتها - كما قلتها!

وأعود إلى المحاضرة التى شاع وذاع خبرها فى الثغر كله، فغصت القاعة اغتناماً لهذه الفرصة، فما كل يوم يرون المازنى الذى يسمعون به ولا يقرأون كتبه! وخطر لى وأنا أقعد فى الصف الأول أن لو قيل للناس أن قرداً سيلعب على المسرح، لزاد عدد الحاضرين أضعافاً مضاعفة، وكنت أنا جالس أحاول أن أفكر فى شىء أقوله، فلا أجد، فأتعجب لخلو رأسى وفراغ نفسى، غير أن هذا لم يكربنى، فإنى معلم قديم، ولعل خير دروسى هى التى لم أعن بتحضيرها، ولا بد أن يكون فى رأسى هذا شىء سيظهر فى أوانه، ورأيت أحدهم يرتقى الدرجات إلى المسرح أو المنصة، فقلت جاء الفرج، فلن أعدم فى كلامه ما أتعلق به، ولم يخب أملى فقد زعم فى بعض ما قال

إنى نصير اللغة العامية، وإنى لا أكون كافراً بنعمة الله إذا لم أشكر له جل وعلا أنه أجرى لسان الخطيب بهذا الخطأ، وتلاه خطيب آخر أو شاعر، لا أدرى، فما كان بالى إليه من فرحتى بما زعمنى زميله، ثم قالوا تفضل فتفضلت مطمئناً، ووقفت رابط الجأش أمام مكبر الصوت بعد أن أنزلوه قليلاً، فإنى كما تعلم قصير، ثم انطلقت أتكلم ولا تسألنى ماذا قلت، فما أذكر شيئًا منه سوى أنى صححت ما زعمه صاحبنا من أنى نصير العامية، ولكنى أقسم صادقًا أنى ظللت أسح وأهضب، ولا أتلعثم ولا ألحن، خمسا وأربعين دقيقة لا تنقص ثانية، إذا صدقت ساعتى، وهى فى العادة تسبق الزمن بخمس دقائق، وكنت أرى القوم يبتسمون، وأسمعهم يقهقون، فينشرح صدرى، وينطلق لسانى، وأقول فى سرى "الحمد لله، فإن عندى من هذا الكلام الفارغ كثيراً، فخذوا !".

وشجعنى أن الجنس اللطيف كان ممثلا "أجمل" تمثيل، فما أعجب أمر هذه المرأة التى نستضعفها ومنها وحينا!

ولا شك أن الله الرحيم الستار قد وقانى الفضيحة، فقد أظهر القوم الرضى، والإعجاب أيضًا، وقال لى مدير التعليم فى اللواء "إذا كان هذا ارتجالك فكيف بتحضيرك"، فشكرته، ولكنى خفت أن أسأل صديقى ورفيقى فى السفر، السيد فخرى شهاب عن هذه المحاضرة التى لم تكن لى فى حساب، لئلا يصدقنى فاغتم، وإنه والعياذ بالله صريح يأبى أن يقول لى إلا الحق، وهذا عيبه فليعرفه.

وعدنا إلى الفندق لنتهيأ للسفر فى ليلتنا تلك، وعاد القطار "الشراعى" إلى ما عودنا، وأصر على البقاء فى المحطة والمدعون حافون بنا، وأنا فى غاية الخجل من طول وقوفهم، وصديقى السيد فخرى يبحث عن ناظر المحطة ليسأله عن القطار ما خطبه؟ هل يخشى السرى فى ظلام الليل؟ فاقترحت على القوم، وكانوا أكثر من أربعين، أن يدفعوه، وأنا أجرى إلى جانبه، ثم أثب فأركبه!

وألححت عليهم أن ينصرفوا مشكورين، وأكدت لهم أنى سأنام كما ينام القطار، ويستيقظ حين يشاء فما ثم داع للعجلة، فإنها على كل حال من الشيطان، فضحكوا، ويظهر أن صوتهم نبهه، فقد تثاءب وتمطى، ونفخ وصفر، واستقل على رجليه، كالذى يتهيأ للوثوب، فصاحوا بى:

"اركب! اركب!".

فقلت: "لا تخافوا أن يفوتنى، فما هو بأرنب، ولا أنا بسلحفاة".

وشرع يحبو، وأنا أنظر إليه وأصفق له، وأستحثه، ثم حملونى ووضعونى فيه، فأسفت لأن منظر درجانه وأنا على الرصيف كان أمتع!.

رحلة العراق[١٤٦]

(٢٠)

عدت إلى بغداد ضحى، وأنا أشوق ما أكون إلى سمكها، فما طعمت منه شيئًا في البصرة وإن كانت ثغرًا عظيمًا، والرافدان يلتقيان عندها، والشط يمتد حيالها عشرات من الأميال إلى الخليج الفارسي، وقد أخبرني العارف بعادات القوم أن السمك في البصرة كثير رخيص فالناس يستحيون أن يقدموه لضيوفهم في المآدب لئلا يظن بهم البخل، فتعجبت، وتأسفت فإني أحبه ولا تمتلئ عيني منه، ولا تنتهي نفسي من الرغبة فيه والاشتهاء له، وكان أبي كذلك وكان أكثر طعامه السمك المسلوق والأرز، فيظهر أنها الوراثة! وما أكثر ما قلت لنفسي وأنا أفكر في هذا، وفي أمر الوراثة، أني على ما يبدو لي لست إلا صورة معادة من هذا الوالد الفاضل الذي ذهب وخلفني في مكانه، وما نظرت إلى وجهي في المرآة، وصورته فوقها إلا استغربت ورحت أتساءل: أهذا وجهي أنا أم وجهه؟ لقد كنت إنسانًا جديداً فإذا أنا لا أكثر من طبعة أخرى من كتاب قديم! ويا سبحان الله العظيم! ما خير أن يمضي وأحل محله إذا لم أكن شيئًا آخر غيره؟ وإن علمي بخلاف علمه، وزمني غير زمنه، وقد مات وأنا صبي صغير، فلم أتلق عنه شيئًا، مع ذلك أحور على الأيام إلى مثل ما كان هو في حياته، في خَلقه وخُلقه – وأنضو ما اشتهرت به من حدة البادرة والحماقة وشدة الطيش، كما يطرح الثعبان جلده فيما يقال، وأفئ إلى الحلم وسعة الصدر والأناة مثله، وكان مبذراً متلافًا، وأنا في هذا نده وقريعه، بل شر منه، أثرى وأملق عشر مرات في اليوم الواحد، ولا أرى للمال من

---

(١٤٦) نشرت في "البلاغ" في ٧ أبريل ١٩٤٥ (ص٣).

فائدة إلا أنه شيء ينفقه الإنسان، في وجهه أو غير وجهه، سيان، ينفق والسلام، وانقلب في آخر حياته مزواجًا، فقد اتفق له أن خرج إلى إسطنبول في قضية وكل فيها فرأى التركيات البضات الغضات الرعابيب فجن بهن كما جن العرب حين فتحوا الأمصار، بالجواري الفارسيات والروميات، وصار كل بضعة أيام يخرج إلى عاصمة الخلافة ويعود بزوجة تركية تشقى بها أمي، حتى إذا ملها ردها وسرحها بإحسان وجاء بغيرها، وهكذا، ولست مزواجًا مثله لشدة ما كابدت أمي من ضرائرها، لا لأني خير منه أو أعف قلبًا وعينًا، وربما رحت أتعجب لتحكم الأموات في حياة الأحياء، وسيطرتهم عليها، بأي حق؟ ولم كان هذا هكذا؟ تأمل هذا الوقف، والوصية أيضًا! أليس هذا تحكمًا من ميت فيما نفض يده منه، حين خرج من الدنيا؟ ومع ذلك يرث هذا ولا يرث ذاك، من الذكور أو من الإناث، ومن الأعقاب والذراري، ويحرم بعض الأهلين ويعطي غيرهم أو الخدم، لأن هذا الذي مات ولم يعد موجودًا أبى إلا أن يكون له رأي نافذ وحكم لا مرد له في حياة من يخلفونه في الدنيا، أليس هذا شيئًا خليقًا أن يغيظ ويحنق، أليس من حق الحي أن يثور ويتمرد على القيود التي يكبله بها الميت؟ ويا لها من قيود! حتى اسمه مما أطلق عليه أبواه لا مما اختار هو لنفسه!

وما كدت أعود إلى بغداد حتى عاد الكلام في المحاضرة التي تعمدت أن أتناساها، وزارني مدير التعليم الثانوي يسألني عنها، فاغتنمت الفرصة وقلت له:

"إنها مهيأة معدة من أكثر من أسبوعين (وأريته إياها) ولكني عاتب".

وبسطت له ما ساءني، فاعتذر وأعرب عن أسفه وشرح لي الأمر من وجهته في صراحة تامة، فإذا الرجل لا ذنب له، وإذا بي قد ظلمته ظلمًا مبينًا، ولم يسعني بعد ذلك إلا أن أجيبه إلى ما يطلب، واتفقنا على يوم تلقى فيه المحاضرة في قاعة الملك فيصل.

وكان موضوعها الذي اخترته هو المرأة وأثرها في اللغة والأدب، وشطر كبير منها لا جديد فيه، فإنه خلاصة ما كتبته قديمًا ونشرته في كتابي "قبض الريح" مع شيء من التوسع في البيان، والشطر الثاني أقول فيه إني عنيت منذ نحو عشرين عامًا بدرس

أدب المرأة فى أوروبا، فإنا نعرف رأى الرجل فى المرأة وصورتها فى ذهنه، ولكنه ينقصنا أن نعرف صورة المرأة والرجل فى ذهن المرأة، ورأيها كذلك، غير أنى لم أخرج بنتيجة يستريح إليها العقل، ولم أجد الصور تختلف فى كثير أو قليل، وعللت هذا بأن المرأة، وإن كانت قد تحررت إلى حد ما، ما انفكت خاضعة لسلطان الرجل متأثرة بوحيه، لأنه ما زال أقوى الاثنين، وعسير جداً أن تستطيع المرأة التى لم تنل من الحرية شيئًا إلا منذ عشرات من السنين، أن تتخلص من سلطان الرجل الذى مفروضاً عليها مئات بل آلافًا من القرون، فبها حاجة إلى مثل هذا الدهر الطويل ليتم تحررها وتستقل استقلالاً حقيقًا، أما الآن فإنها على الرغم من فوزها بحظ جزيل من الحرية، ما فتئت تنظر بعين الرجل وتحس بقلبه وتفكر بعقله وتصدر عن وحيه، فأدبها لا يضيف شيئًا له قيمة إلى أدب الرجل.

وليس فى هذا وما إليه ما يسوء أحداً، ولكنى مهدت لموضوعى بكلام بعضه مزح وبعضه جد، أو عسى أن يكون الأصح أن أقول إن المزح فيه مبطن بالجد، فقلت إن الرجل سبق المرأة إلى الوقوف على قدميه، والمشى على اثنين بدلاً من أربع كما كان الحال قديمًا، وشرحت أسباب ذلك، ثم رويت كلمة للأديب الفيلسوف الصينى "لن يوتانج" يقول فيها ما معناه إنه مستغرب كيف تستطيع المرأة الحامل أن تمشى على اثنين، والمشى على أربع أوفق وأصح لها وللجنين.

فقامت القيامة بعد ذلك، وقالت المرأة العراقية إن المازنى شر فى عداوته للمرأة من توفيق الحكيم، ولم أسمع أنا هذا ولم أر مظاهر الثورة، وإنما حدثتنى به "سكرتيرتى" العزيزة جزاها الله عنى خير الجزاء، فقد كانت على صغر سنها أبر بى وأحن على من أمى، فقلت لها:

"لا بأس، سنصلح ما أفسدنا، ولا تخافى أن يحصبننى بالحجارة، ولأحرى بك أن تخافى أن يرشقننى بالورود، وقد يخنقننى بها، ولكنه خنق جميل لا يسوءنى، وما دمن قد ثرن فسترين أنهن سيبرزن لى سافرات بعد أن كن يحتجبن عنى، ويستترن منى، ولا يلقيننى إلا مستحييات وهذه فرصة أتاحها الله لى لأعرف المرأة العراقية معرفتها، فالحمد لله الذى أجرى لسانى بما أجرى- نعم الحمد لله على الغلط أحيانًا - إذا كان ما قلت غلطًا".

رحلة العراق[147]

(٢١)

لم يبق علىّ، بعد أن ألقيت المحاضرة، وأقمت القيامة اللازمة، إلا أن أنام ملء جفونى عن شوارد ما قلت فى المرأة - على رأى أبى الطيب عليه رحمة الله - وألبى بضع دعوات عامة وخاصة تهيئ لى فرصاً للخروج من الفندق الذى كاد يحبسنى فيه المطر المنهمر، ولم يكن الحبس يثقل علىّ، إلا فى الصباح فقد شاع وذاع - لا أدرى كيف - أنى أوثر الوحدة والخلوة إلى الظهر أو قريب منه، وكان هذا صحيحاً قبل السفر إلى الجنوب، لأنى كنت مشغولاً بإعداد المحاضرات والأحاديث للإذاعة، والصباح هو الوقت الذى يطيب لى أن أكتب فيه، أو أنشط للكتابة فيه، أما بعد الظهر فلست أصبر على أكثر من المطالعة، ثم إن نفسى تستوحش فأوثر أن أزور وأزار، وكنت لكثرة المطر وطول اكفهرار السماء، وثبات السحاب، وإظلاله الأرض وإلباسه إياها، وفرط تدانيه وثقله، لا أنفك أخرج فأتطلع لعله يتقطع ويتفرق فتطلع الشمس، فأضحى، وقلما كان يفعل ذلك، فقد كان متلبداً بعضه فوق بعض، وملتئماً متبسطاً يعم السماء ويسد الآفاق، ولا يرق أو يخف، ولا تستطيع الريح أن تسفره لكثافته وتراكمه، لكنه كان ينجاب أحياناً بقدرة ربك فتشرق الشمس فأخرج إلى الشرفة الرحبة المشرفة على دجلة، وإنى لجالس فيها ضحى يوم وإذا بأحد رجال الفندق ينبئنى أن سيدة تريد مقابلتى، فنهضت إليها واقترحت عليها الجلوس على الشط، فوافقت.

ولم تكن سيدة كبيرة كما وقع فى روعى أول الأمر، بل معصراً كالتى يذكرها صاحبنا ابن أبى ربيعة فى رائيته التى من أجلها قال فيه جرير "ما زال هذا يهذى

(١٤٧) نشرت فى "البلاغ" ١٢ أبريل ١٩٤٥ (ص٣).

حتى قال الشعر" وكان معها كناشة، فأشفقت أن تكون قد جاءت تطلب "حديثًا" أو شيئًا من هذا القبيل على أنها كانت رقراقة جمعت الحسن والجسم، فالحديث يطيب معها فى كل حال، مهما كلفنى.

فسألتها: "شاى".

قالت: "لا شىء، إنما جئت لأراك".

قلت: "هذا شىء ينتهى بسرعة، فإن بعضى قريب من بعض، فأنا لا أتعب العين، لا بل أتعبها بكثرة الدمامات على خلاف من قال فيها العقاد قصيدته المرقصة".

فسألتنى: "ماذا قال؟ اسمعنى".

فأنشدتها من تائيته "يا نديم الصبوات أقبل الليل فهات" ما أحفظ منها فطربت واستزادتنى، فتحيرت، فإنى سريع النسيان، واقترحت عليها أن تمهلنى ريثما أعود إلى مصر وأراجع دواوين العقاد وغيره من الشعراء.

فقالت: "إذن هات من شعرك أنت".

قلت: "أعوذ بالله!".

وأقبلت عليها أسألها سؤال الملكين: ما اسمها؟ وما؟ وما؟ إلى آخر ما يقال لهما يسألان عنه بعد عمر طويل

فقصت علىّ أغرب قصة سمعتها فى حياتى، وقد دققت واستعدتها القصة مراراً بعد ذلك، فقد التقينا كثيراً فى الأيام التالية، ولكن الرواية لم تختلف فيظهر أنها صحيحة، وأنا لفرط غرابة الرواية أطوى اسم الفتاة، وقد قالت إنها إيرانية، لا عراقية، وكان هذا جليًا فقد كانت فى لسانها لجلجة وإن كان لا يتردد فى حرف ولا يثقل، ثم زعمت أن أمها هى التى تزوجت أباها، فضحكت وقلت:

"هذا يحتاج إلى شىء من الإيضاح، فتعالى نجل الغموض، أمك تزوجت أباك، وأبوك؟ ألم يتزوج أمك؟".

قالت: "بلى"، ونطقتها كأهل العراق بكسر الباء واللام.

قلت: "هذا حسن، هذا مطمئن، فلماذا تقلبين الآية وتقولين إن أمك هى التى تزوجت أباك؟".

قالت: "لأنه أبوها".

فوثبت إلى قدمى وصحت: "يا حفيظ".

فسألت: "ماذا جرى؟".

قلت: "لا شىء! لا شىء! أب يتزوج بنته – أو تتزوجه بنته.، أعوذ بالله! يا حفيظ يا رب!".

قالت: "لا لا لا! أعنى أنه كأبيها فى السن".

فدنوت منها، ووضعت كفى على كتفها وقلت: "أرجو.، أرجو أن تترفقى بشيبتى، فإنى رجل ضعيف، ولى أولاد صغار".

قالت: "ماذا صنعت؟".

قلت: "أوه لا شىء يستحق الذكر، كل ما فى الأمر أنى كدت أفلج، أو أجن، شىء تافه جداً، ولكن ألا يمكن أن تتكلمى كخلق الله!".

فلم تفهم، وصار الحوار متعبًا مزعجًا، وكلفنى حديثها شططًا، وخفت على عقلى أن يطير، وتمثل لى مستشفى المجاذيب فى مصر، وإن كنت لم أره والحمد لله، إلى الآن على الأقل، وألفيتنى أتساءل فى سرى "ترى كيف يستقبلنى فيه ابن عمى؟ (فإنه مديره) وهل يستطيع طبه وعلمه أن يردا عقلى العازب؟ من يدرى؟"

ومسحت العرق الذى يفصد من جبينى ومن أصول الشعرات السبع أو التسع الباقيه فى رأسى، وتنهدت، وقلت:

"الأمر لله! هذا يوم له ما بعده على ما أرى".

فسألتنى، لما رأتنى أتمتم: "ماذا تقول؟ صوتك ضعيف".

قلت: "معذرة، كنت أقول إنى مصغ فتفضلى".

فتفضلت، وأنا أخشى أن تعدل بالتعبير عن وجهه، كما فعلت من قبل، فأفهم أن أباها هو جدها أو خالها، فقد صرت لا آمن تخليطها ولا أستبعده أو أستنكره منها.

ولكنها لم تخلط، بل قالت إن أباها كان شاباً يناهز الثلاثين، وأنه كان يؤثر العزوبة، ويجد فيها راحة ومتعة، وإذا بأمها - ولم تكن يومئذ أمها بالطبع - تدق عليه بابه، وكانت بينهما قرابة بعيدة فيقول لها كما قال جرير لصائدة القلوب، "ارجعى بسلام" لأنه عزب، ولا يليق فى رأيه أن يدعها تقيم معه فى دار واحدة تحت سقف واحد، ولأنها لم تكن جميلة، ثم لأن وجودها فى البيت قد يعكر عليه صفوه، ويحرمه متعاً كثيرة لا يريد أن تعرف هذه الفتاة من أمرها شيئًا.

فسألتها: "من أدراك بكل هذا".

قالت: "أمى حدثتنى به".

قلت: "تفضلى، قولى، ومعك روح القدس، يظهر أن أمك مدهشة".

قالت: "هو إيه" (أى كثير، أو جداً).

وأصرت أمها على البقاء، وصارت تصحبه إلى كل مكان، وكانت من الأقاليم، فأكرهته على أن يرافقها فى طوافها بالمدينة - طهران - وزيارة معالمها، وسر أمها جداً أنها استطاعت أن تغريه بتقبيلها فوق مئذنة مسجد.

قلت: "هذه قبلة مباركة".

قالت: "وقد زعم أبى بعد أن قَبَّل فاها، أنه إنما قبلها قبلة أبوية"، وضحكت

قلت: "لا شك، وهل تكون قبلة فوق مئذنة إلا كذلك يا بلهاء؟"

فقالت: "تقشمر (تمزح)؟"

ولم أعرف "القشمرة" ما هى، فتحرزت وقلت: "افهمى ما شئت ولكن تفضلى".

فتفضلت مرة أخرى، وقالت إن أمها لما رأت أن أباها يصر على أن القبلة أبوية ويأبى إلا أن يجعلها كبيضة الديك غيرت خطتها، وكان للأب أخ.

فسألتها: "عمك؟".

قالت: "لا، صديق".

قلت: "عدنا إلى التخليط؟ لا حول ولا قوة إلا بالله".

وكان هذا الصديق شريكه ونديمه فى الصفوات، وفى مثل سنه، وكانا يقصفان ليلتين ليس إلا فى كل شهر، وكان أبوها يلقى بها أحيانًا إلى هذا الصديق ليتولى الخروج بها للتنزه، وليخفف هو عن نفسه، وإذا به يتبين فيما بعد، فى إحدى ليالى قصفهما معًا، أن الصديق قد قبلها أيضًا قبلة أبوية فوق مئذنة! فلم يسعنى إلا أن أقول إن المآذن على ما يظهر هى أندية العشاق فى طهران للسمر والسهر والقبل والعناق، فتركت هذا وعدت عنه، ومضت تقول إن قلب أبيها تلهب بعد ذلك بالغيرة فوقعت الجفوة بين الصديقين، وأن أباها عاد فى تلك الليلة يتطرح من السكر فضرب أمها علقة وبعث فجاء بالمأذون فعقد عليها، وأصبح فجمع متاعه وهاجر بها وبه إلى بغداد ولا يزال فيها إلى الآن يعيش وينجب البنات الطيبات وهو آمن غدر الأصدقاء.

فسألتها: "ومن تنوين أن تخطفى بإذن الله؟".

قالت: "تحدثنى نفسى أن أخطفك".

قلت: "يظهر أن خطف البنات الصغيرات للرجال الكبار وراثة فى الأسرة ولكنى لست عزبًا فقد سبقك غيرك، فابحثى عن غيرى".

قالت وهى تضحك: "الرجل له أربع".

قلت: "كان! كان له أربع أرجل وأربع نساء! أعوذ بالله أربع نساء يتخطفن رجلاً واحدًا؟ هذا تمزيق يا فتاتى! واسمعى! اعلمى أن الرجل منا فى مصر يُقتل إذا تزوج امرأة ثانية".

قالت مندهشة: "صدج؟" – تعنى (صدق).

قلت: "صدج، وصدج، وصدج!".

قالت: "خسارة!"

فأمنت على قولها طلبًا للراحة من وجع الدماغ، وأكدت لها أنى كنت أتمنى أن تخطفنى، بل أن تأكلنى إذا شاءت بعظامى، وإن كان لحمى مرًا، ولكن عذرى بيّن فيما أرجو!".

(انتهت)

ملحق "رحلة العراق" (١٩٤٥)

اللغة العامة العراقية[١٤٨]

خالطت الناس فى رحلتى الأخيرة إلى العراق أكثر مما فعلت فى المرتين السابقتين، فزادنى ذلك معرفة بأحواله، واطلاعًا على شؤونه، وفهمًا لروحه، ولست أزعم أنى أصبحت خبيرًا بأموره، ولا أنا أطمع أن أرشح يومًا ما، لمهمة من مهمات الإخصائيين فيه، وكل ما أعنيه هو أن مسافة الزمن التى قضيتها هناك كانت أطول فاطلاعى كان بفضل ذلك أوسع.

ولى، كما يعرف القراء ـ أو كما لا يعرفون ـ عناية خاصة بدرس اللهجات العامة، والاهتداء إلى ما يتبنى الاهتداء إليه من أصولها العربية الفصيحة، لأنى أوثر أن استعمل اللفظ المأنوس الدائر على الألسنة، دون الدارس والحوشى المهجور، وأبادر فاطمئن القراء فأقول إنى لا أنوى فى هذا الفصل أن أصدع لهم رءوسهم ببحث فى عامية العراق، فلست، على كثرة عيوبى، قليل الذوق، أو لعل الأصح أن أقول إنى حريص على الاقتصاد فى حسن الظن بالقراء.

وسأكتفى فى هذا الفصل بما هو أشبه بأن يكون للتسلية، وأجرى فى مجراها، ويحسن قبل أن أدخل فى الموضوع أن أنبه إلى وجوب التفريق بين الخاصة والعامة، وبين المتعلمين وأشباههم أو الأميين، فان المتعلمين على العموم يستعملون فى كلامهم لغة لا تفاوت بينهما وبين لغة المتعلمين عندنا، على الجملة، ولولا النبرة الخاصة، ما

---

(١٤٨) الهلال ، فبراير سنة ١٩٤٥ (ص٢٢ - ٢٤).

أحس السامع فرقًا، أو شعر أنه انتقل من القاهرة إلى بغداد، أو تنبه إلى أنه مصرى وجليسه عراقى.

على أنه حتى المتعلمين تجرى ألسنتهم حين يرسلون النفس على السجية بألفاظ من العامية العراقية، يغمض معناها على الغريب فى بداية الأمر، مثل (أكو) بمعنى يوجد، و (ماكو) بمعنى لا يوجد، وهما بديلان من قولنا فى مصر (فيه) و (مافيش)، وقد أعيانى أن أهتدى إلى أصل اللفظين، على كثرة ما سألت واستفسرت، ويقول بعضهم ظنًا لا تحقيقًا، إنهما من فعل (كان) وليس يسعنى أن آخذ بهذا الرأى، وإن كنت لا أستبعده.

وكلمة (فرد) مما تسمعه مائة مرة فى خمسة دقائق، وهى عربية صحيحة، وإن كان الظن الشائع أنها غير ذلك، وأذكر أن ابن الأثير استعملها فى كتابه المثل السائر، فتسمعهم يقولون: فرد رأى، وفرد كتاب، وفرد حفلة، وفرد اقتراح، وفرد خطبة، وفرد كل شئ كائنًا ما كان، ومعنويًا كان أو ماديًا.

ومن الألفاظ الشائعة (زين) وهى عربية كما هو ظاهر، ويستعملونها فى جواب السؤال، أو بمعنى (حاضر) فى عاميتنا، فتقول (زين) فى جواب السؤال عن صحتك مثلاً، أو عن حالك، ويقول لك الخادم (زين) إذا طلبت منه شيئًا، أو كلفته أمرًا، وتقول (زين) أيضًا إذا أردت أن تعرب عن الموافقة أو الارتياح أو الثناء - بإيجاز .

وعلى ذكر الصحة أقول إنهم يسألون عن (اللون) فيقولون (ايش لونك؟) أو (كيف لونك؟) يعنون الصحة أو ما هو أعم أى جملة الحال.

ومن الكلمات الكثيرة الاستعمال (خوش) بمعنى حسن، أو جيد، وأصلها على ما قيل لى إذا كانت الذاكرة لم تخنى، من التركية، فتقول: خوش حفلة، أو خوش رجل، أو خطبة أو أى شئ آخر، ويجب فى كل حال تقديمها على الموصوف، خلافًا للمألوف

ويستعملون لفظ (التخت) للسرير، وهو شائع فى البلاد العربية، كما يستعملون (الفرشة) بالمعنى عينه.

وقد يستعملون (الجبة) أى القبة - يقلب القاف جيما - ويعنون بها البيت .

ولهم ألفاظ غريبة مأخوذة من لغات أخرى مثل (القندرة) بضم القاف أى الحذاء، ينطقونها فى غير العراق بالكاف المصرية، وأقول المصرية لأن رسم الكاف ينطق فى العراق كالجيم المصرية المعطشة، ومن هنا تراهم يرسمون (الجراج) (الكراج) و (يوجوسلافيا) وأظن أن هذا من التركية.

و(الخاتون) ويعنون بها السيدة، واللفظ يستعمل للتوقير، أو للتهكم والسخرية بحسب المقام وما يفهم من مقتضى الحال.

ومن الألفاظ التى تستعصى على الغريب (البوق) بمعنى السرقة و(البواق) بمعنى الحرامى أى اللص، و(يباوع) بمعنى ينظر، ويزعمون أن العين أصلها همزة، وأن البؤبؤ معناه ناظر العين، وتقول عامتهم (ببيى عيونى) أى ناظر عينى أو حبتها .

ومن غريب عامتهم كذلك (الخاشوجة) بمعنى (الملعقة) التى يؤكل بها، و(سكاملى) الكرسى، و(هواية) أى كثير، فيقول أحبك هواية أى كثيراً، ويخيل إلى أنى لم أسمع هذا اللفظ إلا فى رحلتى الأخيرة، على أنى قد أكون مخطئاً .

وقد استعاروا ألفاظاً من الإنجليزية، فسموا الخادم والندل (بوى) ولا أذكر أنى استطعت قط أن أنادى خادماً بهذا اللفظ، واتخذوا كلمة (جلاس) للكوب، فتسمعهم يقولون (جلاس ماى) أى كوب ماء، وكلمة (جروب) بمعنى فرقة، فيقول القائل منهم (جروب مال الحقوق) أى فرقة تابعة لكلية الحقوق، و(مال) لفظ يستعملونه بمعنى التبعية، أو للإشارة إلى المصدر، فيقولون مثلاً (مال الشام) أى من واردات الشام، أو مصنوعاتها أو منتجاتها وهو استعمال ليس بالغريب على مصر وإن كان قد ندر جداً،

وهم يحركون الساكن وخاصة إذا كان اللفظ ثلاثياً، فيقولون (النهر) بفتح الهاء، ويرون التحريك أخف من التسكين، ولا عجب فإن حركتهم دائمة وسكونهم قليل، وهذه مزية لهم، وعيب فيهم، فى آن معاً، فليت حركتهم أقل وسكونهم أكثر!

ومما يجعل فهم العامة العراقية على الغريب أصعب أنهم يقلبون الكاف شيناً، بل

ثاءً وشيناً، فيقولون (لتشى) يريدون (لك) فى خطاب المرأة، و (احبتش) أى (أحبك) فإذا تكلموا بسرعة، وكثرت الكافات فى ألفاظهم، فالله فى عون السامع، وما أكثر ما كنت أقول لهم حين يسك سمعى هذا اللفظ (ألا تتكلمون العربية؟) فيكفون عن هذا القلب والإبدال ترفقًا بى، وتمكينًا لى من الخوض معهم فى الحديث.

على أنهم فى العادة، أبطأ منا كلامًا، وأكثر أناة، وأقل ثرثرة، على أنك لا تعدم من يتدارك كلامه ويتقارب، ويتتابع فى عجلة، فلا تكاد تفهم لسرعته ولكثرة ما يقلب من الحروف، ويستعمل من الألفاظ التى لم تألفها أذن الغريب.

ومن مزاياهم الملحوظة التى لا يسع المصرى إلا أن يفطن إليها بسرعة أن الحلف فى كلامهم نادر، على خلاف عامتنا، فقلما تسمع أحداً يحلف بالله العظيم، أو النبى، أو أحد من الأولياء، على نحو ما يفعل المصريون أو العامة منهم.

ومن غريب استعمالاتهم أنهم يقولون عن المغنى أو المغنية، أو المتحدث - فى الإذاعة خاصة - إنه (يقرأ) أو أنها تقرأ، والمعنى مفهوم، ولكن الغرابة فى إطلاق لفظ القراءة على الغناء.

ولكل أمة عاميتها، أو لهجاتها العامية، وفى مصر من العامية لهجات شتى، وقد حدثنى قاض أنه كان يحتاج فى بعض الأقاليم إلى من يترجم له أقوال الشهود أو المتهمين من أهل ذلك الإقليم، لشدة التعويص فى كلامهم، وفرط اختلاف النبر واللهجة، والعدل بمخارج الحروف عن وجهها المألوف، فلا غرابة إذا وجد المصرى فى العراق بعض الصعوبة فى فهم العامية فى أول الأمر.

إبراهيم عبد القادر المازنى

المرأة العراقية[١٤٩]

المرأة العراقية نساء شتى، كأختها المصرية، فهناك الريفية التى تعمل ولا تحتجب، والبدوية التى تجرى على عرف القبائل - أو العشائر - وتقاليدها، والتى تعيش - ولا أقول تحيا - فى المدن وكأنها فى صندوق مغلق، ولا يراها من الرجال سوى أبيها أو بعلها أو أخيها، ولا تبدى وجهها أو زينتها حتى لزوج أختها، أو أبناء عمومتها أو خؤولتها، فإذا خرجت إلى الطريق رأيت شيئًا ملفوفًا كأنه فى غرارة، حتى لتعجب لها كيف تستطيع أن تبصر موضع قدمها، أو تتقى الاصطدام بغيرها - بالناس أو بالأشياء - وهناك التى أصابت حظًا من التعليم ولكنها ما زالت على الحجاب، تؤثره لنفسها لأنها شبت عليه، أو يفرضه عليها الرجال لأنهم لم يستطيعوا أن يرضوا أنفسهم على ما يقتضيه السفور، أو التطور مع الزمن، وهناك أخيرًا الفتاة الحديثة التى تتلقى مبادئ العلوم فى مدارس للبنات وتتلقى التعليم العالى مع البنين.

فإذا قلنا "المرأة العراقية" فالقارئ خليق أن يحتار فلا يدرى أى هؤلاء نعنى، فإنهن كما ترى كثر، متفاوتات، ولكنا نعتقد أننا نظلم المرأة العراقية إذا عنينا غير الفتاة الحديثة، لأن هذه هى التى عليها المعول، وفيها الأمل، وأمامها - أو فى يدها - المستقبل، أما الأخريات فينقرضن على الأيام، ويمضى عليهن الزمن فيمضى بهن، وعهدهن ذاهب لا محالة، ولن يبقى إلا الفتاة الحديثة على درجات من التهذيب والتثقيف متفاوتة بحسب طبقات المجتمع.

والفتاة الحديثة تخرج سافرة، ولكن البعض يسدلن فوق الثياب ما يسمى "العبا" أو العباءة أو الملاءة، وهى لفقان من حرير أسود رقيق، تشبك بالشعر، ولا تستر الوجه

---

(١٤٩) نشرت فى مجلة "الهلال" فى مايو ١٩٤٥، (ص١٩٩ - ٢٠٢) .

ولا الصدر، ولا فائدة لها، وإنما هى أثر متخلف من أيام الحجاب، وبقاؤها على هذه الصورة، خطوة إلى السفور التام، ستتلوها بلا شك خطوة أخرى، فتطرح لأنها تزيد لا خير فيه وكلفة لا داعى لها، وأكثر الطالبات يذهبن إلى معاهد التعليم وعليهن هذه "العبا" ويخلعنها أثناء الدروس، ويلبسنها حين ينصرفن، على أنى رأيت كثيرات من طالبات المدارس العليا يستغنين عن العباءة فى الطريق ولا يتخذنها.

وحدثنى مدير التعليم بلواء البصرة، بعد أن زرت معه مدرسة متوسطة للبنات أنهن طرحن العباءة إكرامًا لىّ واحتفاء بىّ، وأنهن يلبسنها حتى فى الفصول إذا دخل عليهن زائر أو مفتش جديد لم يألفنه.

وسألت مفتشة بوزارة المعارف رأيتها تصر على العباءة ولا تنزعها أبدًا، عن علة تمسكها بها فقالت إنها عادة، وأنها [لا] تشعر بضيق منها، وإنها تراها فضلاً عن ذلك زينة جميلة! ولا شك أنها تكسب الوجه الجميل وضاءة، ولكنى مع ذلك استسخفتها، ولم أكتم رأيى فيها.

ويغلب أن تلزم الفتاة العراقية الحديثة بيتها بعد الغروب، ولها العذر، فما ثم ما يغرى بالتلكؤ خارج البيت بعد ذلك، إلا لشهود السينما، وقد أضحكتنى حيرة صديق لى فى الأيام الأولى من زيارتى لبغداد، [أراد] فوق الإكرام، أن يعيننى على معرفة المرأة العراقية الجديدة، ففكر أولاً فى إقامة مأدبة عشاء، يدعو إليها مع الرجال سربًا من النساء، وكان لا بد أن تكون المأدبة فى فندق ليتسع للمدعوين، ولكن العشاء لا يكون قبل منتصف الثامنة، فلا يكون الفرا غ منه إلا فى الساعة التاسعة أو نحوها، ومن العسير أن تبقى الفتاة العراقية إلى مثل هذه الساعة المتأخرة، إذن ماذا يصنع؟ قلت أجعلها حفلة شاى، وكانت لى عليه – كما له على – دالة، فاعترضتنا صعوبة أخرى مماثلة لتلك هى أن الشاى يبدأ فى الساعة الخامسة وأخلق به أن يمتد مع الحديث والخطب إلى قريب من السابعة، وهذه أيضًا ساعة متأخرة، والتوقيت العراقى يسبق التوقيت المصرى بساعة كما يعرف القراء أو لا يعرفون، لم يسعنى إلا أن أرجو منه أن يعدل عن الأمر كله، فأبى، ولكنه أراد الله خلافه، فمرضت، ولم تبق له حيلة إلا الصبر، ومازال صابرًا.

والفتاة العراقية – كأهل العراق جميعًا – تحب الشعر وتطرب له، وتنظمه أيضًا، ولم أر أكثر من شعراء العراق، رجالاً ونساءً، وعسى أن يكون مما ساعد على كثرة الشاعرات أنهن أخلى من المشاغل، وأبعد من اللهو، ولكن كثرتهن مع ذلك عجيبة، وما أكثر من سألتنى منهن لماذا طلقت الشعر؟ كأنما كنت طلقت امرأة! فكنت أقول لهن إنى إنما كففت وتبت إلى الله، ولم أطلق، وإنى أستثقل لفظ الطلاق ولا أستمرئه، فلا يقنعن بهذه السفسطة، ويأبين إلا الإلحاح فى بيان السبب، وأى سبب هناك غير الإخفاق والعجز.

ولقيت سيدة اشتركت فى المؤتمر النسوى بالقاهرة، وأحست أنى غير راض عن مطالبة المؤتمر بحذف نون النسوة فقالت:

"إن التى اقترحت ذلك مصرية".

قلت: "ولكن العراقيات وافقن فهن شريكات لها فى التبعة".

والعراقية – كالعراقى – تأخذ الأمور جادة، وهى مرهفة الإحساس، وشعورها دقيق بمركزها المتخلف فى المجتمع العراقى، وثورتها على ذلك حادة، ولكن بلسانها، ولغطها بالمساواة لا يكاد ينقطع، وقد قلت لإحداهن فى اجتماع خاص ببيت صديق:

"ما هذه المساواة التى تطلبين وأنت لم تُخلقى خلقة الرجل؟ ثم إنك مخطئة حين تظنين أن اختلاف الوظيفتين معناه أن الرجل أسمى مقامًا من المرأة، أو أن المرأة أحط منزلة، كل ما فى الأمر أن لكل منهما اختصاصه، ووظيفته الموكولة إليه فى الحياة، وليس هناك – ولا ينبغى أن يكون هناك – مفاضلة، وإذا كانت الحرية مطلبك فاقدرى عليها تفوزى بها، ولكن لا تنتظرى أن ينزل لك الرجل عن شىء مختارًا، كما لا يجوز أن ينتظر الرجل أن تنزل له المرأة عن شىء ولها الخيار، وكل من بيده شىء يحرص عليه، فحررى أنت نفسك، بالعلم وإفادة القوة المستمدة منه، وباستحقاق الاحترام فى نظر الرجل، وحسبك من الرجل أنه يعلمك ويثقفك ويضع رجلك على السلم، وعليك أنت أن تصعدى وترتقى فيه، ولا شك أن الرجل لا يفعل ذلك لوجه الله

فإنه أنانى، والحياة مع امرأة مهذبة مثقفة أطيب منها مع الجاهلة الغبية، ولكن أنانية الرجل هى فرصة المرأة، فلتغتنمها على أحسن وجه وإلى أبعد مدى، أما اللغط بالمساواة فهراء لأنه شيء أبته الطبيعة".

ولا تزال الحياة الاجتماعية فى العراق فى بداية المرحلة الأولى، أى أنها موجودة كمعدومة، فالرجال يذهبون إلى الأندية أو المقاهى أو الفنادق، ويقضون السهرة هناك، والمرأة تقعد فى البيت، مع قريباتها أو صواحبها إذا شاءت، وبعض الرجال يؤثرون الاجتماعات المنزلية، وهؤلاء هم القلة لا الكثرة، فالحال شبيهة بما فى مصر، وإن كانت الحياة الاجتماعية أوسع نطاقًا، ووسائل التسرية عن المرأة أوفر وأيسر.

ولا شك أن المرأة العراقية ماضية إلى السفور التام، ولست أعنى بالسفور مجرد الخروج بوجه غير مستور فإن هذا حاصل، وإنما أعنى الحياة الاجتماعية التى لا تفرد فيها المرأة بمكان والرجل بمكان، ويكون كل منهما بمعزل عن الآخر، وهذا [شيء] يزول بانتشار التعليم، واعتياد الحياة المختلطة شيئًا فشيئًا.

ولا خوف من ثورة المرأة العراقية فى الوقت الحاضر، لأنها فى الحقيقة ليست إلا مظهر تململ من قيود واهية باقية، حتى الرجال يشعرون أن العادات العتيقة لم يبق لها مسوغ، وأن حياتهم ناقصة بغير المرأة، ومتى استقرت قواعد الحياة الجديدة، وألفت المرأة نفسها، بعد أن تؤدى وظيفتها الموكولة إليها، تشارك الرجل فيما عدا ذلك من وجوه حياته، فأخلق بها أن تشعر بالرضى والاطمئنان، لأن كل ما يضايقها ويثقل عليها ويمضها هو الحرمان، فهى ستظل ساخطة متبرمة ما بقيت بمعزل عن حياة الرجل، ولكنها ستقر وتسكن متى رفعت الحوائل وأزيلت الحواجز، أما المساواة بالمعنى الصحيح فلست أعتقد أن فى الدنيا امرأة تؤمن بها فى سريرتها وقرارة نفسها، ومتى نالت حقها المعقول فأخلق بها حينئذ أن تفئ إلى ما هو أرشد.

ومما يستحق الذكر هنا أن الطالبات بإحدى دور التعليم العالية ثرن - وأنا بالعراق - على نظام فرضته الدار، وهو يقضى بأن تكون لهن أمكنة خاصة يزاولن فيها ألعابهن الرياضية، فأبين هذا الانفصال، وأضربن عن اللعب والرياضة، وعن

حضور الحفلات المدرسية، وكانت حجة الطالبات أنهن يحضرن الدروس مع الطلاب، ويلتقين بهم فى الأبهاء والأفنية لأنهن معهم فى مدرسة واحدة، فلماذا يفصلن منهم فى أماكن اللعب إلا إذا كان الأستاذ الذى قضى بهذا الفصل حاضراً يرى بعينه ويسمع بأذنه، وكانت حجة الأستاذ أنه يخشى عاقبة هذا الاختلاط إذا لم تكن هناك رقابة، وقد تركت العراق والثورة مازالت قائمة، والإضراب عن اللعب مستمراً، فلا علم لى بما انتهى إليه الأمر، ولكنى واثق أن الطالبات سيفزن فى النهاية لأن هذا هو الاتجاه العام للتيار، لا لأن الأستاذ مخطئ؟

والعراقى والمصرى يتشابهان فى الخَلق (بفتح الخاء) تشابهًا عظيماً، فلولا اللهجة والنبرة وبعض الألفاظ العامية المحلية، لما أحس المصرى أنه انتقل إلى بلد آخر وشعب غير شعبه، ومثل هذا يقال عن المرأة، فإنها شبيهة المرأة المصرية، فى خلقها وعاداتها، ومن المضحكات التى يؤدى إليها اختلاف اللهجة والألفاظ المألوفة، ما قصه علىّ، عراقى زار مصر، وكان معه آخر من مواطنيه، فضلاً، فى بعض الطريق، ورأى أحدهما سيدة أنيقة الثياب فقال لصاحبه يحسب أن نسأل هذه "المرة" عن الطريق - والعراقى يقول "المرة" ويعنى المرأة، واللفظ لا يدل هناك على ما يدل عليه هنا من التحقير والمهانة - وسمعت السيدة ذلك وأقبل عليها أحدهما يسألها فثارت به وأوسعته تقريعًا، ففطن إلى السبب وشرح لها الأمر واعتذر.

واعترف أن لفظ "المرة" كان يثقل على سمعى، ولا سيما حين تقوله سيدة، حتى اعتدت ذلك فخف وقعه قليلاً، ولكنى بقيت إلى آخر لحظة استثقل أن يقال عن المرأة "مرة" وأنفر من ذلك وأحس بشىء من الخجل - ولا مسوغ لذلك إلا من اختلاف مألوفهم ومألوفنا.

إبراهيم عبد القادر المازنى

ملحق

(من ذكريات لبنان)

كيف ولماذا سافرت إلى أوروبا[١٥٠]

منذ بضع سنوات – أربع أو مائة، لا أدرى! – استقر عزمى على قضاء الصيف فى لبنان، فجمعت ما عندى من الثياب القديمة، وحشوت بها حقيبة، وقلت أقضى أياماً فى الإسكندرية ثم أبحر منها إلى بيروت، وهناك – فى الإسكندرية، لا بيروت – لم أدع شركة ملاحة إلا دخلت مكتبها واستفسرت من رجالها عن البواخر، حتى الذاهبة إلى الهند، ومواعيد وصولها ورحيلها، وكنت أخرج من كل مكتب بحزمة من الأوراق، فيها صور مُغرية وأسعار منفّرة، فاتفق يوماً أن لج وكيل "شركة سيتمار" فى تزيين السفر لى على الباخرة "أسبيريا" إلى إيطاليا، وكان الوقت ظهراً، وأنا جوعان، فدار رأسى، ووهن عزمى، وكدت أنقده ثمن التذكرة، ولكنى تذكرت أن "الجواز" يحتاج إلى "تأشيرات" فاعتذرت به وانصرفت.

وعدت إلى فندق "بوريفاج" فى أقصى "الرمل" وكنت مقيماً به، وأسرعت إلى مائدتى فجلست بها، وكنت مهموماً مكروباً موزع النفس، بين لبنان والباخرة "أسبيريا" – أى والله! كأنما كنت سأقضى الصيف كله على ظهرها! – فناديت الخادم وطلبت قليلاً من النبيذ عسى أن يذهب عنى الفتور.

وملأت الكأس، وتناولتها، ورفعتها إلى فمى، فسمعت – من ورائى – صوتاً ناعماً رخيماً يقول:

(١٥٠) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ١٩ نوفمبر ١٩٣٤، (ص ١٨٩٤ – ١٨٩٦).

"المازنى – هذا – حشرة!".

فارتدت يدى عن فمى، وهى ترتعش، وسالت عليها قطرات من النبيذ، ومضى الصوت الجلو يفرى أديمى:

"حشرة حقيرة – يجب سحقها بالأقدام".

فتلفت مذعوراً وقد خيل إلى أن العيون كلها صارت علىّ، وتمنيت لو أن إدارة الفندق تحرم الكلام على الطعام، أو تجئ بموسيقى فتغرق فى أنغامها العالية القوية هذه الأصوات الحلوة! ولكن الكلام لم يكن محظوراً، ولا موسيقى هناك، فسمعت مكرهًا:

"سكير لا يفيق، ومعربد لا يرعوى".

فقلت فى سرى "يا خبر أسود ؟! أنا سكير لا أفيق ؟؟ أنا عربيد ؟؟"، ودهشت، ولو أن رجلاً كان يزعمنى كذلك لما حفلت نفسى ماذا يقول عنى، ولكنها فتاة – فتاة على التحقيق، صوتها وحده دليل على ذلك – تذكرنى بلهجة المحنَق، كأنما كنت قد قتلت أباها، – قاتله الله على أى حال! – وكان الخادم قد وضع أمامى شَبوطةً[١٥١] مغرية، ولكن نفسى انصرفت عنها وزهدت فيها، فاضطجعت وأنا أعجب للذين يؤاكلون هذه الفتاة لماذا لا يتكلمون؟؟ وما لهم لا يغيرون هذا الموضوع.

"رجل مستهتر، لا يبالى ماذا يقول عن نفسه، ويظن لسخافته أن هذا من الظرف".

فلم أعد أطيق هذا الطعن، واشتهيت أن أكتم أنفاسها بالفوطة، ولكنى طويتها – أعنى الفوطة – ووضعتها على المائدة وهممت بالقيام، فسمعتها تقول:

"على كل حال ماذا ننتظر؟ إن "أسبيريا" تسافر بعد غد، وإذا لم نشتر التذاكر غداً تأخرنا وفاتتنا..."

---

(١٥١) الشبوط والشبوطة سمك عريض ذيله دقيق (المازنى).

وتسللت، كاللص، ولكن بعد أن خالستها النظر ورأيت وجهها، من غير أن تراني، وكانت مع الأسف جميلة، فزاد عجبي، فإن الحسن ريٌّ ولينٌ، وهذه الفتاة تحمل لي في جوفها بركانًا فائرًا بالسخط والنقمة وكل ما ينافي معاني الجمال، فقرضت أضراسي وأقسمت لأسافرن على هذه الأسبيريا لأرى آخر هذه الحكاية.

وأقبل الليل، وكنت أتمشى في حديقة الفندق، وحدي، كما لا أحتاج أن أقول، وكنت لا أزال أحدث نفسي بما سمعت من أوصافي، وكان صدري كالخضم المضرب، وكان الخدم يروحون ويجيئون في أرجاء الحديقة تلبية لنداء المنادين أو تصفيق المصفقين، وكان الأطفال يجرون هنا وهنا، وأنا ذاهل عن هؤلاء وأولئك جميعًا بالحجارة التي سكت سمعي على الطعام، فكنت أخطو خطوات، وأقف وأقول لنفسي:

"حشرة...!"

فقال صوت: "أفندم؟"

قلت – غير عابئ به أو جاعل بالي إليه – "حشرة حقيرة.، تستحق السحق بالأقدام" واستأنف السير، أو الخطو، وتركت الخادم – فقد كان أحد الخدم – يسخط ويلعن، أو لا يدري هل يضحك أو يغضب.

وإني لفي ذهولي هذا، وإذا بصرخة خافتة، فالتفت مسرعًا إلى مصدرها، فبصرت بفتاة حانية على غصن مَريجٍ علق به ثوبها، فوثبت إليها وأعنتها على تخليص الثوب، ولكن بعد أن تخرق، وقلت وأنا أنفض التراب عن كفي وأشير إلى الثقوب الظاهرة في ثوبها:

"ليس هذا ذنبي.، إنه ذنب البستاني المهمل الذي يربي هذه الألفاف ليزين بها الطريق ولا يعنى بتقليمها..."

فقالت: "على العكس..، إني شاكرة لك نجدتك، ولولاك لصار الثوب في يدي هلاهيل..، فأنا مدينة لك...".

فرفعت عينى إليها فإذا بها هى التى سلقتنى على المائدة بلسانها وحرمتنى لذة الطعام وأنا جائع أتضور، فارتددت عنها مقدار خطوة وندت عن صدرى آهة مخنوقة،

فقالت وهى تدنو منى: "ماذا بك؟".

ورأتنى أتكلف الابتسام فقالت: " بالدور... أنت مرة وأنا مرة".

فقلت: " لا شىء... لا شىء..."

فألحت، "ولكن ماذا بك ؟".

قلت: "أوه... لا شىء، لم أكن أحسب أنك أنت..."

فقالت مستغربة: "ولكن بالطبع أنا أنا..."

قلت: "طبعًا، طبعًا، إنى سخيف"

قالت: "هل تعرفنى ؟"

قلت: "أعرفك ؟ الجواب نعم ولا"

قالت: "كيف يمكن هذا؟ ماذا تعرف عنى؟".

قلت: "أقل مما تعرفين عنى"

قالت: "لا مؤاخذة، ولكنى لا أعرف عنك شيئًا"

قلت: "صحيح !؟"

قالت: "بالطبع صحيح! إنى لم أرك إلا الساعة"

فتنهدت وانحط عن صدرى حجر، وقلت: "الحمد لله !" يا ما أكرمك يا رب !"

فقالت: "ولكن لماذا تتكلم هكذا؟ لست أفهم شيئًا.."

قلت: "أحسن"

قالت: "هل معنى هذا أنك تخشى أن أعرفك؟"

قلت: "جداً جداً جداً!"

فضحكت وقالت: "هل أنت مجرم هارب؟"

قلت: "شر من مجرم وبودى لو أستطيع الهرب ولكن إلى أين؟ كلا، لست مجرماً ولكنى حشرة!"

فصاحت: "إيه؟ حشرة !"

قلت: "أى نعم، حشرة حقيرة..."

فوضعت راحتها البضة على كتفى وقالت: "لا تتكلم هكذا !هل أنت مريض؟"

قلت: "نعم، نعم، نعم."

قالت: "مسكين ! ماذا بك؟"

قلت: "أذنى...، أذنى...، آه من أذنى"

والمصيبة أنى كنت أبتسم، فقد راقنى هذا الموقف على الرغم مما أجن من الحقد على الفتاة، فاقبلت علىَّ، وجعلت تهون من أمر أذنى، وتشير على بأن أضع فيها قطرة أو قطرتين من "الجليسرين"، وأن أبلع قرصاً من "الأسبيرين" فشكرتها وافترقنا.

* * *

وفى صباح اليوم التالى، مررت "بقلم الجوازات" وبدار "القنصلية الإيطالية"، ثم استخرت الله وذهبت إلى مكتب "شركة سيتمار"، وطلبت تذكرة على الباخرة "أسبيريا" وإذا بالفتاة تقول لى:

"وأنت أيضاً مسافر عليها؟"

قلت: "نعم، هل هناك بأس؟"

فضحكت وقالت: "كيف أذنك اليوم؟"

قلت: "أذنى ؟ آه! صحيح! تطن"

قالت: "يظهر أنها شفيت..."

فهممت بأن أقول شيئًا ولكن الرجل سألنى عن اسمى، ولم أكن أتوقع هذا، فهبط قلبى إلى حذائى، ونظرت من الفتاة إلى الرجل، ومن الرجل إلى الفتاة، وقلت:

"اسمى؟ ولكن هل هذا ضرورى؟"

فقال: "لا..، ولكن يحسن..، إن أسماء الركاب تكتب وتوزع على الباخرة".

وكنت قد أنقدته قبل ذلك ثمن التذكرة، فلولا هذا لعدلت، فقلت:

"اسمى؟ اسمى؟ أظنه.، إبراهيم.، نعم.، ابراهيم عبده".

وقالت الفتاة ونحن خارجان: "هل هذا اسمك الحقيقى؟"

قلت: "هل تعرفين اسمى الحقيقى؟"

قالت: "لا.، إذن هذا اسم مستعار؟ معذرة إذا كنت أتطفل..."

قلت: "لا لا..، ليس اسمًا مستعارًا..، إنه اسمى من الآن فصاعدًا"

فهزت رأسها وقالت وهى تبتسم: "ليس لى حق، هذا فضول لا يغتفر..، سامحنى"

فقلت: "بلهجة الجد الصارم "أسامحك؟ كلا! أبدًا..، أبدًا..."

فتعجبت، ولها العذر، وقالت: "هل أسأت إليك بشىء؟ إنى آسفة!"

قلت: "أسأتِ ؟ أسأت فقط ؟ لقد قتلتنى يا فتاتى!"

قالت وهى تدير وجهها لترى وجهى: "أتمزح أم تتكلم جادًا؟"

فواجهتها وقلت: "هل تعرفين أنى أمزح؟؟ كلا! أعنى نعم، قتلتنى..، طعنتنى هنا"

(وأشرت إلى موضع القلب)

فضحكت وقالت: "بهذه السرعة ؟! إنك حساس جداً"

قلت: "نعم، جداً، فاتقى أن تدوسينى بقدميك..."

قالت: "ولكن لماذا أدوسك بقدمى؟ لست أفهم كلامك..."

قلت: "لأنى حشرة..."

قالت: "أوه! لا تقل هذا.، لماذا تشتم نفسك هكذا؟"

قلت: "نعم حشرة، وحشرة حقيرة أيضاً.."

قالت: "أوه! إنك تضجرنى بهذا أر..."

قلت: "وسكير عربيد..."

فوقفت فى الطريق وصاحت: "أهو أنت؟"

فقلت – مقلداً – :"بالطبع أنا أنا!"

قالت: "وسمعتنى؟"

قلت: "كل كلمة.، خرقن أذنى كالمسمار المحمى"

قالت: "إنى آسفة..، جداً..، وأعتذر"

قلت: "آسفة؟ هممم، وأنا أنفلق ! لا بأس، هيا بنا..."

قالت: "لقد تعمدت ذلك..."

فصحت بها: "إيه ؟ كان هذا كله إلى الآن تمثيلاً؟

قالت: "نعم قلت ما قلت عمداً..، عرفتك من وجهك ومن..، لا مؤاخذة..، من رِجْلكَ.، ولكنك تؤثر الوحدة ولا تبالى الناس وتتقى أن تكلمهم، بل تهرب منهم، فماذا أصنع غير ذلك؟".

قلت: "كنت تستطيعين أن تمدحينى مثلاً فأسر..، أم هذا حرام؟"

قالت: "والآن ألا تعفو عنى؟"

قلت: عفونا يا ستى! بعد أن غرمنا ثمن تذكرة إلى أوروبا بلا داع!"

قالت: "إيه؟"

قلت: "نعم، كنت مسافراً إلى لبنان، فلما سمعت منك بعض الحقائق..."

فاحتجت: "لا تقل الحقائق..."

"أردت أن أعرف البقية..، فقد أوصانا سقراط أن نعرف أنفسنا"

فوضعت كفها على فمى.

فلم أقبلها – أعنى كفها – ولكنى عضضتها عضة مغيظ، ولم أبال صراخها فى الطريق.

إبراهيم عبدالقادر المازنى

"ليلة على الشرفة"(١٥٢)

"ليست بك حاجة إلى أي دواء، إنما حاجتك إلى قليل من الرياضة الخفيفة بضع دقائق كل يوم".

كذلك قال لى كل طبيب استشرته فى علتى، وأنا أخشى الأطباء وأفزع من لقائهم وأكره أن يعودنى منهم أحد ولكنى أحياناً يثقل على "الشعور" بالمرض – لا المرض – فيخيل إلىّ أن كل شىء قاتل لا محالة – الأكل، والشرب والرقاد، والمشى، والكلام – كل شىء بلا استثناء، فأذهب إلى الطبيب وأنا أقول لنفسى إنه لن يصبنى منه شر مما أنا مهدد به، فإذا صرت إليه ودخلت عليه عاودنى الخوف من طب الأطباء فأذهب أهون عليه الأمر وأزعم أنه "مجرد تعب بسيط لا أظنه يحتاج إلى أكثر من دواء منشط" وأتقى جهدى أن يفحصنى، وأجعل همى أن أظفر منه بشهادة بأنى سليم معافى... ولكن العقدة هى أن الشهادة لا يكون لها أثرها المنشود فى إصلاح الأعصاب إلا إذا جاءت بعد فحص، والفحص خطر لأنه قد يكشف عن مرض باطن شديد الخفاء مستعص على العلاج، فما العمل؟ كيف أتقى أن أخرج من عند الطبيب بداء عياء، وأفوز فى الوقت نفسه بشهادة بحسن سلوك الأعضاء؟ العمل هو أن أحاور الطبيب وأداوره، وأعالج أن أوحى إليه أنى صحيح معافى، فأقول له مثلاً:

"يا أخى إن هذه الأعصاب بلاء كبير، أعوذ بالله مما يؤدى إليه تعبها واضطرابها!".

فيقول: "صحيح" وينظر إلى السماعة.

---

(١٥٢) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٢ ديسمبر ١٩٢٤ (ص ٣ ، ١١) .

فأسرع فأقول: "يا ويل المرء إذا تعبت أعصابه! إنى مثلاً يخيل إلىّ أن الكليتين والكبد والرئتين والقلب والمعدة والأمعاء فاسدة مريضة، لا تؤدى عملها، وهذا كلام فارغ، وإلا بالله كيف كان يمكن أن أكون حيًا وبى كل هذه الأدواء والعلل؟".

فيقول: "صحيح، ولكن المسألة على كل حال ليست مسألة منطق.. تعال..".

فأقاطعه وأقول: "ولكن العبرة بالشعور، وما دمت أشعر أنى سليم وأن صحتى حسنة، وأحس أنى كفء للحياة ومطالبها، فإن الاطمئنان إلى هذا الشعور أولى بالإنسان، لأن شعورًا كهذا لا يمكن أن يحصل مع هذه الأمراض المتخيلة، أليس كذلك؟".

فيقول: "هذا معقول، ولكن يحسن ألا نفكر فى هذه المسائل، تعال...".

فأقول: "مثلاً، القلب كثيرًا ما يُخيل إلىّ أنه كَلَّ وتعب وأصبح يريد أن يستريح، وهذا بالطبع وهم، وأنا أعرف أن كل ما أشعر به علته الغازات الضاغطة..، ألا يمكن أن تريحنى من هذه الغازات يا دكتور؟؟ إنها شىء ثقيل جدًا، فما قولك؟ صف دواء لهذه الغازات، إنها هى سبب متاعبى جميعًا، نعم ليس بى سواها".

فيقول: "طيب، حالاً تعال أولاً لأفحصك ثم نرى".

ولا أرى مفرًا من الفحص، فأوجه نظره إلى عضو لا شك عندى فى سلامته، كالكبد مثلاً، وأدعوه أن يبدأ به، ليجئ رضاه عنه باعثًا على اطمئنانى ومشجعًا على احتمال بقية الفحص، ثم أثنى بعضو آخر طالما أتعبنى من غير أن يقتلنى، حتى لم أعد أباليه كيف يكون، مثل الكلية، فيقول بعد فحصها:

"هذه أمرها معروف، لا جديد فيها".

ثم يضع السماعة على القلب فأقول: "آه! جاءك الموت يا تارك الصلاة!"

وأقول له: "يا أخى، القلب هذا خازوق! طك! وينتهى كل شىء! خازوق صحيح! يكون الإنسان جالسًا يتكلم ويضحك ويلعب وإذا بالقلب قد وقف، وإذا به هو قد زال من هذه الدنيا فكأنه ما كان فيها! ما هذا الكلام؟".

وأبالغ جداً فى تصوير الخطر من غدر القلب ليجئ كل ما ينتهى إليه رأى الطبيب دون ما أصف، فيكون ذلك مدعاة للرضا والاطمئنان..، ويرفع الطبيب السماعة ويقول بفتور شديد: "لا شيء!".

فيخرجنى السرور عن طورى ويغيظنى من الطبيب هذا الفتور فأصيح به: "إيه؟".

فيقول – بفتور أيضاً –: "لا شيء! سليم!".

فأقول: "همم، سليم؟ وتقولها بهذا الفتور؟ ولو كنت مريضاً لصحت من فوق مئذنة؟! لكأنى بك يسوءك أنى صحيح البدن!"،

* * *

وهكذا حدث أنى – فى الصيف الماضى – حرصت على أن أزاول بعض الألعاب الرياضية الخفيفة كل صباح، قبل الطعام، وكنت أقضى فى ذلك دقائق عشراً لا تزيد ولا تنقص، فكنت إذا قمت من النوم، أخرج إلى شرفة واسعة فى البيت الذى اتخذته فى مصيفى بلبنان، وأذهب أنثنى وأعتدل، وأتلوى، وأقوم وأقعد، وأحرك يدى ورجلى، وولداى الصغيران يضحكان منى، ويصنعان مثلى ويحسبان أنى "ألعب" فيحاولان أن يركبانى كأنى حمار، وأن يقبضا على ساعدى، أو أن يقرصا ساقى، إلى آخر ما يغرى به الأطفال من مثل ذلك فى العادة، ولو اقتصر الأمر على ابنىّ هذين لهان الخطب، ولكن أطفال الجيران سمعوا بألعابى – لا أدرى كيف أو من؟ فكانوا يطلون برءوسهم الصغيرة من النوافذ وينظرون إلىّ، وقد يضحكون علىّ، وثابروا على ذلك كمثابرتى، فلم يفتهم منظرى ولا مرة واحدة.

واتفق يوماً أن أشرفت علىّ فتاة من جيراننا، وكان ولداى قد أغريانى كالعادة ودخل أصغرهما بين ساقى، وهو يحسب أن بينهما طريقاً كافياً، فانحشر، وأردت أن أوسع له فوقعت على الأرض، فأرسلتها الفتاة ضحكة مجلجلة عالية، فخجلت وأقصرت، وانتقلت بعد ذلك إلى شرفة أخرى تطل على الحديقة، ولا تنفذ إليها عيون الجيران لكثرة الشجر واسترحت من هذا الفضول المحرج.

ولو اقتصر الأمر على ذلك، لما كان هناك ما أقصه على القراء اليوم، ولكنه حدث أنى حملت أسرتى إلى [...][١٥٣] لنقضى فيه أيامًا، ونزلنا فى فندق جميل ليس هناك غيره، وفى بستانه عين ثرة ليس أبدع من منظر مائها وهو يتحدر على الصخور ويرغى ويزبد ثم ينساب فى أقنية عديدة تخترق هذا البستان الحافل بالزهر والثمر.

وإنى لجالس على الماء أستريح، وزوجتى تتمشى مع الأولاد، وإذا بجارتى ذات العينين الزرقاوين والشعر الذهبى المقصوص، تقبل علىّ وتقول وهى تمد راحتها البضة إلى:

"إنى أعتذر لك من سوء أدبى!".

فتناولت يدها وقلت: "إيه؟ سوء أدبك؟".

قالت: "نعم، ضحكت عليك وأنت تلعب..، كان هذا سوء أدب ولا شك، وأنا آسفة".

قلت: "ولكنى أحب أن تضحكى علىّ، يسرنى هذا".

قالت: "لو كان يسرك لما انقطعت..، إنك لم تظهر بعدها على الشرفة..، بسببى ولا شك!".

قلت: "تعالى! تعالى! اجلسى أولاً، وقصى علىّ تاريخ حياتك، فإنى مولع بجمع التراجم، كولع غيرى بجمع الطوابع".

فضحكت وجلست وقالت وهى تضع رجلاً على رجل وتشد الثوب لتغطى ساقها الرخصة:

"تاريخ حياتى؟ هذا غريب! لم يخطر لى قبل اليوم أن لى تاريخًا!".

قلت: "حسن، سنرى، أولاً، لقد ولدت".

قالت: "يظهر أن هذا لا شك فيه".

قلت: "أين؟".

قالت: "فى بيروت!".

---

(١٥٣) اسم غير واضح فى الأصل المتاح (المحرر).

قلت: "وأنا ولدت فى القاهرة".

قالت: "لا أعرفها مع الأسف".

قلت: "أنا أعرف بيروت معرفة جيدة، أما القاهرة فلم تشتهر بى بعد، سأبذل جهدى لأنيلها الشهرة، وإن كنت قد خبت إلى الآن، نعم أنا رجل خائب".

قالت: "خائب؟ كم عمرك؟".

فقلت: "آه؟ عمرى؟؟ إذا كان العمر بالإحساس، فأنا أحس أنى أقدم من هذه الجبال، وإذا كان بعدد السنين فعمرى... عمرى.. ما لك أنت ولعمرى؟ لنتكلم فى شىء آخر"،

فضحكت وقالت: "لا مؤاخذة، ولكنك تقول إنك خائب، وأنت مع ذلك مازلت شابًا".

ففركت كفى وقلت: "آه.. هذا أحسن.. إنك تتكلمين الآن بعقل".

قالت: "كيف تخيب والدنيا كلها تصيح بك وتناديك أن تعال اعمل وانجح؟".

قلت: "يظهر أنى أصم...".

قالت: "لا تمزح.. يظهر أن نشاطك متقطع.. نوبات من النشاط لا تلبث أن تفتر.. بدليل انقطاعك عن الرياضة".

قلت: "يا فتاتى الحكيمة قبل الأوان هل تعرفين قصة مكسيم؟".

قالت: "مكسيم؟".

قلت: "نعم، حيرام مكسيم مخترع المدفع المعروف باسمه، كانت عيناه واسعتين جدًا وكان رأسه كبيرًا جدًا، فأراد أن يتدرب على الملاكمة وقصد إلى ممرن فأبى الرجل أن يدربه وقال إن عينيك واسعتان وهما تأخذان من وجهك نصفه، فيخشى أن تصبحا هدفًا مغريًا، ورأسك كبير فستنصب عليه اللكمات جميعًا، وهذه خسارة، فانصرف مكسيم عن الملاكمة، واستخدم عينيه الواسعتين ورأسه الضخم فى غير ذلك، فكان أن اخترع مدفعه المشهور ونفع به الإنسانية، وأنا كمكسيم أرى الآن أن فى

وسعى أن أخدم الإنسانية من طريق آخر غير الألعاب الرياضية، وإنى لأرجو أن أهتدى إلى اختراع أنفع وأفعل من اختراع زميلى ورصيفى المشهور [الخواجا] مكسيم – هذا هو السر يا فتاتى فى كفى عن اللعب والعبث وعدولى إلى ما هو أجدر وأليق بهذا الرأس العظيم".

وأقبلت زوجتى فتركتهما معا، واقترحت الفتاة أن نخرج فى اليوم التالى إلى مكان نسيت اسمه، فاتفقنا على ذلك، ورجوت منها أن تكل إلىّ إعداد ما نحتاج إليه من الطعام والشراب، فأبت، وأبى أبوها أيضًا – وكان معها – وقالت هى:

"إن عندى فى البيت قطة، كلما صادت فأرًا وقتلته، جاءتنى به قبل أن تأكله، ووضعته عند قدمى، وهى تعتقد أنها تصنع شيئًا جميلاً، ولا يخطر لها أن هذا الفأر القتيل قد يكون كريه المنظر، أو أنى قد استبشع جثته المضرجة بالدم، فأركله برجلى، فتثب وراءه، وتحمله بين أسنانها وتعود به إلىّ، وهى تظن أنى ألاعبها، لا يا سيدى، لست أحب الفيران الميتة، فلا تكن كهذه القطة، وإذا كنا سنخرج معًا، فليكن خروجنا على طريقة المناهدة، أنتم تجيئون بما تحبون، ونحن نجئ بما نحب، وإلا فهذا فراق بينى وبينكم".

فراقنى هذا الروح وأعجبت بنزوع الفتاة إلى الاستقلال وحرصها عليه، وكانت رحلة طيبة ممتعة، ظللنا فيها حتى غابت الشمس، وتعشينا، وصعدوا جميعًا إلى المخادع ليناموا فقد فتّر طول المشى أجسامهم، فذهبوا إلى الأسِرَّة يتطوحون من التعب، ما خلا الفتاة فقد بقيت معى، تؤانسنى بحديثها، حتى أوفت الساعة العاشرة على التمام، وكان الجو قد ابترد، ولكن مناظر الماء الدافق والشجر المثمر والجبال المحيطة بنا، كانت تغرينا بالبقاء، فاقترحت عليها أن تشتمل بشىء يقيها البرد، وعرضت أن أصعد إلى حجرة زوجتى فأجيئها بشملة، فأبت، وقالت بل تصعد وتأمر الخادمة أن تجيئنى بشملتى من حجرتى، فإنها على المشجب.

ولم أجد الخادمة لسوء حظى، ولم أدر أين يمكن أن تكون فى هذه الساعة، ولم أشأ أن أزعج من فى الفندق من أجل شملة على مشجب فى غرفة فارغة لا أحد فيها،

فتوكلت على الله وفتحت الباب ودخلت، وأوجست خيفة وأنا أدفع الباب، أن تكون هذه غرفة أخرى، فمشيت مترفقًا - أعنى على أطراف أصابعى، وكان المكان مظلمًا والنافذة مغلقة، ولم أكن أعرف أين مفتاح النور، فمددت يدى أتحسس، فاصطدمت بسرير، أو على الأصح بعمود من عمده، فانحدرت بها - أعنى بيدى - إلى الفراش، فإذا بى ألمس جسمًا ففزعت وانطلقت من فمى صيحة خافتة فعضضت لسانى من الغيظ والسخط على نفسى، ذلك أن النائم انتفض قائمًا وصاح بى:

"ارفع يديك وإلا أطلقت عليك الرصاص".

فقلت: "إيه؟".

فعاد يصيح: "افعل ما آمرك".

ففعلت فقال: "أدر ظهرك.. حسن.. امش إلى النافذة.. افتحها.. أخرج إلى الشرفة.. والآن ابق مكانك...".

وأغلق النافذة وتركنى على الشرفة الضيقة، ورجع إلى سريره فنام!.

* * *

وقفت على الشرفة برهة أفكر فيما صرت إليه، وكان الظلام حالكًا، فلم أر فى أول الأمر شيئًا، ثم ألفت سواد الليل شيئًا فشيئًا، فنظرت يمنة ويسرة وصعدت عينى إلى فوق، وصوبتها إلى تحت، فلم أجد شيئًا قريبًا أستطيع أن أعتمد عليه فى النجاة، فتنهدت وأشعلت سيجارة، واستأنفت التفكير، وخطر لى أن من الحماقة أن أدعو هذا المجنون أن يفتح النافذة ويطلقنى، ومادام أن معه هذا المسدس فكيف آمن أن يفرغه فى صدرى؟؟ إنه مجنون ولا شك، وليس أدل على جنونه من أنه حبسنى فى الشرفة بدلاً من أن يدعو الخدم أو يستنجدهم أو يرمى بى إليهم.

ولم يغب عنى أن موقفى مضحك، ولو كان غيرى مكانى لأغرقت فى الضحك -

والقهقهة أيضًا - أيامًا متواصلة، ولكن فرقًا بين أن تكون أنت فى المأزق المضحك وأن يكون الذى فيه غيرك، فلا عجب إذا لم أجد فى موقفى شيئًا من بواعث التسلية، وأى تسلية لرجل محبوس على شرفة صغيرة، فى جو مقرور، ومحكوم عليه أن يقضى ليلته السوداء هذه واقفًا؟؟ ولا أمل فى إقناع هذا المجنون الخطر بأنى رجل مأمون وأنى لست بلص، وأن كل ما فى الأمر أنى غلطت فدخلت غرفة غير التى أعنيها، ووددت، وأنا واقف، لو أن هذا الأحمق قد صاح وولول وجمع علىّ أصحاب الفندق وسكانه وخدمه، وشرطة القرية جميعًا، ولكنه آثر أن يكون مبتكرًا مبتدعًا، وأن يلهو بى ويتخذنى فريسة وضحية، وأيقنت أنى لا محالة مصاب فى ليلتى هذه بالربو وأوجاع المفاصل جميعًا وبغير ذلك مما يجره طول التعرض، ولعنت الساعة التى جئت فيها لبنان، والساعة التى رأيت فيها هذه الفتاة، وأوسعت نفسى توبيخًا ولومًا، وماذا كان يمنع أن أوقظ خدم الفندق جميعًا وصاحبه أيضًا؟؟ ومالى أنا أدخل غرف الناس متسللاً كاللصوص؟؟ وماذا علىّ لو عدت إلى الفتاة وأخبرتها أنى لم أجد الخادمة؟؟ وماذا تقول زوجتى الآن إذا طال غيابى ولم ترنى مرميًا على سريرى؟؟

وطالت مناجاتى لنفسى - إذا صح أن تسمى هذه مناجاة، ونشفت من البرد، وبدأت أسنانى تصطك، وزاغ بصرى، وطار عقلى، وهممت من يأسى أن أثب من فوق الشرفة وليكن ما يكون، فإن السقوط والموت خير من هذا الهلاك البطىء فانحنيت أنظر، وفى مرجوى أن تكون المسافة قريبة، والأرض طرية لينة، وإذا بى أسمع لغطًا من بعيد، فقلت يا فرج الله! عسى أن يكونوا ناسًا مقبلين، وتهيأت للصياح والنداء، ولم يكذب ظنى فقد كان المقبل الفتاة وزوجتى وبعض الخدم، فصحت:

"هوه، هوه، أنا هنا".

فرفعت زوجتى رأسها وحدقت فقلت: "أنا هنا.. أنا هنا...".

فقالت: "أنت هنا؟ ماذا تصنع هنا؟".

فقلت: "ليس هذا وقت السؤال مريهم يجيئوا بسلم".

فقالت: "سلم؟ ولماذا لا تخرج كما دخلت؟".

قلت: "أوه! إنى محبوس.،، حبسنى المجنون الذى فى الغرفة.، هاتوا السلم.، عجلوا ...، إنى سأموت من البرد".

فتهامسوا بما لم أسمع، فخفت أن يفكروا فى إيقاظ المجنون لإخراجى، فزجرتهم عن ذلك وأصررت على السلم وهددت بإلقاء نفسى من الشرفة إذا لم يستجيبوا لى،

وليس السلم بالشىء الذى يجده المرء تحت عينه حين يبغيه، لذلك مضى وقت طويل جداً كادت تزهق فيه روحى، قبل أن يجيئوا بسلم طويل، ثم صعد عليه خادم، وأعاننى على النزول..

* * *

وفى الصباح كنا نتناول الطعام على الموائد، فإذا برجل ضخم يدخل الحجرة كالقنبلة، ويصيح بالخدم:

"وين الحرامى تبعى؟"

يريد أين لصى؟ وتبعى فى عاميتهم كما فى عاميتنا، فأقبل عليه رب الفندق يسأله:

"أى لص؟".

قال: "اللص الذى حبسته على الشرفة أمس".

فأكد له صاحب الفندق أنه واهم، وأنه لا لص هناك ولا شبهه، وأنه عسى أن يكون قد حلم، فأبى الرجل أن يصدق، وأصر على أن لصًا دخل عليه متسللاً وهو نائم، فأخرجه إلى الشرفة وحبسه فيها، ليرى له فيه رأيًا فى الصباح، فسألناه، لماذا لم يقبض عليه ويسلمه إلى الخدم والشرطة، فقال إنه كان يريد أن ينام! وقد كان أعزل لا مسلحًا كما أوهم اللص، فقرضت أسنانى.

وسألته الفتاة: "هل نمت؟".

فقال: "طبعًا، لماذا لا أنام، وقد حبسته حيث لا يستطيع أن يهرب؟".

فقالت: "يا قلبك!".

ونظرت إلىّ، فضحكنا ما وسعنا أن نضحك.

إبراهيم عبدالقادر المازنى

زوزو[١٥٤]

"هل تستطيع أن تدلني – من فضلك – على طريق الضهور؟".

وكانت الساعة، فيما أظن، التاسعة أو أكثر قليلاً، وكان الظلام دامسًا ولكن الجو كان سجسجًا، وكنت جالسًا على كرسي من الخشب غير وثير، وحولي أشجار (الدلب) العالية تعطر الهواء وتصد عني الرياح إذا هبت، وإلى جانبي – على مائدة صغيرة من خشب غير منجور – (مدق) من البلور فيه (عرق) كثير أصب منه في الكوب وأشعشعه بماء الينبوع، وأكرع، وفي يدي سيجارة، وفي نفسي سكينة، وفي قلبي طمأنينة، وكان صاحب المكان قد تركه لي لأقضي فيه أسبوعًا أنعم بالسكون وخلو البال والوحدة، وكان مبيتي في كوخ خشبي رفعه صاحبه عن الأرض وأعلاه بضعة أمتار على عمد متينة، وأسند إلى بابه سلمًا ثبته بالمسامير والحبال، وكان الطعام يجيئني من البيت كل يوم وقد يجيء معه الأولاد فيقضون معي النهار، ولم يكن الطريق إلى حيث أقمت ممهدًا، وقلّ من كان يسير فيه – راكبًا أو راجلاً – فأدهشني، وأنا جالس أن أسمع في هذه الساعة صوت سيدة، وزاد دهشتي أن اللهجة مصرية، فنهضت واقتربت منها فلم أر في السيارة معها غير كلب أبيض صغير.

فقلت : "ضهور الشوير؟"

قالت : "نعم، فقد ضللت على ما يظهر، فإن طريقها أعرفه ممهدًا جميلاً، وهذا كثير الحفر والتراب".

قلت : "ضللت ولا شك، وبعدت جدًا عن طريقك، مصرية؟ هه؟"

---

(١٥٤) نشرت في مجلة "مجلتي" أول فبراير ١٩٣٥ ، (ص ٤٨٦ – ٤٩١) .

قالت : "نعم، وأنت مصرى مثلى؟".

قلت : "صحيح، من دواعى سرورى، وهذا الكلب؟".

قالت : "روكسى؟".

قلت : "روكسى! أهو مصرى أيضاً؟ مثلك ومثلى؟".

قالت : "إنه جميل، أليس كذلك؟".

قلت : "لا يمكن إلا أن يكون جميلاً".

قالت : "أشكرك".

قلت : "انزلى واستريحى، إنها بقعة يعز نظيرها".

قالت : "ولكن الوقت! أضعته وأنا شاردة..، فأين الطريق؟".

قلت : "هل تأمنين المخاطر إذا دللتك عليه، إنى أخشى عليك كثرة الالتواء والتعريج فى مسالك هذا الجبل، وأنت غريبة ولا عهد لك بهذه الطرق التى تتلوى كالأفعوان".

قالت : "لا تخف علىّ فإنىّ ماهرة".

قلت : "ثقتك بنفسك هى التى تخيفنى عليك، إنه طريق عنيف، حاد الزوايا جداً، وقد تحتاجين - لجهلك بمواضع التعرج والالتواء فيه - أن ترجعى القهقرى، ولا سعة هناك والجبل إلى اليمين والمهواة إلى اليسار...".

قالت : "أصحيح هذا؟".

قلت : "نعم، ولشد ما كنت أتمنى أن أقود لك سيارتك إلى حيث تريدين، ولكنى أعرف وعورة الطريق ولهذا لا أجرؤ على اقتحامه بالليل".

قالت : "ولكن ماذا أصنع إذا لم أذهب؟ كلا، لا بد أن أواصل السير".

قلت : "تقضين الليل هنا - فى الكوخ العالى- وفى الصباح تذهبين إلى حيث تشائين".

قالت : "أين؟ فى هذا المكان الموحش؟ مستحيل".

قلت : "سأكون أنا فى السيارة...".

قالت : "لماذا تتكلم هكذا؟ إن هذا خاطر لم يجر لى فى بال".

قلت : "أنا مصرى، وأنت مصرية، فلا تخافى ولا تستريبى".

قالت : "لقد قلت لك إن هذه الخواطر بعيدة عن ذهنى، فلماذا تلح فيها؟".

قلت : "أرينى إذن شجاعتك وانزلى عاينى الكوخ على الأقل، تمشى إلى الينبوع..، واشربى من مائه البارد..، استنشقى هذا الهواء المعطر...".

فأبت، فألححت، فأصرت على الإباء، فمددت يدى إلى المفتاح وأدرته ونزعته فوقف المحرك فصاحت بى: "كيف تجرؤ؟ إنك...".

قلت : "قوليها...، روكسى، ستسمع الآن ما لا عهد لك به من هذا الفم..، فهل تنوى أن تصدقه".

فوثب روكسى إلىّ، ووقف على صدرى، وأهوى على وجهى بلسانه، وشغلت به عن الفتاة لحظة، ثم سمعتها تقول بلهجة أرق: "لماذا صنعت هذا؟".

قلت : "لأنى لا أريد أن أحمل دمك".

قالت : "ولكنك حذرتنى، وهذا حسبك مبرئًا لذمتك".

قلت : "لقد وجدت الوسيلة إلى منعك فما اكتفائى بالتحذير؟ ستنامين مع روكسى هنا فى الكوخ، وأحرسكما أنا من السيارة.، لا تخافى أن أسرقها! والآن تفضلى لأدخل السيارة بين الشجر وستجدين على هذه المائدة شيئًا من الطعام لك ولروكسى".

فلم تنزل، ولبثت هنيهة تفكر، وأنا واقف على سلم السيارة، ثم رفعت رأسها إلىّ وقالت:

"إنك عنيف، ولكنى أشعر بأن فى وسعى أن أأتمنك على قصتى، ويكفى أنك مصرى مثلى".

ونزلت، وجلست إلى المائدة وحدثتنى بخبرها.

وأوجز فأقول إنها وقفت سيارتها فى طريق (عاليه) وذهبت تتمشى وراءها لتريح قدميها فقد كانت آتية من مكان بعيد، فصعدت فتاة إلى السيارة وشرعت تعبث بما فيها من أدوات القيادة، وكان (ناقل السرعة) مثبتًا فى مكان (السرعة الأولى) لأن الطريق شديد الانحدار، فقلقلته الفتاة بعبثها وأخرجته عن موضعه، فتحركت العجلات، وأخذت السيارة تنحدر، ففزعت الفتاة ووثبت عن سلم السيارة إلى الأرض فوقعت وتدحرجت، فبادرت هى إلى السيارة لتدركها قبل أن تنحرف عن الطريق إلى الهاوية، فلما فعلت نظرت فإذا الفتاة لا تزال ملقاة على الأرض، وكأن لا حراك بها، فحسبتها ميتة، واستولى عليها الذعر فانطلقت بالسيارة مخافة أن تقبض عليها الشرطة، وكلما نزلت قرية توهمت أن الشرطة سيطبقون عليها فتخرج منها على وجهها، وأخيرًا خطر لها أن (ضهور الشوير) تعج بالخلق وأن أمرها يمكن أن يخفى فى زحامها العظيم، ولكنها ضلت.

– "والآن ما العمل؟ إنى هاربة، وهذا الكوخ لا يحمينى، فأشر علىّ".

قلت : "اطمئنى، ودعينى أعالج الأمر".

فمالت على كلبها وقالت له:

"روكسى! إنه سيعالج الأمر هكذا يقول! لا أدرى كيف؟ ربما كان فى وسعه أن يحيى الموتى، لا أعلم، ولكنى أثق به وأصدقه فقد صدقنى يا روكسى".

فتناولت الكلب وقلت له:

"روكسى، اسمع منى، إن لى بيتًا قريبًا من هنا، وفيه زوجتى وأولادى، وفيه أيضًا – أو تحته على الأصح – قبو واسع عليه باب عظيم، فى هذا القبو يا روكسى نخفى السيارة، وفى البيت – مع الزوجة والأولاد – نخفيك ونخفيها عن عيون الشرطة، فما قولك؟".

فأخذت منى الكلب وقالت له:

"أسمعت ما قال يا روكسى؟ إنه متزوج وله أولاد وبيت له قبو! أليس هذا جميلاً؟ ولست أدرى – ولا أنت يا روكسى تدرى – لماذا يترك بيته وأولاده وينام هنا وحده؟ ولكنّا لا نسأله يا روكسى لئلا يظن بنا الفضول...".

فحملت الكلب وقلت له فى أذنه:

"روكسى يا بنى، إنه لا فضول ولا سر هناك، وستحدثك زوجتى عنى وعن جنونى بما فيه الكفاية، وقل لى :هل يعلم أهلها بما حدث؟ وبفرارها! أم لم تعن بأن تخبرهم ولو بالتليفون؟".

فتناولت الكلب وقالت له وخدها على خده:

"آسفة يا روكسى! لقد ضاع عقلى فهمت على وجهى.. كلا، لا يعلم أهلى بشىء، ولا بد أنهم قد جنوا الآن".

فنهضت وأنا أقول:

"لا حيلة الآن، فلنركب إلى البيت، وسأرى هل أستطيع من هناك أن أتصل بهم تليفونيًا، أم نرجئ ذلك مضطرين إلى الصباح حتى ألقاهم".

قالت : "هل تنوى أن تذهب إلى (عاليه)؟".

قلت : "لا مفر من ذلك، وإلا كان سؤال أهلك عنك مؤديًا إلى دلالة الشرطة عليك، والمهم أن يطمئنوا أولاً، فقومى بنا".

* * *

وفى الصباح قلت لروكسى:

"لا أعلم متى أعود يا روكسى، فكن أنت السجان لسيدتك، لا تدعها تخرج فتوسع الناس تقتيلاً، كما فعلت أمس، إنها خطر عام، فالزمها الدار ولا تغفل عنها، فاهم؟".

فأدنت الكلب من صدرها وقالت له:

"كيف تسكت على هذا الطعن على سيدتك يا روكسى؟ انبحه نبحة واحدة وقل له فيها إنه مخطئ، وإنى وديعة مكفوفة الأذى، ألست قد طاوعته؟ وإنى شاكرة ومسرورة!".

فنبحنى الكلب الغادر.

واطمأن أهلها فى (عالية) قبل أن أبرح القرية، وركبت إلى مكان الحادثة وتحريت فإذا الفتاة سليمة لم يصبها سوء إلا من أهلها الذين أوسعوها تأنيبًا على فضولها وحماقتها، فمضيت إلى (عالية) وعرفت القوم بنفسى وقصصت لهم ما حدث، واستأذنتهم فى بقاء (زوزو) - فهذا اسمها الذى يدللونها به - أيامًا معنا، واتفقنا على أن يوافونا بعد ذلك ليعودوا بها، وكانت أختها - سوسو - تريد أن تصحبنى، ولكنى اعتذرت بأنى أريد ألقن (زوزو) درسًا، فقال أبوها:

"افعل فإن بها الحاجة إلى هذا الدرس".

وقد عجبت بعد رحيلى كيف صدقنى الرجل، ولكنهم كانوا كرامًا وفيهم سذاجة عجيبة.

وكان النهار قد ولى لما رجعت، فرأيت "زوزو" مطلة من النافذة ومعها الأطفال؛ فصحت بها "هشش!" وأشرت إليها أن ترتد عن الشباك، وصعدت، فألفيتها ساهمة واجمة، ممتقعة اللون، فقالت لى زوجتى: "ماذا وجدت؟ قل!".

فقلت : "أى استقبال هذا يا امرأة؟! هلا تركتنى حتى أبلع ريقى؟ إنه ناشف فاسقونى شيئًا!".

فقالت زوجتى : "لا تتخابث؛ قل وأوجز! فلن يكلفك الكلام شيئًا! وهل يكف لسانك عن الدوران؟".

قلت : "اسقونى أولاً...، وحياة زوزو!".

وجاءونى بعصير الليمون، وقالت زوجتى وهى تناولنيه - "لا تعذبنا من فضلك - كل شىء أهون من هذا التعليق".

قلت : "ومالك أنت؟ إنها هى التى تتعذب لا أنت، فلتتعذب قليلاً! فقد تعذبت كثيرًا...".

فقالت زوزو : "ومع ذلك لن تخبرني بجديد، لقد قرأت كل شيء في وجهك".

فقلت : "أولاً ينطق وجهي إلا بأخبار الفواجع! والتفت إلى زوجتي "أهذا عهدك به يا امرأة؟".

فقالت زوجتي : "لا تمزح، فليس هذا وقته، ما لنا ولوجهك الآن؟".

قلت : "إنها تزعمه منحوساً، فدافعي عنه، بيضيه!".

فقالت زوزو : "لم أقل إنه...إنه....".

فقلت : "منحوس! قوليها ولا تخافي! إن خوفك كله من الشرطة؟ وليس لوجهي من يحميه".

فقالت : "كلا لا أخاف الشرطة، إنما خوفي كله وجزعي على الفتاة".

قلت : "صحيح؟".

قالت : "بلا شك!".

قلت : "أتقطعين لي عهداً أن تبقي هنا معنا حتى يذهب عنك السوء؟".

فقالت زوجتي : "ستبقى على الحالين... اتفقنا على ذلك؛ فقل".

فنظرت إلى زوزو فأشارت برأسها أن "نعم" فقلت:

"روكسي..، تعال هنا..، هب..، فوق..، فوق..، في حجري..، همم.، لقد رضيت زوزو أن تبقى وتؤنسنا، فهل أخبرها اليقين أتقول إنها تستحق أن تعلم؟ يا لك من مخلص وفيّ لها يا روكسي! ولكنها طائشة، وغليظة القلب يا روكسي! أتقول لا؟؟ ألا تعلم أنها تدوس الناس في الطريق وتتركهم صرعى ولا تبالي ما حل بهم، اسمع يا روكسي! لقد وعدت سيدك أن أعطي سيدتك هذه درساً ولكن قلبي لا يطاوعني لأنه رقيق، ولكن وفاء بالوعد أخبرك أنت وحدك، فهات أذنك! لا، لا، لا، لا تخف أن أعضها، فإن الكلب لا يعض أذن أخيه! زوزو تضحك يا روكسي! عليك أم مني يا ترى؟ دعها تضحك! إنها تحسن الضحك ولا تحسن التعبيس!".

وهنا أشارت زوزو إلى الكلب فوثب إليها فقلت :

"يا ملعون! وبعد أن كدت أحبك!".

وقالت له وهى تلصق خدها بخده:

"ماذا أسر إليك؟ قال إن الفتاة بخير؟ والأمر بسيط؟ أتظن يا روكسى أنه يستحق أن نشكره؟ بعد أن أزهق أرواحنا وأزعجنا بطول صمته وعبوسه المتصنع؟ تقول إنه يكفى أن تشكره أنت؟ بالنيابة عنا؟ ولكنه لا يحبك يا روكسى؟ كلا؟ يحبك؟ لولاى أنا؟ أنا أكيد له عندك؟ وأفسد ما بينك وبينه؟ ولكنه بالطبع، حسن، قم إليه فاشكره!"،

وكأنما فهم كل حرف من كلامها، فقد وثب إلى حجرى ووقف على صدرى وأقبل على وجهى يلحسه وأنا أصرخ مستجيراً، وهى تقول: "هذا شكره..، على طريقته...".

وقالت زوجتى: "إنه لا يستحق أكثر من ذلك".

فقلت لما تخلصت من عناق الكلب: "لا تخافى يا امرأة! فما أطمع فى أكثر من ذلك".

ورميت إلى زوزو نظرة، فضحكتا وحصبتانى بنوى الخوخ فجريت منهزماً إلى تحت، فصاحتا: "إلى أين؟".

قلت - "لا فائدة! سأجيء بالشرطة!".

إبراهيم عبدالقادر المازنى

من ذكريات لبنان:

الحذاء الذهبى[١٥٥]

"استيقظت!"

وكانت قد أغفت، وهى قاعدة على دكة تحت شجرة صنوبر، وذراعها على سور النافورة، ويسراها على حجرها، ثم فركت عينيها فقلت:

"والآن أرجو أن يلهمها الله ألا تغير جلستها، فإنها هكذا أحلى!"

فحطت ساقًا عن ساق، وتناولت حقيبتها الصغيرة وفتحتها ونظرت فى المرآة، ثم أخرجت منديلاً، وجعلت تلمس به وجهها فى مواضع فقلت:

"ولها جيد جميل أيضًا – وأناملها مخضبة..، الآن صرت لا أرى عيبًا فى قول من يقول إن هذا من دم العشاق!"

فابتسمت وقالت – كأنها تحدث نفسها – "ماذا يقول هذا الرجل؟"

فقلت، وأنا أنكث الأرض بعود صغير فى يدى: "إنه يسأل: أتراك زوجته؟"

فزوت ما بين عينيها وقالت: "زوجته؟ زوجة من؟"

قلت: "زوجتى أنا!"

فصاحت: "إيه؟"

(١٥٥) نشرت فى "الرسالة"، فى ٢ ديسمبر ١٩٣٥ (ص١٩٣١ – ١٩٣٢) .

قلت: "زوجتى..، تعرفين الكلمة؟..، يتهجونها منا بالزاى والواو والجيم، وأتهجاها أنا بالحاء والباء و..."

وكانت تنظر إلىّ مبهوتة، ثم ابتسمت وسألتنى:

"هل تعنى أنك لا تستطيع أن تعرف زوجتك حين تراها؟"

فـأهملت السـؤال وقلت، وأنـا أشـيـر بالعـود الذى فى يدى: "إنك هـى..، أو أنت عيناها، وجيدها وساقاها..."

فخيل إليها أنها فهمت وقالت: "أوووه! ألك زمان طويل لم ترها؟"

قلت: "طويل جداً..، ربع ساعة!"

فصدمها هذا فقطبت وقالت: "إنك تسخر منى" ومدت يدها إلى الحقيبة،

فقلت: "لا تعجلى! ألم أقل إنك هكذا أحلى؟ وعلى ذكر ذلك أسألك: كيف يمكن أن تأكلى بهذا الفم الصغير؟"

فقالت: "إنى ذاهبة.، اسمح لى"

قلت: "إنها ذاهبة؟؟ هل سمع أحد بمثل هذا؟ ليت شعرى كيف تستطيع أن تمشى فى مثل هذا الحذاء الدقيق؟ ثم تجئ زوجتى فتوسعنى تأنيبًا!"

وكانت تهم بالقيام، فترددت، ثم سألتنى: "من أنت؟ إنى أريد أن أعرف"

فـقلت، وعينى إلى الأرض: "إنهـا تسـأل؟ بداية حسنـة على كل حـال – خطوة فى الطريق القويم – ومتى رأيت امرأة تعنى بأن تسأل من يكون الرجل، فاعلم بأن الأمل فى..."

فانتفضت قائمة وقالت وهى عابسة: "سأذهب" ولكنها لم تكد تخطو خطوة واحدة حتى صرخت وارتدت فانحطت على الدكة، وانحنت فمدت يديها إلى قدمها اليمنى، فأسرعت إليها أسألها ما الخبر، وكانت قد خلعت الحذاء ودست فيه أصبعين تتحسس بهما، فقالت:

"مسمار! ماذا أصنع؟"

فأخذت الحذاء ونظرت فيه ثم قلت:

"من كان يتصور أن هذا الحذاء الصغير يمكن أن يسكنه مسمار ضخم كهذا؟ والآن هل يمكن أن يكون فى حقيبتك عتلة أو معول أو فأس أو أى شىء أصغر أو أكبر ندق به هذا المسمار الملعون؟"

فقالت وهى تضحك: "لا تمزح من فضلك!"

قلت: "هذا أحسن- نعم يجب أن نضحك إذا لم نستطع أن نفعل ما هو خير من ذلك؟

فقالت: "ولكن ألا تستطيع شيئًا!"

وتلفتت فقلت: "أستطيع أن أضع النعل على وجهى، وأقبض على رأس المسمار بأسنانى، وأشد... هكذا"

فصاحت بى وهى تتلوى من الضحك: "أرجو.، أرجو.."

فقلت: "أعرف ما تريدين بغير حاجة إلى رجاء..، أن أحملك إلى حيث تقصدين"

فغاص الابتسام، واعتدلت فى جلستها وقالت: "أتظن أنى أسمح لك بذلك؟ مستحيل!"

قلت: "ولم لا؟ إنك أخف من الريشة، وفى وسعى - بعد قليل من التدرب - أن أظهر بك على المسرح، وأمشى بك على الحبل، محمولة على أسنانى"

فضحكت ثم قالت: "إنك فظيع!"

قلت: "بالعكس..، إنى لطيف جداً.."

فقاطعتنى ضاحكة وقالت: "دع لطفك الآن..."

- "قبل أن تعترفى به؟ هذا مطلب بعيد!"

- "وقل لى ما العمل؟"

فقلت: "العمل أن تجلسي حيث أنت – وإن كنت سأحرم منظرك الفاتن وأعود أنا إلى "القهوة" ثم أكر إليك بالحذاء في يدى – لا في رجلي – بعد أن نطرد هذا الطفيلي".

* * *

وانحدرت إلى حيث "القهوة" وعثرت مرتين أو ثلاثًا، فآمنت أن العجلة من الشيطان، ولكني مع ذلك، وعلى الرغم مما أصابني، ظلت أعدو كأن ورائي ألف كلب من كلاب الصيد، وحرت بين أشجار القهوة فوقفت أنادى :"يا حاج إلياس! يا حاج إلياس!"

فأقبل عليّ اثنان من أعوانه؛ فأشرت إليهم بالحاح وطلبت شيئًا أخرج به المسمار.

وكانت زوجتي – مع أولادنا – على مقربة مني، وكانت تراني ولا أراها، فقالت : "ما هذا؟"

فدرت حتى واجهتها وقلت، وأنا أمشي إليها: "هذا؟ آه! هذا حذاء جميل...."

فدهشت وسألتني :"من أين جئت به؟ أين وجدته؟"

قلت: "لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم.. صدق الله العظيم.. خذي جربيه! اخلعي هذا..."

وانتزعت حذاءها الأيمن، وذهبت أعدو به.

"ولكن هذا ليس حذائي؟"

قلت: "يا فتاتي المتبطرة.. هو حذاء والسلام.. تستطيعين أن تلبسيه وتمشي به وتقطعي أربعمائة متر، ثم تخلعيه لا شاكرة ولا مشكورة، ثم تلبسي حذاءك الجميل، وتقعدي به كما أنت الآن.. رشيقة أنيقة.. فاتنة الجيد.. ساحرة العينين.. وتروحي تهذري مع زوجتي التي تصب على رأسي الآن أحر اللعنات.. ومن يدري؟ إذا لم تعجلي قبل أن يطغى بها الحنق والسخط، فقد تلقى بحذائك في البركة.. إن النساء

هكذا..، حذاؤك جميل، ولكن كل امرأة تعتقد أن حذاءها هى أجمل وأنفس...، هيا بنا!"

فوقفت وهى تقول: "ولكنى لا أستطيع أمشى به...، واسع.."

قلت: "لا تذمى زوجتى - أعنى قدمها، فإنها جميلة..، ثم إن المشى فى حذاء واسع خير من المشى فى حذاء فى جوفه مسمار..، تعالى الله قبل أن يغرق فى البركة"

فتوقفت وصوبت عينها إلى قدميها وقالت: "ولكنه فضى وحذائى ذهبى؟"

قلت: "قوس قزح..، تعالى..، أترانا فى معرض أزياء هنا؟ نحن فى هذه الجنة المغروسة على جبال "الشوير" ولا أحد معنا ولا ثالث لنا إلا..، إلا الهوى..، كآدم وحواء..، وعلى ذكر ذلك أظن أن حواء كانت تلف ذراعها بذراع آدم إذ يسيران فى الجنة".

* * *

وقالت زوجتى ونحن مقبلان عليها: "لم أر مثلك أبدًا فى الدنيا!"

قلت: "صدقت يا امرأة! وأين تجدين فى هذه الدنيا نظيرى"

قالت محتجة: "تخطف حذائى وترمى لى هذا الـ..."

وأشارت بازدراء إلى حذاء الفتاة، وكان ملقى على الأرض

فقلت: هس! عن اللص معى، أعنى المسئولة عن الجريمة والمحرضة على ارتكابها"

فصاحت الفتاة وضربت بكفها على صدرها: "أنا؟"

ونظرت زوجتى إلى قدمى الفتاة ثم نهضت وأقبلت عليها وقالت، وهى تمد إليها يديها:

"أوه! لم أكن أعرف؟ ولكن كيف استطعت أن تمشى فيه؟ إنه واسع..، ورجلك أصغر..، وأجمل أيضًا!"

فالتفت إلى الفتاة وقلت: "أتسمعين يا هذه؟ إنها تقر لرجلك بالمزية! وجيدها؟ أليس ساحراً يا امرأة؟ ألست معذوراً إذا اشتهيت أن آكله؟ وعيناها؟ وهذا الفم العجيب الذى لا أدرى كيف يتسع للكلام، وإن كان قد اتسع جداً لذم حذائك يا امرأة!"

فريعت الفتاة وصاحت: "أنا ذممته؟ حرام عليك!"

فقلت: "نعم.. جداً.. قلت إنه واسع عظيم، وإنه ذكرك بالباخرة تايتانك، وإنه يسع جيشاً عرمرما من الأقدام الكبيرة الغليظة، وإنه..،

وكانت زوجتى تضحك، أما الفتاة فقد خيل إلى أنها ستسقط على الأرض،

وقالت زوجتى: "فظيع! ألا تقفل هذه البوابة! لا تعبأى به يا حبيبتى ولا تلتفتى إليه.. إنه هكذا دائماً..والآن خذى هذا المسمار واحتفظى به للذكرى"

فقلت: "وأنا؟ ما أجرى على التعب؟ لقد قطعت كيلو متراً فى الذهاب والإياب – قطعته عدواً.. وهذه الأحذية على راحتى الطاهرة..."

فقالت زوجتى: "جزاؤك أن تقعد مع الأولاد، ونذهب نحن نتمشى..."

قلت: "هذا جزاء سنمار.. لا بأس! مجنون من يصنع معروفاً فى بنت من بنات حواء..."

فقالت زوجتى: "هذا رأيك؟ إذن لن أدعوها إلى العشاء معنا!"

فصحت: "لا لا لا .. إنما أعنى بنتاً من بنات آدم"

فضحكت الفتاة، ورمتنى زوجتى بفستقة....

إبراهيم عبدالقادر المازنى

من ذكريات لبنان :
عين النعص[١٥٦]

آمنت – وأنا فى لبنان – بأن الجهام من السحاب أكثر من الرايق، وأن المطر أكثر من الصواعق، وأن الصواعق أكثر من الذين تصيبهم فتصرعهم، ولم أكن أعرف هذه الحقائق – أو بعبارة أدق لم أكن أجعل بالى إليها أو أعنى بتدبرها – قبل أن أصعد فى الجبل الذى تتفجر من قمته "عين النعص"، وكنت أسمع بها، وأستسقى منها، ويجيئنى السقاء – يومًا بعد يوم – بملء فنطاس من مائها، فقد قالوا لى إنه نافع للكليتين وإنه يفتت الحصى الذى يكون فيهما، ثم أردت أن أرى هذه العين المباركة فصدونى عنها إشفاقًا علىّ من جهد التوقل، فإن الطريق إليها وعر، والجبل الذى يخرج منه شامخ باذخ، وقنته دقيقة، منتصبة، سوداء، ومشرفة من إحدى الجهات على الهواء، فأقصرت وأنا أقول لنفسى "ما أكثر ما يتمنى المرء ولا يدرك، ولو أحصى الإنسان كل ما تعذر عليه مما اشتهى أن يرى أو يجرب أو يفعل، لهاله قلة ما بلغ وقضى من أوطاره، وكثرة ما حرم على فرط الإغراق فى الطلب أو التمنى أو الاشتهاء" وجعلت وكدى أن أصرف نفسى عن هذه "العين" وأن أقنع منها بما يحمله إلىّ الرجل من مائها الشافى، ولكن القطرة من ماء البحر ليست بالبحر، والذرة من الرمل ليست بالصحراء لذلك ظلت نفسى تزين لى هذه المخاطرة، حتى وفد علينا لفيف من الأصدقاء، فما كادوا يقضون فى "بكيفا" ليلة حتى صبحتهم باقتراح أن نصعد فى الجبل إلى "عين النعص" وجعلت أشوقهم إلى رؤيتها وأغريهم بالسعى إليها وأصفها

(١٥٦) نشرت فى مجلة "شهر زاد" فى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٥ (ص٤ – ٦) .

لهم كأنما كنت ملأت ناظرى من حسنها، أو كأنما هى عين فتاة هيفاء لا عين ماء! حتى وافقوا، وعاهدونى أن نمضى إليها فى فجر اليوم التالى فانصرفت راضيًا مغتبطًا، ولكن فى نفسى هواجس ووساوس، غير أنى قلت لنفسى:

"اسمع يا مازنى؛ إن الكثرة تغلب الشجاعة، وأصدق من ذلك أن الجبان تشجعه وتقوى قلبه كثرة الناس حوله، وهؤلاء أربعة أشداء أقوياء مفتولو العضلات، فليكن الطريق كما قيل لك، مضنيًا، فإن فى وسع هؤلاء الأربعة - إذا تعبت - أن يحملوك كما تحمل أنت الحقيبة الصغيرة، فإنك خفيف لا تملأ أرضًا ولا تسد فضاء، ثم ما هذا التهويل عليك بمشقة السير؟؟ إنك تمشى كل يوم بضعة فراسخ تقطعها صاعدًا طورًا، وهابطًا طورًا آخر، فماذا يخيفك من طريق "النعص"؟ وعلى أن على مقربة من "العين" فندقًا وفيه ناس مثلك، فلماذا يسع هؤلاء أن يصعدوا إليه كل يوم، ويعجزك أنت مثل ذلك مرة واحدة لا تتكرر ولا تتعدد؟"

وخرجنا فى صباح اليوم التالى - لا فى الفجر كما كنا قد اتفقنا، بل فى الساعة الرابعة، أى بعد أن علت الشمس - ولم يكن معنا شىء نحمله، حتى ولا عصا، فشرعنا نصعد ونحن نضحك، وندور مع الجبل - أعنى على جانبه - وكانوا يتسابقون أحيانًا فأدعهم وما آثروا، وأمشى أنا على مهل ادخارًا لقوتى وضنًا بها أن أبددها وأفنيها فى طريق أعرف أوله ولا أعرف آخره، فأنا أجهل ما يتطلبه قطعه كله من جهد.

وفرغنا من الطريق الممهد، ودخلنا فى أرض معشوشبة، بعضها نباته ناجم ورءوسه أمثال المسال وأكثرها زرعه ناهض مستو على سوقه ومنتشر، ولا طريق هناك فيما ترى العين، وكل ما يستطيع أن يهتدى به الإنسان، أرادب من الصاج وبرابخ من الآجر، تبدو حينًا وتحتجب أحيانًا وراء الزروع، ولكن الذى يظهر منها كاف للدلالة على الاتجاه الذى ينبغى السير فيه، لأنها ممتدة إلى العين ولا شك.

ولم نكن نمشى جماعة، بل متفرقين منتشرين، وحدث أن أحدنا اختفى فجأة - بلعته الأرض - فجزعنا وخفنا أن يكون قد سقط فى هاوية أوغار فى فجوة عميقة، فذهبنا نصيح به ونناديه، وإذا به يبرز لنا شيئًا فشيئًا من بين الزروع، فسألناه عن

سر هذا الغوص فى اليابسة، فقال إن الزرع يحجب الأرض وقد ظننها كلها مستوية، وإذا به يهبط فى حفرة، فجعلنا بعد ذلك ننظر إلى الأرض.

والتقينا ونحن سائرون بفتاة تحمل جرتين، فاستوقفناها وسألناها أن تسقينا، ولم يكن بنا ظمأ، ولكنها كانت غضى السن، ساحرة العينين واسعتهما جداً، وأنا حين أقول "ساحرة" لا أعنى ما يفهم الناس عادة من هذا اللفظ، أى جميلة أو فاتنة أو غير ذلك ما يجرى هذا المجرى، وإنما أعنى أن فيهما "سحراً" غريباً بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ، فقد كانت تنظر إلينا ونحن نجاذبها أطراف الحديث، فلا يقوى الذى يكلمها، على التحديق فى عينها، فيغض طرفه، ويروح يتلفت كالمضطرب، ويلوح بيديه، ويحرك رجليه، وكنت واقفاً أسمع وأرى ولا أتكلم، وأعجب لهذه القوة التى فى نظرتها وكانت ربما التفتت إلىّ فترى عينى عليها، فترامقنى قليلاً، فلولا أن أصحابى كانوا يشغلونها بالكلام لكان الأرجح ألا تحول عينها عنى قبل أن أنهزم أو أنام.

وسمعتها تسألهم، وأنا كالذاهل، إلى أين، فقلت بصوت عال إنى أنوى، بعد أن أرى عين النعص، أن أصعد إلى قمة الجبل، فزوت ما بين عينيها وهزت رأسها وقالت:

"لا تفعل"

قلت: "لم لا؟"

فهزت كتفيها وأطرقت قليلاً ثم قالت: إن عليها أن تمضى بهاتين الجرتين ولولا ذلك لصحبتنا، على أنها – إذا لم يشغلها شاغل – ستلحق بنا.

وانحنت تريد أن ترفع الجرتين، فأخرجت قروشاً وضعتها فى يدها وأنا أقول: "هذا لسحر عينيك – إلى الملتقى".

* * *

قضينا ساعة فى فندق "النعص" كانت من أهنأ وأمتع ما مر بنا فى حياتنا، وكانت السحب تمر تحتنا وتحجب عنا ما على الجبل من القرى، فكان يخيل إلينا

أحيانًا أنا نشرف من كوكب آخر على الأرض، فلولا أن أمامنا أقداح "العرق" نعب فيها ونكرع منها لتوهمنا أنا من الملائكة، وأنا فى السماء الثالثة أو الرابعة، ولا نطلقنا نسبح بحمد الله ونثنى على آلائه.

ثم قمنا نزور العين ونشرب من مائها حيث ينبع، ولكنا لم نر الموضع الذى يخرج منه الماء لأنه مسور وعليه بناء كبير، ومال إخوانى على المجرى وجعلوا يغترفون منه ويترشفون، فقلت لنفسى هذه فرصتى، وتسللت، ودرت حول البناء وانطلقت أصعد إلى القمة، كما يفعل القرود، أعنى على يدى ورجلى، حتى انتهيت إلى صخرة كبيرة ضخمة على هيئة المحارة، تشرف على الهواء ويخيل إلى الإنسان أنها تريد أن تنقض وتنطبق عليه، ويضاعف هذا الشعور المزعج إن الشقوق فيها كثيرة وواسعة جداً، حتى ليستطيع المرء أن يدخل فيها ويمشى، وأدرت عينى فلم تأخذ لا ماءً ولا نباتًا، وصعدت طرفى إلى الصخرة المشرفة المشققة فعرتنى رعدة، ومن يدرى ماذا فى هذه الشقوق المظلمة الرهيبة؟ وصوبت لحظى على الأرض فوقعت عينى على ما توهمته عوداً يابساً ذاوياً، فانحنيت وتناولته وأنا أعجب من أين يجيئ هذا العود، وماذا أطاره إلى فوق ورماه هنا؟ وزاد عجبى أنه لم يكن عوداً وإنما كان حبلا دقيقًا كالح اللون شبيهًا بما يضفر عليه الفلاحات شعورهن، فابتسمت وقلت وأنا أهز رأسى وأين هى المرأة التى تجازف بالصعود إلى هذه القمة المفزعة؟

واشتهيت أن أنظر فى هذه الشقوق العظيمة، فخطوت على أحدها ووقفت أحدق فى ظلامها الدامس فلم أر شيئًا، فهممت بالرجوع، وإذا بعينين لامعتين تومضان فى سواد الظلمة كأنهما ماستان، فوقفت كأنما سمرت إلى الأرض، وزحفت إلىّ الماستين وأخذتا تدنوان، وأنا أنظر إليهما ولا أستطيع أن أحول عينى عنهما كأنما ضربتانى بسحرهما، ثم بدأت العينان ترتفعان عن الأرض وتعلوان وأنا ذاهل مضطرب لا أتحرك، ولا أقدر أن أغمض عينى أو أرفعهما أو أخفضهما أو أحولهما، وشعرت بمثل الخدر فى أعضائى، كأنما تنيمنى هاتان العينان المقبلتان علىّ بنظرتهما الزجاجية، أو كأنما ألقيا علىّ (بنجًا) طبيعيًا، وأيقنت أنى هالك لا محالة، وأنه ليس بينى وبين الموت

المحتوم إلا أن تغرز الحية أسنانها المترعة بالسم القاتل فيما تشاء من بدنى، ولعل الذى بقى لى من العمر ثانية أو بعض ثانية، ثم يمحى وجودى، وطافت برأسى صور زوجتى وأولادى الذين تركتهم يلعبون على الشرفة تحت عين أمهم فجزعت فلولا السحر الذى أفرغته الحية من عينيها فى عينى لبكيت أو سقطت على الأرض مغشيًا علىّ أو ارتددت أعدو إليهم، ولكنى كنت كأنى حجر منصوب أو تمثال مرفوع لا أملك إلا أن أحملق فى هاتين الماستين المرعبتين.

ثم خيل إلىّ أن نظرة الحية فقدت قسوتها وإرعابها وفتر السحر الغريب الذى فيها، وبدا لى أن العينين انطفأت لمعتهما المفزعة وأخذتا ترتدان راجعتين فى الظلام الذى خرجنا منه، فزايلنى الجمود الذى أصابنى والذى كنت منه كأنى مصبوب فى قالب، وعاودنى الشعور بنفسى وبما حولى وبإمكان الحركة، فأحسست نفسًا على أذنى، فأدرت وجهى فإذا بالفتاة التى لقيناها فى الصباح ونحن نصعد فى الجبل، تحدق فى عينى الحية وتطردها عنى بأقوى من نظرتها وأسحر!

وبتت الفتاة على كتفى، وأدارتنى، وتناولت ذراعى، وعادت بى إلى مجرى الماء فمسحت على وجهى بقطرات وقالت وهى تبتسم:

"ألم أنهك أن تخاطر بالصعود إلى هناك؟"

فلم أجبها بشىء، لأن عقلى كان "هناك" ولم يكن قد ارتد معى، وسمعت إخوانى ينادوننى، فلم أجب أيضًا، فقالت:

"اذهب إليهم، ولا تزعجهم – واحمد الله!"

فانحلت عقدة لسانى، وحمدت الله على النجاة والتفت إلى الفتاة فقبلتها شاكرًا وانطلقت أعدو.

إبراهيم عبدالقادر المازني

من ذكريات لبنان

بعد نهار جميل

"والآن ماذا ينبغى أن نأخذ معنا؟ – حاذروا أن تنسوا شيئًا"

قالت زوجتى: "لا تنسوا الكميرا..، فسنحتاج إليها ولا شك"

وقالت فكتورين – جارتنا –: "الأفلام..، ما فائدة الكميرا بلا أفلام؟"

قلت: "صدقت.، وماذا أيضًا؟"

فقالت زوجتى: "والصابون!"

وقالت فكتورين: "ورق اللعب.، أليس كذلك؟"

فقلت: "والأطباق والملاعق والفوط والسكاكين!! إن من يسمعكما يخيل إليه أننا ذاهبون إلى بعض مجاهل الدنيا"

فقالت زوجتى: "الحق أقول لكم إنى أخشى علينا..، إن هذه الجبال لا عهد لنا بها وسنعود بالليل..، وقد كنت أفضل أن يقود السيارة رجل يعرف الطرق.، رجل من أهل البلاد"

قلت: "الحق معك.، فإنى أخشى الثلج على الجبال"

فصاحت زوجتى: "ثلج؟؟ هل قلت الثلج؟"

قلت: "نعم..، جبال من الجليد.، وسنحتاج أن نربط السيارتين معًا بحبل واحد.، فإذا سقطت إحداهما فى الهاوية جرت الأخرى معها..، ألا تكفون عن التخريف؟"

فكفوا..، وقمنا إلى مضاجعنا استعداداً للسير فى بكرة الصباح.

* * *

وكنا ثمانية فى سيارتين: زوجتى وأولادى وأنا فى سيارتنا، وجيراننا فى سيارتهم، فانطلقنا منحدرين فى الطريق إلى بيروت وهو طريق وعر كثير التعرج والتلوى، ولكنه أملس كبطن الكف، غير أنه مخيف - يقوم الجبل على جانب منه، والوادى تحته من الجانب الآخر، ولا ترى منه وأنت تقطعه إلا القليل لأن تلويه حول الجبل وانثناءه كالحبل أو كالحية يخفيانه، وكان الضباب فى أول الأمر يمنعنا أن نسرع، ولكن الشمس بددته فانكشفت الدنيا لعيوننا فنعمنا بجمال الوادى الأخضر، وجلال الجبل الشامخ، وقد قام الشجر الثمير على صفحه بين كتل الصخور، واختلطت فيه بهجة النور وزهرته بنضارة الخضرة، وليس أوقع فى النفس من السير فى طريق تشرف عليه الجبال وتغيب قنتها فى السحاب فكأنها عروش للطبيعة!!!

وظللنا ننحدر وندور حول جبل بعد جبل، ونمرق من القرى والضياع واحدة بعد واحدة، وما هو إلا أن نلف مع الطريق حتى تختفى فجأة، ثم إذا هى بعد لفة أخرى تبدو لنا منازلها منتثرة وبعضها فوق بعض؛ ثم ندور مرة أخرى فنحتجب ونحن لا نكف عن الانحدار ولا نزال نهبط حتى استوى الطريق واستقام، فعلمنا أننا دنوانا من بيروت، ولم تكن هى غايتنا فملنا عن طريقها وأخذنا فى طريق "عالية" ثم شعرت أن السيارة صهدت جداً حتى صارت سخونتها لا تطاق؛ فعجبت، وخفت ووقفت، فسألتنى زوجتى عن الخبر، فقلت:

"إن السيارة ساخنة جداً، ولا أعرف لهذا من سبب إلا أن تكون أنابيب الماء قد ثقبت، فهو يسيل منها ولا يبقى فيها".

وكنا لحسن الحظ فى مدخل إحدى القرى فلم نجد عناء فى الحصول على ماء صببناه فيها، وملأنا زجاجتين استعرناهما من بعض القوم، وبعد ذلك صرنا نضطر أن نقف من حين إلى حين لنصب الماء فى السيارة ولم يكن ما حملنا منه كافياً فكنا

كلما بلغنا قرية نأخذ منها حاجتنا ونحتفظ بما فى الزجاجتين للطريق بين القرى حتى بلغنا "الشاغور" وكان جيراننا قد سبقونا إليه.

وقفت بالسيارة وراء زميلتها وفتحت بابها فشدت زوجتى ذراعى وصاحت بى: "انظر... انظر..."

فنظرت إلى حيث تشير، فرأيت صبيًا غريب الثياب، يلبس سروالاً - أو شروالاً كما يسمونه أحيانًا فى مصر - وقد لف على خصره - إذا جاز أن يسمى هذا خصراً - حزامًا أحمراً غليظًا، ومن فوق ذلك - أو من تحته إذا شئت - صدرية من الحرير المخطط تجمع طرفيها سلسلة من الأزرار تنتهى عند العنق، وعلى رأسه لفة كبيرة، وفى كلتا يديه تفاحة عظيمة يهوى عليها بأسنانه.

وقالت زوجتى: "أين الكميرا؟ دعه يقف حتى أصوره!"

فدنوت من الصبى وأنا أقول لنفسى: "أصيب عصفورين بحجر: أستوقفه حتى ترسمه زوجتى، وأكل إليه حراسة السيارة، ولكن الغلام رآنى مقبلاً عليه، فجعل يتراجع، وعينه علىّ، وأسنانه تعمل فى التفاحة، ولم يكن ثم شك فى أن الصبى الأحمق يخشى أن أخطف التفاحة منه، فهو لهذا يدبر كلما أقبلت، وكنت أطمئنه وأؤكد له أنى لا أريد به سوءاً وأن فى وسعه أن يأكل تفاحته على مهل، ولكن هذا كان يزيده خوفًا، فقد أسرع فى القصم وصار فيما أرى يزدرد ولا يمضغ، ولا أدرى لماذا ألححت فى دعوته أن يقف ويتمهل فقد كان هناك غيره ولم يكن ثم ما يدعو إلى الخوف على السيارة، ولكن الذى أدريه أنه فرغ من التفاحة ورمى وجهى بما بقى منها فأصاب أنفى ولما أفقت، التفت إلى زوجتى، وقلت:

"هذه جنايتك... وقد كان أنفك أولى، ولكن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون" فضحكت.

وكان جيراننا قد خفوا إلى "مكان الحادثة" وعرفوا ما كان فانطلقوا يقهقهون معها، وقالت زوجتى:

"لقد استطعت أن ألقط صورتك حين وقعت التفاحة على أنفك"

قلت: "ستكون الصورة ذكرى جميلة.، أليس كذلك؟ وهذا جزاء الأحمق الذى يتزوج..، يجئ بامرأة فيطعمها، ويكسوها، ويبرها ويسرها ويعانى من أجلها وفى سبيلها المتاعب والمنغصات، وتضحك منه حين ينبغى أن تعكف عليه وتألم له".

فلم تعبأ بى، ومضت عنى مع الجيران، وهى تضحك.

* * *

ونعمنا بيوم جميل فى الشاغور، ولم يكن أقل ما سرنا نومنا على العشب، والماء إلى جانبنا يخرج من بين الصخور دافقًا راغيًا يتحدر من صخرة إلى صخرة كالشلال، وانقضى النهار، وآن أن نعود من حيث جئنا، وكانت السيارة قد أصلحت فى خلال ذلك، فركبنا وانطلقنا راجعين.

وقلت لزوجتى وقد بلغنا البيت: "هاتى المفتاح!"

قالت: "أى مفتاح؟ إنه معك...، لقد كنت أنت الذى أغلقت الباب، وأظنك وضعت المفتاح فى جيب البنطلون".

وكان مفتاحًا كبيرًا عتيقًا لا يعقل إلا أشعر به إذا كان فى جيبى، ومع ذلك بحثت، وأخرجت الجيوب ونفضتها أمامها، وأوسعت السيارة بحثًا عسى أن يكون قد سقط منى فيها، فلم أجد له أثرًا، فقلت وقد تعبت:

"أسوأ ختام لخير نهار...، لا بأس...، والآن لم يبق إلا أن نجئ بخيمة نقيمها هنا، أو أن يضيفنا الجيران وإن كان بيتهم لا يكاد يسعهم، أو أن ندخل البيت من النافذة.، ولم لا؟ صحيح أنها مغلقة.، ولكن ما قيمة هذا.، نفلق خشبها بالفأس، ونحطم زجاجها..، وكل ما ينقصنا ليتيسر ذلك....، سلم طوله ستة أمتار على الأقل..، وفأس..، الأمر سهل جدًا كما ترين.، أم خير من ذلك أن أحملك على أسنانى وأنفخك على

النافذة، فإنك خفيفة كغلالة الورد..، ولكنى أخشى أن تطيرى إلى بيت آخر!"

فقرصتنى قرصًا وجيعًا ولم أكن أتوقع ذلك فصرخت من الألم.

ولما قرت الضجة، قالت: "ألا يوجد فى هذه البلدة نجار؟"

فاستحسنت الرأى، وأشرت عليها بالصعود مع الجيران إلى بيتهم حتى أجد نجارًا، وكنت أظن أن الأمر لا يكلفنى إلا سؤالاً ألقيه إلى واحد من أهل البلدة فإذا النجار حاضر بقدرة ربك، ولكنى مشيت بضعة أمتار - لا أقل من خمسة - وأنا أدور وألف، وضيعت أكثر من ثلاث ساعات قبل أن أجد النجار، ولما وجدته أخبرنى أنه ليس عنده شىء يستطيع أن يفتح به الأقفال، واستمهلنى ريثما يبحث..، واستغرق ذلك ساعتين أخريين، فلم ندخل بيتنا إلا بعد منتصف الليل!

ولا أزال أحاول أن أحتفظ بذكرى ذلك النهار - على الرغم من التفاحة التى بططت أنفى - وأن أنسى عناء تلك الليلة ولكن الذكرتين فى قرن، وكل منهما تثير الأخرى، فما العمل؟؟

إبراهيم عبدالقادر المازنى

سوء تفاهم[١٥٧]

كانت الساعة العاشرة حين خرجت السيارتان إلى الطريق العام - أو صعدتا إليه إذا أردت الدقة فإن الأرض هناك، فى لبنان، قلما تكون مستوية - وكنت أقود إحداهما ومعى فيها زوجتى وأبنائى، وفى الثانية أقارب لنا يقضون الصيف فى "ضهور الشوير" وقد مروا بنا فى بكفيا - حيث كنا نقضى الصيف - ليرافقونا إلى "الشاغور" حيث دعينا إلى الغداء عند أسرة صديقة لنا من يافا، وتوكلنا على الله وأخذنا الطريق إلى بيروت وكله من بكفيا انحداراً وبعضه أوعر من بعض، ولكنى كنت قد ألفته وزايلنى الخوف من التواءاته وتعاريجه الحادة التى يثب عندها القلب إلى الحلق، وكان اليوم مشرقًا والمناظر على الجانبين مما ترتاح العين إليه وينشرح الصدر له، والطريق أحسن ما يكون نعومة وملاسة وإن كان مما يدير الرأس أحيانًا أن يصوب المرء عينه من الجبل الأخضر من ناحية إلى الوادى العميق من الناحية الأخرى؛ وكان لا بد من العناية والحذر فى السير لشدة الانحدار وكثرة المنعرجات وازدحام الطريق بالصاعدين والنازلين فيه بالسيارات الخفيفة والثقيلة والضخمة والصغيرة، فكان البطء الذى اضطرنا إليه الحذار من أسباب المتعة، فاستطعنا أن نتملى بالمناظر التى حولنا وأن نتحدث كما نشاء ونجنب الصمت الذى تدعو إليه السرعة والذى لا يكون إلا ثقيلاً على المسافرين.

واحتجنا أن نتزود من "البنزين" ولم يكن معنا إلا ورق مصرى، فقالت زوجتى وأنا أناول الرجل ورقة مصرية بجنيه وآخذ الباقى: "ماذا أعطاك؟".

---

(١٥٧) نشرت فى "الرسالة"، ٢١ ديسمبر ١٩٣٦ ، (ص ٢٠٦٦ - ٢٠٦٨).

ففتحت لها كفى على ما فيه فأخذته وعدته، ثم سألتنى: "كم أعطوك؟..، إنى لا أفهم!".

قلت: "الجنيه المصرى يساوى ٣٩٤ قرشًا سوريًا، وقد أخذوا حقهم وأعطونى حقى وهو معك".

فقالت زوجتى والتفتت لأقاربنا: "لست أفهم..، لقد كان الجنيه يساوى ٣٩٧ قرشًا".

فقلت: "ولكن الفرنك ارتفع وارتفعت تبعًا له العملة السورية".

فقالت مستغربة: "ولكن لماذا أهملت أن تستبدل النقود المصرية قبل أن يهبط".

قلت وأنا أبتسم: "إنه لم يهبط بل ارتفع".

فقالت وهى تخلط: "كيف يكون ارتفع وهو قد هبط..، ألسنا نأخذ أقل".

فقالت قريبتنا: "تمام..، ٣٩٤ أقل من ٣٧٩".

فقلت: "دعينى أشرح لك الأمر..، تصورى أن الفرنكات التى فى الدنيا كلها انقلبت تفاحًا"،

فقالت زوجتى: "نعم".

قلت: "وتذهبين إلى السوق وتجدين التفاح كثيرًا فتشترين الأقة بخمسة قروش".

قالت: "نعم".

قلت: "وفى أثناء الليل يرتفع التفاح".

فقالت قريبتنا: "كيف يرتفع".

قلت: "يقل..، هه، يتعفن..، يسرق..، تصيبه آفة..، يقل والسلام؛ فإذا ذهبت تشترين أخذت بالقروش الخمسة أقل من أقة".

فقالت قريبتنا: "يعنى أنه يهبط".

قلت: "يصعد".

قالت: "كيف يصعد وهو أقل؟".

فقال زوجها: "اسمعى،، أنا أفهمك المسألة،، تعرفين مقياس الحرارة".

قالت: "بالطبع،، ماله؟".

قال: "لا شيء،،، تنظرين إليه يومًا فتجدين أن الرقم الذى يشير إليه ثلاثون؟"،

قالت: "نعم".

قال: "وفى اليوم الثانى تنظرين إليه فإذا الرقم قد صار ٢٨،، ومعنى هذا أنها هبطت"،

قالت: "نعم".

قال: "أما الفرنك فإن المعنى يكون العكس".

قالت: "نعم".

قال: "هذا كل ما هنالك".

فنظرت إليه كالمذهولة وكنا نحن نضحك؛ فقالت زوجتى وهى تجرها: "اسمعى،، إنهم يضحكون منا ويخيل إلىّ أن أسلم طريقة أن تقول إن الفرنك صعد كلما فهمنا أنه هبط".

واستأنفنا السير وكنا قد ملنا عن طريق بيروت إلى طريق (عاليه) وفرغنا من الانحدار وبدأ الصعود والطريق فى هذا الجبل أوسع وأرحب والتواؤه أقل حدة، فأطلقنا للسيارتين العنان، ولم تمنع السرعة زوجتى أن تتكلم فقالت: "إنى أشعر أننا لن نجد زينب".

تعنى الصديقة التى دعتنا إلى الغداء، ففزعت وكادت عجلة القيادة تضطرب فى يدى وقلت لها بصوت تشى لهجته بالقلق: "لماذا؟".

فلم تجب بل سألتنى: "ماذا قلت لها بالتليفون،، بالضبط؟".

قلت: "قلنا كلامًا كثيرًا،، وألححت عليها أن تجيء لتتغذى معنا فى بكفيا ولكنها أصرت إصرارًا شديدًا على أن نذهب إلى الشاغور، وأذكر تمامًا وبغاية الوضوح أنها وصفت لى عين الماء التى هناك".

فأشارت إليّ بكفها أن اسكت وقالت: "ماذا قلت لها بالضبط، هذا ما أريد أن أعرفه فلا تغرقه في طوفان من الوصف الذي لا يفيد شيئًا..وإذا كنت تريد أن تصف الشاغور فانتظر حتى تراه".

قلت: "ماذا قلت بالضبط..؟ يا له من سؤال.، اتفقنا على اليوم.، وأؤكد لك أني لم أترك عندها أي شك فيه.، صرخت حتى بح صوتي.، قلته بالعربية.، وقلته بالفرنسية Samedi" .

فصاحت زوجتي: "Samedi؟".

قلت: "بأعلى من هذا الصوت".

قالت: "هل قلت ..Samedi هذا معناه السبت لا الأحد".

فتداركت الخطأ وقلت وأنا مضطرب: "لا لا لا لا بل قلت Dimanche" .

وجرى ببالي أني لا أزال أغلط في أسماء الأيام باللغة الفرنسية ولكني كافحت هذا الخاطر حتى نفيته وطردته وقلت لها: "وهبيني أخطأت قد قلت لها بالإنجليزية Sunday ولا يمكن أن أغلط في هذا".

قالت: "سنرى".

فقلت وأنا محنق: "سنرى.، ألا يمكن أن أتكلم بالتليفون من غير أن تتهميني بالتخليط.، هل هذا التليفون معجز..؟ سبحان الله العظيم!".

قالت: "طيب اسكت بقى".

* * *

فسكت، ووصلنا الشاغور ودخلنا الفندق وسألنا عن السيدة وزوجها فقيل لنا إنها خرجت معه في الصباح الباكر وإنهما قالا إنهما سيرجعان بعد المغرب؛ فنظرت إليّ زوجتي نظرة ذات معنى، ولم تكفها النظرة بل راحت تقص الحكاية على أقاربنا بأسلوب وكلام لا يدعان أي شك في أني حمار من أطول الحمير آذانًا وأنا ساكت، لأن

كل شيء كان يثبت أنها هى الصادقة وأنا الكاذب أو على الأقل المخطئ، ولا أحتاج أن أقول إنى اضطررت أن أطعم كل هذا الجيش على حسابى، ولكن اليوم كان على الرغم من هذه الخسارة الفادحة ممتعًا وكان أحلى ما فيه أننا نمنا على الأرض بعد الغداء الباهظ التكاليف بجانب الماء الذى يتدفق كالشلال من العين وهو يرغى ويزبد ثم يتحدر فى أقنية ضيقة محفورة له تتخلل الحديقة الواسعة.

ولما آن أن نعود تركت هذه الرقعة لصديقنا وزوجته:

"لا شك أن النسيان أرخص، ولكنه كلفنى ما أخشى أن أحسبه، فقد جئنا إليكما من غير أن نفطر فنجوتما أنتما ووقعت أنا فى الفخ؛ وصدق مرة أخرى أن من حفر بئرًا لأخيه وقع فيها، على أن هذا هين وإنما الذى يضيق صدرى به ولا أكاد أقوى على احتماله أن زوجتى تحملنى التبعة عن هربكم، وإذا كنت لا أطمع فى أن تردوا إلىّ ما أنفقته على إشباع هذه البطون الجائعة كلها، فإنى أطمع أن تردوا ثقة الزوجة بى وذلك بأن تعترفوا بأنكم هربتم".

* * *

ولم نكد نبلغ بيتنا حتى وقفت الصانعة – كما يسمون الخادمة فى لبنان – وقالت لنا: إن السيدة زينب وزوجها كانا هنا ودفعت إلىّ ورقة فيها هذه العبارة الوجيزة:

"لا بأس! لعلكم نسيتم، والآن يجب أن تجيئوا أنتم إلينا، ولن نهرب منكم كما هربتم منا".

قرأتها وهممت أن أدسها فى جيبى ولكن زوجتى سألتنى ماذا فيها؟ فقلت إنهما يعترفان بخطئهما، ودفعت إليها الرقعة وذهبت أعدو، وكيف أقنعها بأن الذى وقع خطأ غير مقصود.، كلا، لا فائدة، والهرب أحجى وأرشد..، حتى تهدأ الفورة.

إبراهيم عبدالقادر المازنى

المراجعة اللغوية : هبة الله المخلص

الإشراف الفني : ماجدة ضياء

يجمع المازنى فى هذه الرحلات الأقوال والحكايات، التى تؤيد رؤيته فى الحياة والتقارب الذى يأمله بين أقطار المشرق العربى. ولقد كان المازنى مسكونًا بفكرة الروح العربية وضرورة استكشافها. ففى الوقت الذى وجدت فيه تيارات تدعو للفينيقية والفرعونية نجده يطوِّر من خلال الرحلة انفتاحًا على المشرق العربى بهدف الاستكشاف والتعارف والتقارب تمهيدًا للتعاون. فالمازنى فى رحلاته مهموم بما أسماه "روح الشرق العربى الواحدة" وهى الفكرة التى يكررها تحت مسميات عدة مثل "روح العروبة" أو "المعنى العربى" أو "الحركة العربية". وهو لا يخفى أن هذا هو الهدف المباشر والدافع الأساسى لرحلاته، أن يثبت لقارئه تلك القرابة الروحية التى لا فرق فيها كما يقول "بين العراق والشام ولبنان وفلسطين والحجاز ونجد واليمن".

لقد كان التعرف على الجوانب التى تبرز هذه الروح فى الأماكن التى يزورها هو هدف المازنى الأساسى دائمًا، فرحلاته - أو الصيغة التى قدمها بها - كانت بمثابة محاولات متكررة لاستكشاف هذه العربية المشرقية الواحدة.



الغلاف: ماجدة ضياء





